المُرِيد

ترجمة دقيقة كاملة لقصة "التلميذ"

للكاتب الفرنسى الكبير

بول بورجيه

مصدرة بمقدمة بقلم الاستاذ ابراهيم المصرى
صاحب مجلة « الادب الحى »

دار "مجلتى" للطبع والنشر

الإهداء

إلى

خليل بك مطران

أستاذى الكبير

كنت أول من عرف المصريين إلى شخصية بول بورجيه وأول من هدانى إلى هذا الكاتب الكبير عقب مطالعتى قصة «الغريب» التى نقلتها عنه إلى لغتنا العربية بأسلوبك الرائع وقلمك المتقد.

فاليك أنت أهدى قصة «المريد». وما ترجمتها إلا قبس منك. فعساها أن تقع منك موقع الرضا وعساى أن أكون قد أديت بترجمتها دينا فى عنق للعربية ولك ؟

سليم سعده

حنفية دوشاون

بول بورجيه وقصة المريد

تألقت فى سماء الأدب الفرنسى فى مستهل القرن العشرين وإلى أن أعلنت الحرب الكبرى أربعة أسماء عظيمة هى (أناتول فرانس) و (بيرلوتى) و (موريس باريس) و (بول بورجيه)

وكان الأول أى أناتول فرانس أديباً شكوكياً نصف فوضوى يلهو بالآراء والأفكار ويعبث بها وينشد الجمال ويرى في الفن غاية هذه الحياة الدنيا . وكان الثانى كاتباً لطيف الحس رقيق الشعور انثوى العاطفة ، يجيد

الوصف والتصوير ويعرف كيف يرسم لك الطبيعة بريشة ماهرة تجمع إلى دقة الحقيقة روعة الخيال الشعرى.
وكان الثالث أديباً ورجل عمل وكفاح يتغنى بماضى بلاده المجيد، ويقدس الشخصية المتحضرة القوية، ويكتب فى شرح هذه الشخصية المنشودة وطرائق تثقيفها ابحاثا فلسفية شائقة ثم يتبرم بالأدب فترة فينزل معترك السياسة وينتخب فى البرلمان ويشترك فى الجمعيات الوطنية التى كان يتولى زعامتها الشاعر المشهور بول ديروليد والتى كانت ترمى إلى استجماع قوى الفرنسيين لأخذ الثأر من ألمانيا واسترداد الالزاس واللورين

وكان بول بورجيه وطنياً صميما يؤمن بدعوة موريس باريس وبول ديروليد ولكنه لم يهبط مثلهما معترك العمل والكفاح ولم يفكر لحظة فى الاشتغال بالسياسة ولم يتأثر لا بتشكك أناتول فرانس ولا بخيال بيير لوتى المخنث بل حول تيار ذهنه نحو النقد الأدبى والفن الروائى وطمع فى وضع قصص يصور فيها الحالة الاجتماعية فى عصره تصويراً قوامه التحليل النفسانى العلمى وقاعدته إصلاح المجتمع الفرنسى وتلقيح ديمقراطيته بالمبادىء التى يعتنقها المحافظون انصار النظام الملكى

وبدأ بورجيه حياته الأدبية باخراج مجموعتين من الشعر لم تصادفا النجاح الذى كان ينشده لما اشتملتا عليه من عواطف واحساسات جافة يسودها العقل ويتحكم فيها ويخفف من حرارتها الطبيعية الصادقة.

شعر النقاد ان هذا الرجل ليس بشاعر، وأن ادراكه أعمق من عواطفه، وعقله أقوى من أعصابه. وأحس بورجيه نفسه بحقيقة مواهبه وملكاته فترك الشعر وانصرف إلى معالجة النقد الأدبى.

وأخرج بعد ذلك كتابه المشهور (دراسات فى السيكولوجية العصرية) ولم يكد يظهر هذا الكتاب حتى ضجت له الأندية الأدبية واستقبله النقاد بالتهليل واعتبروه فتحاً فى النقد الأدبى الفرنسى ورفعوا بول بورجيه إلى مستوى الناقد سانت بوف.

وكان بول بورجيه قد تأثر فى ذلك الوقت بالمؤرخ والفيلسوف هيبوليت تاين وتتلمذ عليه وحاول أن يطبق نظريته فى تحليل عوامل البيئة والوراثة على الشخصيات الأدبية التى تناولها بالنقد فى كتابه المشار إليه.

وفى هذا الكتاب عرض بورجيه لتحليل عشر شخصيات من أكبر الشخصيات الأدبية فى القرن

التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مثل بودلير وارنست رينان وجوستاف فلوبير وايفان تورجنيف وأميل .

وكان بورجيه يحلل فى دراساته عوامل الوراثة التى كونت شخصية الأديب وعوامل البيئة التى اشتركت فى خلق مزاجه الخاص مستنداً في أحكامه وتقريراته إلى الأعمال الأدبية التى أنتجها الأديب ثم يستخرج من هذا كله نظرات فلسفية واجتماعية تلقى ضوءاً ساطعاً على مختلف التيارات الفكرية والعاطفية السائدة في عصره والمسيطرة على عقول أبناء هذا العصر وقلوبهم .

وامتاز بورجيه في هذا الكتاب بأسلوب متزن متماسك وافر المنطق محكم البناء يدل أبلغ الدلالة على ثقافة واسعة واطلاع غزير وملكة أصيلة فى النفاذ إلى جوهر الشخصيات وتحديد عواملها النفسية وتقدير انتاجها الأدبى .

واعتقد الكثيرون أن ميدان بورجيه هو النقد وأن ذهنه ذهن ناقد عبقرى فحسب ، ولكنه كان قد طالع أعمال الروائى الكبير أونوريه دى بلزاك وتأثر به وشعر فى أعماق نفسه قوة غريبة تدفعه إلى القصص

فما كان منه إلا أن انصرف عن النقد ردحاً من الزمن وشرع يجرب قواه في الفن القصصي.

وكان لابد أن يصطبغ أسلوبه الروائي بأسلوبه فى النقد. وكان لا بد أن يتناول القصة بنفس الخاصة العقلية التى امتاز بها في النقد. وهذه الخاصة هى التحليل.

أراد بول بورجيه أن يقيم رواياته على قاعدة التحليل النفسانى ففعل وأحرز فى هذا الميدان أيضاً شهرة لا تقل عن شهرته كناقد المعى.

ولكن كيف يحلل بول بورجيه؟ وما هى الطريقة التى يعرف بها أسلوبه الروائى التحليل؟

إن هذا القصصى الذى توافر زمناً طويلاً على دراسة التاريخ والفلسفة والطب وتشبع بالروح العلمية المحضة لا يستطيع أن يرسم شخصيات أبطاله إلا بروح العلم وأسلوب العلم.

فهو يعرض لك الشخصية ضمن حادثة شائقة محكمة الحبك والسياق ثم يشرع فى تحليل كل عاطفة من عواطفها وكل خلجة من خلجاتها.

يحلل ويجزىء ويشرح كل ما يدور فى نفس تلك الشخصية في الحاضر والماضى وذلك من

خلال الحوار أو أثناء عملية العرض والسرد .

فالحوار عند هذا الكاتب لا ينصب في مجرى واحد منبسط صاف ، بل تتخلله على الدوام تحاليل مسهبة يقوم بها المؤلف ليطلعك على الأسباب النفسية التى حدت بالبطل إلى القاء هذه الجملة ، أو العوامل الفكرية التى حملته على التفوه بهذه العبارة ، أو تأدية تلك الحركة .

وقد عاب بعض النقاد على بول بورجيه هذه الطريقة وزعموا أن ذلك الاسراف فى التحليل من خلال الحوار يفقد الحوار صبغته الطبيعية ويشعر القارىء بعقل المؤلف الكامن وراءه ويجرد القصة من طابع الحركة والحياة .

وقد يكون فى هذا النقد الشىء الكثير من الصواب ولكن بورجيه لا يحفل بتصوير حركة الحياة الظاهرة قدر احتفاله برسم الميول والاهواء التى تسرح فى أعماق النفس البشرية . والناقد الذى يأخذ عليه اهماله حركة الحياة يجد فى روعة التحاليل وصدقها ما يعوض ذلك النقص الفنى .

فبول بورجيه يفعم الحوار بالتحليل . ولكنه لا يكتفى بتحليل العواطف والاحساسات فقط بل يحاول أن يستغلها استغلالا واضحاً متوخياً فى ذلك طرائق الأسلوب العلمى

ولكى نقرب هذه الظاهرة إلى ذهن القارىء نتبسط فى الشرح ونقول : ان بورجيه بعد إذ يفرغ من تحليل جزئيات العاطفة يجتهد فى أن يستخلص من تحاليله الطويلة نظريات نفسانية وفلسفية يمكن أن تطبق على الناس جميعاً لا على أبطال رواياته فقط.

وهكذا يتدرج من الخاص إلى العام . من القصة إلى الفلسفة . من تحليل شخصيات مستقلة إلى استخراج نظريات شاملة فى النفس والطبيعة والأخلاق وما وراء الطبيعة .

يتضح مما تقدم أن بورجيه لا يكتب القصة من أجل القصة ولا يحلل نفوس أبطاله ثم يكتفى بهذا التحليل ، بل يستنتج ويستقرىء ويخرج بآراء عامة لو نزعناها من مجموع القصة لما تأثر العرض والسياق وجوهر الموضوع.

وهذه الظاهرة الأخيرة عابها عليه النقاد أيضا ولكنه لم يستطع التحرر منها لخضوعه للعقل العلمى بل لقد أسرف فيها، لاسيما فى قصصه الأخيرة، اسرافا غلب الفكر فى القصة على الخيال والتحليل على الحركة والمنطق الجاف على التصور الشعرى .

وكانت أولى الروايات التى أخرجها بورجيه والتى

بهرت بعمق تحليلها عقول الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة : (اللغز القاسى) و (جريمة حب) و (اندريه كورنليس) و (الدوقة الزرقاء) و (الغرام الفاجع) و (قلب امرأة).

جميع هذه القصص لا حوادث فيها ولا وقائع ولا مباغتات ، ومعظمها يدور حول أزمة نفسانية لا يستغرق سردها أربعة أسطر ولكن بورجيه بعبقريته الخاصة يستطيع أن يحصر أعراض هذه الأزمة النفسانية فى ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط وأن يحلل أجزاءها ودقائقها تحليلا يستغرق ثلثمائة أو أوبعمائة صفحة يطالعها القارىء المثقف المستنير بلذة لا تشوبها شائبة الملل .

فقصة « جريمة الحب » مثلا يدور موضوعها حول امرأة وفية قادها افراط زوجها فى الشك فيها إلى التبرم بحياتها وارتكاب نفس الجريمة التى كانت بريئة منها . وقصة « اللغز القاسى » هى حكاية المرأة التى تحب بكل قوى نفسها ثم تخون على الرغم منها في ساعة من تلك الساعات الرهيبة التى تستفيق فيها الفطرة الحيوانية الكامنة فى أعماق الطبيعة البشرية فتعصف بالعواطف وتكتسح الفضائل وترد الانسان إلى أصله الوضيع

الأول . وقس على هاتين القصتين معظم القصص التى وضعها بول بورجيه فى المرحلة الأولى من حياته الأدبية.

ومما يجب أن نلاحظه أن حياة بورجيه الأدبية امتازت بمرحلتين متباينتين :

المرحلة الأولى هى التى كان يؤلف فيها رواياته ولا غرض له إلا بحث الأعراض النفسانية بغية استخراج نظريات فلسفية وسيكولوجية تتعلق بالأخلاق والآداب العامة ، وفي هذه المرحلة كان بورجيه أقرب إلى الروائى الفنان منه إلى المصلح الاجتماعى . أما فى المرحلة الثانية فقد تفوق فيه المصلح على الفنان وأصبحت رواياته ترمى إلى تأييد أفكار اجتماعية ثابتة وترويج الدعوة لمبادىء وآراء معينة اعتنقها الكاتب وآمن بها ووقف جهده الأدبى على إذاعتها من طريق القصص .

اعتقد بول بورجيه أن لا خلاص للمجتمع الأوربى العصرى إلا بالعودة إلى تعاليم الكنيسة الكاثوليكية واتباع قوانينها فيما يختص بمسائل الأحوال الشخصية والاستمساك بنظام الطبقات والدفاع عن حق الملكية ومقاومة الأفكار الاشتراكية والشيوعية وتنظيم العلاقات بين الغنى والفقير على قاعدة المحبة والعطف والأحسان .

ومضى بورجيه يؤلف القصص لا مدفوعا بالرغبة القديمة فى استجلاء غوامض النفس الأنسانية فحسب بل مسوقا بأيمانه الجديد الى الدفاع عن تلك التعاليم الدينية المذهبية التى يزعم أن الحقيقة الكبرى قد تمثلت فيها.

وهكذا وضع روايات (المريد) و (حادثة طلاق) و (المرحـــلة) و (لا زارين) و (أعمالنا تتبعنا) و (مأساة فى المجتمع الراقى) وجميعها ترمى الى تأييد العقائد الكاثوليكية التى أشرنا اليها .

وهنا ثارت عليه ثائرة نقاد الأدب الذين يفرقون على الدوام بين فن القصة الأدبى وبين الرغبة فى الدعاية الدينية والاجتماعية .

والواقع أن أولئك النقاد كانوا على حق فى ثورتهم لأن نزعة الدعاية تغلبت في شخصية الكاتب على نزعة الفنان.

وأصبح الروائى يضحى بالفن والحقيقة النفسانيـة في سبيل الدعاية والأصلاح الاجتماعى فطغى الفكر على رواياته وامتلأت بالمحاضرات الدينيـة ومختلف ضروب الوعظ والأرشاد التى تتنافر وطبيعـــة الفن القصصى .

ولم يكتف بورجيه بصبغ قصصه بالصبغة الاصلاحية

الدينية بل طبع نقده الأدبى بهذا الطابع أيضاً وشرع ينقد أعمال الكتاب والأدباء ويصدر الأحكام عليهم من وجهة نظره الاجتماعية الخاصة لا من وجهة الفن والجمال .

وهكذا بدأ الرجل حياته كفنان وانتهى الى رسول دينى . والذى سينقذ ولا ريب شخصيته في نظر الأجيال القادمة هى أعماله الأدبية الرائعة فى المرحلة الأولى من حياته ، وإخلاصه فى المرحلة الثانية لعقيدته ، وصدقه فى الأيمان بها وثباته فى الدفاع عنها .

ولكنه مع كل ما تقدم وبالرغم من هذا التطور الذى وقع فى حياته وفكره على حساب الفن يظل أقدر كتاب الجيل الماضى على بناء القصة وتخطيط شخصياتها وترتيب مواقفها وأحكام الروابط بين المواقف والشخصيات وجوهر الموضوع أى يظل استاذاً لا يبارى فيما يتعلق بالجانب الصناعى من الفن القصصى .

ولقد تفوق بورجيه على نفسه تفوقاً رائعاً في قصة (المريد) التى تعتبر أقوى أعماله والتى سجل بها ظاهرة خطيرة من ظواهر الفكر البشرى وحقبة هامة من تاريخ الأدب في أوربا . وقصة (المريد) أو التلميذ تمثل مطلع

المرحلة الثانية من حياة بورجيه . وقد أراد فيها تصوير نتائج الأفكار والتعاليم اللادينية فى عقل شاب تلقى تلك الأفكار عن أستاذ فيلسوف يدين بها ويروج الدعوة لها.

فتحت تأثير تلك الأفكار شاءت الحوادث أن يكون الشاب مسؤولا عن جريمة لم يرتكبها بالذات ولم يشترك في ارتكابها وإن كان قد دفع اليها خاضعاً للأفكار والتعاليم التى تلقاها من مؤلفات أستاذه الفيلسوف .

ولنا هنا أن نتساءل : هل يجب على الفيلسوف أو المفكر أن يصارح بالحقيقة كائنة ما كانت أم عليه أن يحجبها ويخفيها متى أدرك أو شعر أن تطبيقها والعمل بها فى الحياة الواقعة قد يجر على الناس الكوارث ؟

الذى يفهم من قصة بورجيه أن الحقيقة يجب أن تخدم المجتمع بصفة مباشرة وتنتهى إلى المنفعة العامة متى طبقت على الحياة الواقعة وإلا فهى حقيقة مشكوك فى سلامتها .

ولكن ماهو واجب الفيلسوف أو المفكر ؟

واجبه فيما نعلم هو أن يصارح بتلك الحقيقة الفكرية كائنة ما كانت نتائجها فاذا أساء أحد تلامذته فهمها أو تفسيرها أو تطبيقها لم يكن صاحبها هو المسؤول عن ذلك

التفسير أو التطبيق . وإلا فلو قيدنا كل حقيقة فكرية بنتائجها العملية لوجب أن نقيد حرية الفكر نفسه وبذلك نقيم العراقيل فى وجه تطور الذهن البشرى .

ومع ذلك فنحن نعيش في الحياة . ونعيش فيها لابحواسنا فقط بل بأفكارنا أيضاً . وليس شك فى أن هذه الأفكار تؤثر فينا ومتى تملك بعضها من عقولنا ونفوسنا طبعتنا بطابعه وساقنا تحت تأثيره إلى القيام بأعمال معينة .

فمن الحق إذن أن المفكر أو الفيلسوف حر فى إذاعة أفكاره أيا كانت نتائجها على المجتمع ، ولكن من الحق أيضاً أن من الناس من يتأثرون بهذه الأفكار ويسيئون أو يحسنون تطبيقها على الواقع فيسعدون بها أو يشقون.

فأين هى الحقيقة الحاسمة ؟ وعمن يجب أن ندافع ؟ وإلى جانب من يجب أن نقف ؟ أبجانب الفيلسوف الذى من واجبه أن يعلن الحقيقة المجردة أيا كانت ، أم بجانب التلميذ الذى يأبى إلا أن يطبقها على الواقع والذى لايحكم عليها إلا بنتائج تطبيقها على هذا الواقع ؟

الحق أنها مشكلة كبرى ، وعظمة بورجيه أنه عالجها فى هذه القصة على أكمل وأتم وجه مستطاع فوضعنا

تجاه معضلة من المعضلات الانسانية التى نصطدم بها كل يوم والتى يقف عقلنا حيالها حائراً قلقاً .

وأروع مافى هذه القصة أنها تثير فيك ملكة البحث والتفكير وتهتاج فى نفسك حاسة الاضطراب والقلق وتشعرك بأن للفكر المجرد ميدانه وللمجتمع بقوانينه وأنظمته ميدانه الآخر ، وأنه قد يحدث أن تصطدم قوى الميدانين فتختلط الحقائق فى نظرك ولا تعود تدرى أين هو الخطأ وأين هو الصواب .

فهذه الحيرة الممثلة فى هذه القصة هى حيرة الفكر الانسانى منذ نشأته وهى سر قوة وجمال القصة ومبعث ذيوعها واشتهارها فى عالم الأدب الأوربى الحديث .

ابراهيم المصرى

اهـــداء

الى شاب فرنسى

أريد أن أهدى اليك هذا الكتاب يا مواطنى الشاب...
اليك يا من خبرته تماماً وان كنت لا أعرف مسقط
رأسك ، ولا اسمك ، ولا أسرتك ، ولا ثروتك ، ولا
مطامعك . ـ لا شىء سوى أنك تجاوزت الثامنة عشرة
ولما تبلغ العشرين . وانك تنقب فى مؤلفاتنا ـ لأننا
أرشد منك سنا ـ عسى أن تجد فيها جواباً على ما يساور
مخيلتك من أسئلة تقلق راحتك وتقض عليك مضجعك

وتزعجك . فعلى شتى الاجابات ، التى تعترضك في تلك المجلدات ، يتوقف جزء من حياتك الخلقية وجزء من روحك - وما حياتك الخلقية إلا حياة فرنسا الخلقية وما روحك إلا روحها - وقد لا يمضى عشرون عاما حتى تقبض أنت واخوانك على مقاليد هذا الوطن العتيد وتؤلف واياهم دعامته وصرحه . فماذا جنيت؟ بل ماذا جنيتم جميعاً من مؤلفاتنا ؟ ان الكاتب النزيه - مهما كانت مكانته ضئيلة - ليرتعد وجلا إذ يفكر في تلك المسئولية .

وإنك لتجد في « المريد » دراسة لاحدى تلك المسئوليات، فعسى أن تخرج منها بالبرهان ، على أن الصديق الذى يكتب لك هذه السطور ، يؤمن ايماناً خالصاً بصدق فنه ، وفى ذلك ما يكفيه ، ان لم يكن له ما يميزه غير ذلك ، وعسى أن تجد بين سطور هذا الاهداء دليلا على أنه يفكر فيك وهو قلق مرتاع . أجل . إنه يفكر فيك منذ أمد بعيد ، مذ درجت على القراءة بينما كنا نحن نسير فى طريقنا إلى الأربعين ، وقد أخذنا ننظم أشعارنا الأولى ونخط أول صفحة من صفحات نثرنا بين دوى المدافع التى كانت تهدر فوق باريس . كان

السرور قد فارقنا ونحن فى فصولنا، فقدغادرنا إلى الحرب من هم أكبر سنا منا، وكان علينا أن نخلد إلى مدارسنا. فكنا نشعر فى وسط هذه الفصول ، التى خلت من رفاقنا، بواجبنا العظيم نحو انقاذهذا الوطن والنهوض به.

وطالما نكرنا فيك ، نحن الذين أوقفنا نفوسنا على خدمة الأدب ، وطالما ذكرناك فى سنة ١٨٧١ - تلك السنة المشؤومة - أيها الشاب الفرنسى ؛ وطالما رددت مع رفاق تلك الأبيات الرائعة التى تجلت فيها عظمة تيودور دى بانفيل:

« أنتم يامن أحيي فيكم فجراً جديداً ،
« أنتم يامن ستحبوننى جميعا ،
« ياشباب العصور المقبلة ،
« ويا جنود تلك الفرق المقدسة »

وكم تمنينا وأردنا أن يكون الفجر الجديد الذى ستستقبلونه فى الغد وضاحاً جلياً بقدر ما كان فجرنا نحن حزيناً ملبداً بسحب من الدم . لقد أملنافي حبكم لنا - وأنتم وليدو الأمس - فعملنا على أن نخلف لكم مايجعلكم خيراً مما كنا فيه . وحدثنا أنفسنا بأن واجبنا يدعونا الى أن نخلق لكم فرنسا جديدة وأن نجعل من مؤلفاتنا وعباراتنا

وجهودنا مثالا تنسجون على منواله عسى أن ننتشل فرنسا من وهدة انكسارها ونغسل عارها ، وأن نشيد فرنسا عظيمة خالدة فى حياتها الداخلية ومكانتها فى الخارج

ولئن كنا في ذلك العهد فتياناً فقد أخذنا عن أساتذتنا - وهذا خير ما درسوه لنا - أن الانتصارات والهزيمة فى الخارج تعبر عما فى داخلية البلاد من فضائل أو نقائص . ولقد كنا نعلم أن ألمانيا اذا بعثت في فجر ذلك العصر، فان ذلك يرجع ، قبل كل شيء، الى حالتها النفسية . وخبرنا أن النفس الفرنسية هى التى جرحت فعلا فى سنة ١٨٧١ ، وهى التى كان يجب اسعافها وتضميد جراحاتها وشفاؤها، وما كنا وحدنا لنفهم - فى سذاجة جيلنا - أن الأزمة الخلقية كانت أعظم أزمات هذا البلد . وقد عبر عن ذلك اسكندر ديماس ، زعيمنا الشجاع الأوحد، فى مقدمة كتابه « زوجة كلود» الذى وضعه فى سنة ١٨٧٣ موجها حديثه الى الشاب الفرنسى فى سنه . كما أوجه اليك حديثى يا أخى الصغير : « احذر فأنت تمر بأطوار عصيبة ... لقد دفعت ثمنا غالياً ولما تنته بعد من دفع جميع الثمن لما نتج عن أخطائك وهفواتك الماضية. وليس الأمر الآن أن تكون خفيف الروح ، أو طائشاً ، أو ملحداً ،

أو مهذارا، أو متشككا، أو لعوبا. فكف عن كل ذلك ردحاً من الزمن. فان الله، والطبيعة، والعمل، والزواج، والحب، والنسل، كل أولئك من الحقائق المجلوة وهي تنتصب أمامك. فيجب أن تتجلى كلها وتحيا أو أن تموت أنت.»

فأنا واحد من أفراد تلك السلالة التى تتعلق بهذا الأمل الكريم، أمل اصلاح فرنسا، ولكننى لا أستطيع أن أجزم القول بأن تلك الفئة قد نجحت فى عملها، كما لا أستطيع أن أجزم بأنها كانت لا تهتم لغير هذا العمل الجليل. بيد أنى أستطيع أن أؤكد أنها عملت كثيراً — أجل، كثيراً. ولكن على غير أساس أو قاعدة. وا أسفاه! وإن كانت جهودها متواصلة مطردة. وإننى لأتأثر عند ما أفكر فى النزر اليسير الذى قام به رجال الحكم لخدمتها، والى أى حد كنا منبوذين مهملين لا معين لنا إلا نفوسنا وجهودنا الشخصية.

ما أفظع الاهمال الذى أظهره لنا جميع هؤلاء الساسة التعساء الذين كانوا يسيرون دفة الأعمال والذين لم يفكروا البتة فى تعضيدنا وتشجيعنا وارشادنا. آه! ما أنبل الطبقة المتوسطة. تلك الطبقة العاملة القوية التى ما زالت فرنسا تحتفظ بها! فكم أنجبت تلك الطبقة،

منذ عشرين عاما ، بين ضباط عاملين وساسة فى منتهى الحذق والمهارة ، ومدرسين ، وفنيين ! وإنى لأسمع أحيانا هذا القول : « ما أعظم حيوية هذا البلد ! فهو يشق طريقه الى الامام ويتقدم تقدماً حثيثاً حيث يموت غيره ... »

فاذا استمر فى سيره إلى الأمام ، فى سبيل رقيه كما كان يفعل منذ عشرين عاما ، فان الفضل فى ذلك يرجع إلى ارادة شباب تلك الطبقة التى رضيت بكل شيء ما دام لخدمة هذا البلد . لقد شاهدت تلك الطبقة كثيراً من الحكام ـ وكلهم من سقط الأمة وحثالتها ، وهم وإن كانوا لم يحكموا أكثر من ساعات معدودات إلا أنهم قضوا بجرة قلم ، وباسم الحرية ، على أعز عقائدها . وكم رأت تلك الطبقة من ساسة هم من الأوغاد ، يعبثون بالرأى العام ويسخرون من قدسية الانتخابات كما يعبث الطفل بلعبة فى يده . فيرفعون الجهلة من أذنابهم إلى أكبر مناصب الدولة وأبرزها !.

لقد تحملت آلام ذلك الانتخاب ، فهو أفظع مظهر من مظاهر الظلم والاستبداد والوحشية ـ إذ أن سلطة الجموع أفظع السلطات وأشدها وحشية لأنها لا تملك فى جانبها الجرأة والخبرة والفن ـ لقد خضع شباب تلك

الطبقة المتوسطة لكل شيء، وسلم بكل شيء، ليكون له الحق في القيام بواجبه . ولئن كان جنودنا الآن يسيرون الخيلاء فيروحون ويجيئون ، ولئن كانت الدول الأجنبية تحترمنا وتخطب ودنا ، ولئن كان تعليمنا العالى ينمو وينتشر ، ولئن كانت فنوننا وآدابنا ما تزال تؤيد عظمة عبقريتنا الأهلية ، فاننا مدينون إلى تلك الطبقة بذلك كله .

حقاً إنه لايوجد بين شبان تلك السلالة - وليدة الحرب - من يفاخر بانتصار حربى ، وأنها لم تستطع أن تعيد لهذا البلد شكل حكومته التقليدى ، ولا أن تذلل المسائل الرهيبة التى فرضتها علينا أخطاء الديموقراطية فرضاً . ومع ذلك حاذر أن تحتقرها - ياشاب سنة ١٨٨٩ - وليكن حكمك عادلا على من هم أكبر منك سناً ، لأن فرنسا انما ماتت بيدهم .

أما كيف ستحيا بفضلك أنت ؟ فهذا هو السؤال الذى يقلق - فى الوقت الحاضر - بال من حافظ حتى الآن على ايمانه ببلاده ومازال يعتقد بأنه لابد أن يبعث من لحده ويسمو . لقد تلاشت من أمام عينيك رؤيا الفرسان البروسيين وهم يختالون على ظهور جيادهم فى طرقات بلادك ، فلم تعد تقع عليها عيناك لتثير فى نفسك

الذكرى المؤلمة . وإنك لا تعرف الآن من ذكريات الحرب الأهلية إلا ما تراه من الآثار الباقية من خرائب مجلس المحاسبة ، تلك الخرائب العجيبة التى تنبت الأعشاب والأشجار بين أحجارها المتكدسة كأنها انقاض قصور أثرية ، وستظل هكذا حتى تزيل الأيام هذا الأثر إلى الأبد . أما نحن فقد أبينا أن نسلم بصحة صلح سنة ٧١ ونعترف بأنه سوى المسائل إلى الأبد . . .

وكم أود أن أعرف إذا كنت تفكر مثلنا! كم أود أن أعرف أنك لن تنبذ عنك ما كان كل منا يرى فيه حلمه المقدس ، ويجد فيه تعزية وسلوى ، حتى أولئك الذين لم تنطق ألسنتهم بكلمة نقد أو تذمر ! ولكن لا . فانا على يقين من ذلك. كما أنى على يقين من أنك تشعر بالكآبة كلما مررت بالقوس حيث مر الآخرون، حتى بصحبة صديق لك في احدى ليالى الصيف الجميلة .وانك لتهجر كل شيء مرحاً مسروراً، لتسير إلى هنالك، لو طلب منك ذلك غداً. على أن السير إلى الموت ، والارتضاء به لا يكفى . . . فهل أنت مستعد لأن تحسن عيشك وتنظم حياتك؟ وعندما تقع عيناك على قوس النصر وتذكر أبطال الجيش العظيم ومواقفه المشرقة ، هل تأسف على أنه لم تعصف

برأسك نفثات البطولة التى طالما تصاعدت من صدور جنود ذلك العهد؟ وعند ما تتذكر عهد التطور والانتقال ومنازعات الكتاب الخياليين ، هل تشعر بالحنين إلى أنه لا يوجد لديك - كما كان لهرنانى - علم أدبى كبير لتدافع عنه؟ وهل تشعر بالاضطراب عند ما تصادف أحد زعماء الأدب فى ذلك العصر - كديماس ، أو تين ، أو لكونت دى ليل - إذ تفكر أن الماثل أمامك يمثل عبقرية بلادك وجنسك؟ وعند ما تقرأ الكتب - تلك التى يجب علينا أن نكتبها عند ما يطلب منا تصوير الشهوات الآثمة وشهدائها - هل تؤثر أن تحب أحسن مما أحب مؤلفوها؟ وفي النهاية ، هل عندك مثل أعلى خير من مثلنا الأعلى ، وإيمان أعظم من إيماننا ، وأمل أكبر من أملنا؟ فاذا كان ذلك ، فهات يدك أشد عليها وأقول لك : إننى أشكرك .

— وإذا كان لا؟ . . .

إذا كان لا؟ . . . فأننى أتمثل فى تلك اللحظة فتيين من الشبان ، وهما أيضاً ماثلان أمامك فى شكلين مخيفين مشؤومين للغواية والاغراء . — أحدهما ماجن ، مرح ، أفنى حياته ولما يبلغ العشرين ، وإيمانه قائم على كلمة :

الاستمتاع – وهى تفسر بكلمة : الوصول . فسواء عمل هذا الشاب فى السياسة أو الأعمال الحرة ، أو الأدب ، أو الفن ، أو الرياضة ، أو الصناعة ، أو كان ضابطاً أو ملحقاً سياسيا ، أو محامياً ، فلا إله له ولا مبدأ ولا غاية إلا نفسه . لقد استعار من فلسفة هذا العصر الطبيعية سنة المضاربة الحيوية ، وهو يطبقها على العمل الذى يشيد عليه كيانه بهمة ونشاط الاختباريين الذين ينادون بمبدأ عدم الأخذ بكل ما لا يتحقق بالاختبار فتجعل منه وحشاً متمدينا ، وهو أخطر الأجناس وأروعها .

لقد خبر الفونس دوديه هذا الشاب العصرى وأبدع فى دراسته دراسة دقيقة وافية وأسماه « المناضل في سبيل الحياة » – واننا نستطيع أن نسميه بارتياح : « نهاية العصر » فهو لا يقدر إلا النجاح – ولا يقدر النجاح إلا فى المال . انه لمقتنع ، وهو يقرأ ما أكتبه هنا – إذ أنه يقرأنى كما يقرأ كل شىء ولو على سبيل الادعاء بأنه ملم بكل شىء – بأنى أهزأ بالجمهور ، إذ أصور له تلك الصورة البشعة ، وانى أنا أيضاً ، أشبهه من جميع الوجوه . انه ثوروى الى أبعد مدى في قرارة نفسه . ثوروى الى حد أنه يتصور أن غيره ينظر إلى المثل الأعلى نظرة هازل ساخر كما

يفعل هو عند ما يخطر بباله أن يتنكر في ثياب الاشتراكية الشفاف ويكذب على الشعب لينال أصواتهم في الانتخاب.

أليس هذا الشاب وحشا ؟ أما هو كذلك ؟ إن من أعظم درجات الوحشية أن يكون المرء فى الخامسة والعشرين من عمره ، وأن تكون له نفس أشبه بالآلة الحاسبة فى خدمة آلة الشهوات .

على أننى أخشى عليك منه أقل مما أخشى عليك من ذلك الآخر الذى يتمتع بأعصاب قوية هادئة وينعم بعقل سليم وذهن وقاد ، وهو مع ذلك شهوانى غليظ ومتعفن فظ . ما أفظع هذا الثورى المرفه عند ما تلتقى به وما أفظع السم الذى ينفثه ! فقد جاب عالم الافكار بأسره وهو فى الخامسة والعشرين . ونضجت فيه ملكة النقد فصارت متيقظة حادة . وفهم نتائج أقطاب الفلسفة ودقائق أفكارهم وتعاليمهم . فلا تتحدث اليه عن الالحاد أو المادة . فهو يعلم أن كلمة « مادة » لا تنطوى على معنى محدود . وهو من ناحية أخرى متوقد الذهن حاد الذكاء ليدرك أن جميع الأديان ، عند ظهورها ، كانت مشروعة . على انه لم يعتقد أبداً بدين منها ، ولن يعتقد البتة بأى دين . بل ولن يعتقد بشىء مطلقاً إلا بما يلهو

به عقله وقد حوله إلى آلة خبث وزهو .

فالخير والشر ، الجمال والبشاعة ، الرذيلة والفضيلة ليست فى نظره إلا أموراً تافهة عادية داعية للفضول . وماالنفس البشرية بأكملها إلا آلة دقيقة الصنع لايهمه منها إلا أن يفكك أجزاءها ليلهو بها كما يلهو بشىء يريد اختباره . لا قيمة لأى شىء فى نظره . فلا صحيح ولا كاذب ، ولا مقوم للخلق ولا عابث به . فهو أنانى مرفه رقيق ، تنحصر كل مطامعه - كما يقول موريس باريس المحلل الأعظم فى قصته « الرجل الحر » وهى فذة فى سخريتها ولا ينقصها إلا خاتمة قوية - فى « عبادة ذاته » واحاطة تلك الذات باختلاجات ومشاعر جديدة . إن حياة الانسانية الدينية ليست فى نظره سوى ذريعة للوصول إلى تلك الاختلاجات ، كالحياة العقلية والحياة الحسية . والسم الذى ينفثه والفساد الذى يبذره حوله لأفظع مما يخلفه ذلك العابس المستهتر المتوحش . لأنه معقد الأطراف وثوب التفكير الذى يستتر به يخفى وحشيته الباردة وخشونته الجافة الفظيعة .

اننا نعرف هذا الشاب جيداً . وكدنا نكون كلنا مثله بعدإذ سحرتنا تعاليم أستاذنا اللبق اللسن ومتناقضاته

العجيبة . بل كنا كلنا هذا الشاب يوما أو ساعة . بل ونحن كلنا هذا الشاب فى ساعاتنا المشؤومة . ولئن كنت قد كتبت هذا السفر فلكى أدلل لك على ذلك أيها الشاب فأنت فى العشرين ونفسك آخذة في التكوين . ولكى أبرهن لنفسى على ما تخفيه تلك الأنانية بين ثناياها من شرور وفجور .

احذر أن تكون أحد هذين الرجلين أيها الشاب الفرنسى . احذر أن تكون ذلك الوحش العامل بمبدأ الاختباريين الذى يعبث بعالم العقل والشعور . واحذر أن يجعل زهو الحياة منك رجلا ماجنا أو عابثا بالأفكار ! فى وقتنا هذا ، حيث تضطرب الضمائر وتسود المذاهب المتناقضة ، يتعين عليك أن تتعلق بأهداب تلك الجملة المقدسة : « يجب أن تحكم على الشجرة من ثمارها » كما تتعلق بغصن الخلاص والانقاذ .

توجد حقيقة لا يمكنك أن تشك فيها لأنك تقبض عليها وتشعر بها وتحياها فى كل لحظة : تلك هى نفسك . وانه ليوجد بين الأفكار التى تساورك ما يجعل تلك النفس أقل جدارة بأن تحب وأن تريد . كن واثقاً من أن تلك الأفكار خاطئة من إحدى نواحيها مهما

بدت لك دقيقة لبقة تعززها أجمل الأسماء الخلابة وتسترها أعظم القرائح الوقادة .

تمسك بهاتين الفضيلتين وهذبهما في نفسك : الحب والارادة . لأننا اذا استثنينا هاتين القوتين ونبذناهما فلا يبقى إلا الرجس وسكرة الموت .

ان العلم الحالى ، العلم الوفي الوديع ، يسلم بأن عالم المجهول يدخل ضمن نطاق بحثه وتحليله . ولقد أبدع الشيخ « ليتريه » فى كلامه عن محيط هذا السر الذى ترتطم أمواجه بساحلنا ، ذلك الخضم الزاخر الذى نراه أمامنا حقيقياً ولكننا لا نملك قاربا ولا شراعا لنعبره . . .

تشجع وأجب على كل من يقول لك إن وراء محيط هذا السر يوجد الفضاء والعدم وهوة سحيقة من الظلمات والموت : « أنت لاتعرف ذلك . . . » وما دمت تعلم ، مادمت تشعر أن فيك نفسا ، فاعمل بجداً حتى لاتموت تلك النفس فيك قبل أن تموت أنت .

إن فرنسا فى حاجة الى أن تفكر فى ذلك كله ، فعسى أن يساعدك هذا السفر على مثل هذا التفكير . لاتبحث فيه عن رموز لحوادث وقعت لأنك لن تجد . فقد رسمت

خطته وكتبت جزءاً كبيرا منه عند وقوع مأساتين: احداهما فرنسية والأخرى أوروبية. فعززتا اعتقادى بأن هناك تياراً من الأفكار والشعور يعبث فى الوقت الحاضر وسوف يجرف حظ كثير من العظماء والمتواضعين. شرفنى باعتقادك بأننى لم أضارب ولم أستغل مواقف طالما آلمت أناسا كثيرين وما زالت تؤلمهم. ان المنادين بالمذهب الخلق ، الباحثين عن المسببات ، كثيراً مايصادفون حالات تعزز صحة نظرياتهم وتوطدها كما انهم يفضلون فى تلك الحالة أن يكونوا من المخطئين . وكم وددت أنا - وإنى أضرب مثلا بنفسى - ألا يوجد في الحياة أشخاص يشبهون ، عن بعد أو عن قرب ، ذلك «المريد» التعس الذى يخلع اسمه على هذا الكتاب!

ولو قد كنت أعلم أن هذا الشاب لم يوجد من قبل ، أو أنه لا يوجد الآن ، لما قلت لك ماقلته يامواطنى الشاب. إننى أود من صميم فؤادى أن أكون قد أخلصت النصح اليك، كما أمنى نفسى بحبك لى، وأن أكون جديراً بحبك.

بول بورجيه

باريس فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٩

فيلسوف عصرى

شاعت خرافة لم تكذب أن يحذر سكان مدينة كينجسبرج ـ عند رؤية الفيلسوف إمانوئيل كانت ، يغير فى نظام نزهته اليومية ـ أن حادثا خطيراً سوف يقلب وجه العالم المتمدين رأساً على عقب . والواقع أن هذا المؤلف الشهير لكتاب « نقد التفكير الخالص » قد عرف فى نفس اليوم أن لهيب الثورة الفرنسية قد اندلع، وعلى الرغم من أن باريس لم تكن حلبة فسيحة لرواج مثل تلك الانفعالات والأراجيف . فان كثيراً من

سكان شارع جي ديه لابروس شعروا ، بعد ظهر أحد أيام شهر يناير من سنة سبعه وثمانين وستمائة بعد الألف ، بمثل تلك الدهشة عند ملاحظتهم ، في نحو الساعة الواحدة ، خروج فيلسوف آخر — وهو وان كان أقل شهرة من الشيخ « كانت » إلا أنه يضارعه في نظام معيشته وغريب أطواره ، كما أنه كان أشد منه هدماً في تحاليله وكتاباته : المسيو أدريان سيكست ، الذي يسميه الانجليز بارتياح « سبنسر الفرنسي » — ويجدر بنا أن نضيف في الحال أن شارع جي ديه لابروس الموصل بين شارعي جوسيو ولينيه ، هو جزء من قرية تحدها حديقة النباتات ومستشفى الرحمة ومستودع النبيذ وسفح جبل سانت جنفيف . وهذا ما كان يجعل مثل هذه المشاهدات ميسوراً في تلك الضاحية أكثر مما يمكن أن يحدث في أحياء المدن الكبرى حيث تختلط ضجة الحياة بتشعب الحركة وتدفق سيل العربات والمارة . فهذا الحى لا يقطنه إلا صغار رجال المال ، والمدرسون الوادعون ، وموظفو دار الآثار ، والطلبة الراغبون في الدرس والتحصيل ، وفئة من الشبان المشتغلين بالأدب ممن يخشون على عزلتهم وسكينتهم من غوغاء الحى اللاتيني واغرائه .

وكانت الحوانيت آهلة بروادها الذين لا يتغيرون .وكان
الخدم إذا ما ذهبوا إلى هـذه الناحية لقضاء حاجياتهم
تحدثوا فيما بينهم عن الخباز والجزار والبقال والغسالة
والصيدلى بصيغة المفرد لعدم وجود اثنين من أصحاب
هذه الحرف . فلم يكن ثمة مجال للمنافسة بين أصحاب
الحوانيت فى هذا الحى المتصل ببقية الأحياء بخط سيارات
الجلاسير والذى تقوم فى وسطه نافورة محلاة برسوم
الحيوانات تحية لحديقة النباتات. وكان زوار هذه الحديقة
لا يدخلون اليها من الباب المواجه للمستشفى إلاماندر، ولذلك
فان شارع لينيه كان يظل هادئا ساكنا حتى فى أيام الربيع
الجميلة حيث كانت تزدحم فيه الجموع وتتفيأ ظلال أشجار
الحديقة التى تعد ملجأ مختاراً لرجال الجندية والحاضنات ،
وهكذا كانت الحال فى الطرقات المجاورة له . فاذا قدر
أن يحدث زحام غير مألوف فى هذا الركن المنعزل من
باريس كان ذلك لأن أبواب مستشفى الرحمة كانت تفتح
لعواد المرضى . وعندها تشاهد على الأفاريز وجوه
متعددة طبعت بطابع الكآبة والحزن. وكان رواد الشقاء
يحضرون لعيادة ذويهم الذين يتقلبون على سرر العذاب
خلف جدران هـذا المستشفى القاتمة وهم يحملون اليهم

الأزاهير والحلوى ، فكانت حالتهم لا تخفى على سكان الدور المنخفضة وأصحاب الحوانيت فلا يهتمون لهؤلاء المتنزهين الذين القتهم المصادفة فى هذه الانحاء ، ويصرفون جل اهتمامهم إلى مراقبة المارة الذين اعتادوا الظهور على الأفاريز فى كل يوم وفى ساعة محددة منه كما لو كانوا على موعد . ولقد كان لأصحاب الحوانيت والبوابين - كما كان للصيادين فى الحقول - اشارات خاصة يستدلون بها على تحديد الوقت ويحكمون بها على غدوات المتنزهين وروحاتهم فى هذا الحى الذى كانت تسمع فيه أيضاً بين الحين والحين صيحات بعض الوحوش التى تأوى على مقربة منه : فمن ببغاء يصرخ إلى فيل يئن إلى نسر يصفر إلى نمر يزأر . . . فاذا رؤى المدرس الحر يخب فى الطريق متأبطاً محفظته الجلدية القديمة وهو يقضم هلالا من الخبز اشتراه بفلس على عجل ، عرف رقباء الافريز أن الساعة لا تلبث أن تدق الثامنة . واذا خرج صبى الطاهى ، وهو يحمل على رأسه الأوانى المغطاة ، عرفوا أن الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، وان قائد الفرقة ، الذى يقيم وحده منذ احالته على المعاش فى الطابق الخامس من احدى هذه الدور ، سيتناول طعام الغداء . وهكذا كان لكل

لحظة من ساعات النهار علامة يستدل بها عليها . فكانت الألسنة تتناول بالنقد اللاذع جميع أزياء النساء اللاتى يتنقلن في هذا الحى . وبعبارة أوضح فان أقل حركة أو اشارة تبدر من سكان هذه الشوارع الاربعة أو الخمسة التى يتألف منها هذا الحى كانت مضغة الأفواه ، وأخصها بالذكر حركات المسيو « أدريان سيكست » وسكناته . ويكفى أن نأتى على وصف موجز لهذا الشخص لنقف على سبب هذا الاهتمام . كما أن تفاصيل حياته ونظام معيشته كافية لتؤيد نظرية جماعة الفضوليين ممن يدرسون الطبائع البشرية فى ظاهرة اجتماعية نادرة - هى ظاهرة الفلاسفة المحترفين - وتعززها بحجة دامغة . لقد وصف لنا قدماء الكتاب بعض أفراد هذه الفئة . وحديثا حبانا « كولوريس » بكتاباته عن « سبينوزا » كما نفحنا « داروين » و « ستيوارت ميل » بشىء عن نفسيهما . بيد أن « سبينوزا » كان هولنديا من القرن السابع عشر . و « داروين » و « ميل » قد نشآ فى وسط الحضارة الانجليزية الثرية العاملة . أما المسيو سيكست فقد كان يقضى حياته الفلسفية فى وسط باريس وفى نهاية القرن التاسع عشر . لقد عرفت فى سنى حداثتى - اذ كنت أهتم بمثل هذه الدراسات - عدة

أشخاص سجنوا أنفسهم مثله فى جو الحياة المجردة .
ولكننى لم أصادف خيرا منه لأدرس ، على حقيقتها ، حياة شخص يشابه ديكارت ويقضى حياته فى هولندا ملتفاً بكفنه ، أو بعبارة أوضح ، حياة من فكر فى وضع كتاب « الأخلاق » وهو لايعرف من أساليب اللهو والتحرر من قيود التخيلات الا الاستمتاع ، فى بعض الأحيان ، بتدخين غليون أو قتل العنكبوت .

مضى أربعة عشر عاما على مجىء المسيو سيكست ، عقب انتهاء الحرب ، للاقامة فى أحد منازل شارع جى ديه لابروس حيث هو الآن معروف لجميع سكانه . كان فى ذلك العهد البعيد رجلا يناهز الرابعة والثلاثين من عمره الا أن جميع مظاهر الشباب والفتوة كانت قد تحطمت فيه وتلاشت لانصراف ذهنه كلية الى التفكير ، بحيث أصبح من المتعذر أن يحكم ، من النظر الى هذا الوجه الامرد ، على سن صاحبه أو مهنته . وانك لتجد ، لشتى الأسباب ، بين الأطباء والكهنة ورجال الأمن والممثلين مثل هذا الوجه الأمرد الذى ينطوى على كثير من المعانى مع مايبدو عليه من جمود وصلابة . وكان عريض الجبهة ، شارد الذهن ، نحيف الشفتين ، أصفر اللون ، متعب العينين

من كثرة المطالعة ، فكان لذلك يسترهما بنظارة سوداء .
وكان نحيل الجسم ، سميك العظام ، لا يغير من هندامه ، فيرتدى
شتاء سترة طويلة (ردنجوت) من جوخ سميك ذى زغب ،
ويلبس صيفا سترة من الجوخ الخفيف وينتعل حذاء
معقوداً بشريط . وكان شعره طويلا ناعما وخطه الشيب
الا قليلا ، وهو يخفيه تحت قبعة عالية من نوع « الجيبوس »
تنكمش وتمتد ميكانيكياً . فى مثل هذا الزى تقدم لنا
هذا العالم ولم يمض عليه شهر حتى نظمت حركاته
وتحددت مواعيده كأنه أحد رجال الدين . وكان يقيم
في شقة فى الدور الرابع أجرتها سبعمائة فرنكا وهى
مؤلفة من حجرة للنوم وأخرى للعمل وثالثة للطعام
كبيرة كأنها حجرة سفينة ، ومطبخ للخادم . وجميع هذه
الحجر تطل على الأفق إلى أبعد مدى . فكان الفيلسوف
يشاهد من نوافذه جميع أنحاء حديقة النباتات الشاسعة
وهضبة الأب لا شيز فى الصدر وراء فسحة من
الأرض تؤدى إلى ساحة السين . وكانت محطة أورليان
وقبة ملجأ السالبترير قائمتين أمام نظره . وفى الجهة
اليمنى غابة كثيفة من أشجار الأرز تلقى ظلالها على السهل
الأخضر المجاور لها أو تنفذ أشعة الشمس خلال أغصانها

إذا تعرت من أوراقها تبعاً لفصول السنة . وكان دخان المصانع يتصاعد إلى عنان السماء وهو يلتف على بعضه كأنه سحابة تنطوى ثم تنتشر وينبعث منها هدير خافت أشبه بهدير خضم بعيد تتخلله أصوات صفير القطارات والسفن . لا شك فى أن المسيو سيكست - باختياره مثل هذا الملجأ الهادىء - قد عمل بما يوحى به ناموس الطبيعة الذى تخضع له طبيعة المفكرين ، وان لم يوجد لمثل هذا الناموس سبب أو تعليل . أو لم تشيد جميع الاديرة ، أو أغلبها ، في أماكن تسمح للنظر بالتمتع بالطبيعة إلى أبعد مدى مستطاع ؟ قد تكون هذه الانحاء البعيدة المضطربة خير معين على حصر الفكرة التى ربما تشتتت وخرجت عن دائرتها إذا اعترضتها مناظر قريبة أو محصورة ؟ وربما وجد النساك أيضا لذة فى التناقض بين التفكير فى جمود - وهذا يتطلب مجالا ضيقاً - وبين اتساع المجال المنبسط أمامهم كالذى ينمو فيه نشاط الرجال الآخرين ؟ ومهما يكن من أمر هذه النظرية الصغيرة المرتبطة بتلك النظرية الأخرى التى لم تدرس إلا قليلا - وهى شعور الحيوان عند الرجال العقلاء - فانه لا يوجد أى مجال للشك فى أن تلك القرية الهادئة الحزينة كانت ،

منذ نيف وخمسة عشر عاماً ، السمير الوحيد الذى يتحدث اليه هذا المفكر الصامت أكثر مما عداها . وكانت تقوم بخدمته احدى الخادمات اللاتى يحلم بمثلهن جميع العزاب الذين يعتقدون أن تأدية بعض الواجبات المنزلية على الوجه الأكمل تتطلب كثيراً من الاعتدال النسبي مع الحياة التى يعيشها رب الدار . وكان الفيلسوف ، عند مجيئه للاقامة فى هذا الحى ، قد طلب من البواب خادماً لتعنى بشؤون مسكنه ومطعماً يجلب منه طعامه . لقد كان يمكن أن تكون نتيجة هذين الطلبين عكسية فيأتيان بأسوأ العواقب : أن تهمل الخادم خدمته وأن يؤتى له بطعام تمجه نفسه . على أن النتيجة جاءت بأحسن مما كان ينتظر فقد سمحت لادريان سيكست بأن يحظى بالشخص الذى يحلم به ويعلق عليه جميع أمانيه ، إذا قدر أن يكون لمثل هذا الباحث المنقب - كما يسمى رابليه أمثال هذا الرجل الخيالى - أحلام وأمانى .

وكان البواب - جرياً على عادة بوابى المنازل المقسمة الى شقق صغيرة - يعمل على زيادة دخله الضئيل باحتراف مهنة يدوية . فقد كان اسكافياً وللجديد والعتيق ، كما تشير الى ذلك لوحة ملصقة بزجاج النافذة المطلة على الشارع .

وكان من بين عملاء الأب كاربونيه - هكذا كان يدعى الاسكافي - كاهن يقيم فى شارع كوفيه . وكان هذا الكاهن شيخاً ، يعيش في عزلةعن العالم ، وتقوم بخدمته الآنسة ماريت ترابنار وهى امرأة ناهزت الأربعين تعودت أن تدير شؤون سيدها منذ أعوام عدة كما يتراءى لها . ومع ذلك فانها - على الرغم من المدة التى قضتها - ظلت ساذجة فى طباعها وأخلاقها فلم تغرها الدنيا بوعودها أو طلائها المنمق الكاذب ولم تعلل نفسها بأنها ستكون يوماً ما سيدة . وكانت هذه الخادم لا تكل ولا تمل . ولكنها كانت تأبى كلية أن تشتغل فى منزل ، مهما كان الأجر الذى تتقاضاه ، قد تحتك فيه بسلطة امرأة أخرى ونفوذها . وشاءت الأقدار أن يموت الكاهن فجأة في الأسبوع السابق لمجيء الفيلسوف للاستيطان فى شارع جى ديه لابروس. وكان الأب كاربونيه قد أدرك بسهولة - بفضل البيانات التى أدلى بها على صك الايجار حيث أوضح بأنه يعيش من ايراده - حقيقة حال هذا الساكن الجديد ، وفي أية طبقة من الرجال يجب أن يضع المسيو سيكست . وبنى استنتاجه هذا أولا على كمية الكتب التى تتألف منها مكتبة العالم ، ثم على ثرثرة

خادم أحد سكان الطابق الأول - وهو مدرس بكلية فرنسا، كما تشهد على ذلك براج دورس هذا المعهد الشهير الملصقة على الجدران - وكان أقل حادث يقع في مثل هذه الأحياء الباريسية يعد حدثاً غريباً في نظر الطبقة الوسطى، فتلوكه الأفواه وتتناقله الألسنة. وفعلا فإن الخادم أخبرت سيدتها باسم الجار الجديد الذى جاء ليقيم في الطابق الرابع، والسيدة أخبرت زوجها به، وهذا الأخير تكلم بدوره على المائدة بألفاظ خيل للخادم أنها فهمت معناها جيداً واستنتجت من مضمونها أن هذا الساكن «يعيش في وسط الأوراق» كسيدها ... من ذلك كله رأى كاربونيه أنه لن يكون جديراً بمهنته كبواب باريسى إذا هو لم يجمع - بالاتفاق مع زوجته - بين المسيو ادريان سيكست وبين الآنسة ترابنار، خصوصاً وأن مدام كاربونيه عجوز تكاد تكون مقعدة، على انها مع ذلك تهتم بشؤون ثلاثة من سكان المنزل، بحيث لم يكن في مقدورها أن تعنى بشؤون هذا الساكن الجديد.

ومن جهة أخرى فإن غريزة الدس والنميمة - التى تجد في وسط البوابين والخدم مرتعاً خصباً، فتزدهر فيه وتنمو نمواً سريعاً، كأغصان الجهنمية وزهورها الحمراء

والعطر الشاهى والريحان - قد حببت الى هذين الزوجين أن يقنعا العالم بأن الأطعمة التى تقدم من طهاة الحى رديئة ، وانهما لايوصيان بخادم ، فى جميع هذه الأنحاء خير من خادم المرحوم الكاهن فايسييه فهى « درة يتيمة » من حيث الرزانة ، ورجاحة العقل والنظام والاقتصاد والمهارة فى الطهى . ومجمل القول أن العالم وافق على رؤية تلك الوصيفة التى صورت له كمثال للخادم الكاملة . وخدع عالمنا فعلا بمظاهر الصدق البادية على محيا الفتاة كما أنه ارتاح إلى فكرة أن مثل ذلك النظام سيسهل عليه طرق معيشته كثيراً ، لأنه سيعفى نفسه من عناء مهمة شاقة كريهة، هى مهمة إعطاء الأوامر الايجابية بنفسه . والتحقت الآنسة ترابنار بخدمة هذا السيد على ألا تغادره أبداً نظير أجر شهرى حدد بخمسة وأربعين فرنكا ولم يلبث أن وصل إلى ستين فرنكا فى مدة وجيزة . والى جانب هذا الأجر كان العالم يتحفها بهدية لا تقل قيمتها عن خمسين فرنكا . ثم انه كان لايراجع حساباته ويسدد ما هو مطلوب منه فى صبيحة كل يوم أحد بلا تردد أو منازعة . فهى التى كانت تتصل بجميع الموردين وتعاملهم بدون أن تسمع من المسيو سيكست

أية ملاحظة تزعجها فى اتفاقها معهم . على أن جميع اتفاقاتها كانت دائماً نزيهة وشريفة . وبالاجمال فانها كانت تحكم فى ذلك البيت حكم السيدة المتصرفة ، وهذا ماكان يوغر صدور صغار العمال والخدم ، فكانوا لا يخفون حسدهم ويظهرونه كلما التقوا ببعضهم على سلم المنزل الذى كان يعنى بنظافته عامل خاص مرة فى كل أسبوع.

وعند ما كانت خادم الفيلسوف تجد من وقتها مايسمح لها بالتخلف قليلا أمام حجرة كاربونيه - وقد بدأت معالم الشيخوخة تظهر على ملامحه - فانها كانت تشتبك معه فى حديث فكان يقول لها :

« ه ! يامدموازيل ماريت . لقد وضعت يدك على الثمرة الرابحة . لقد وضعت يدك عليها ؟ . . . »

وكان كاربونيه مضطراً إلى وضع منظار على أنفه المربع نظراً لضعف بصره . فكان يجد صعوبة فى دق المسامير بمطرقته فى نعال الأحذية التى يصلحها وهو ضاغط عليها بركبتيه وحول وسطه شبه إزار من الجلد . وكان يعنى منذ بضع سنوات بتربية ديك أطلق عليه اسم «فردينان» ولم يعلم أحد سر هذه التسمية .

وقد اعتاد هذا الديك أن يتنقل بين الجلود ويثير

اعجاب الزوار بشغفه بالتهام ازراز الأحذية . أما إذا ثارت ثائرته فانه كان يلجأ إلى صاحبه وينشب أظافره في جيب «صديريته» ويخفى رأسه تحت أبط البواب الشيخ . فكان كاربونيه يداعبه بقوله : « هيا يافرديناك ، حى الآنسة ماريت ... » فيجيب الديك على تلك الدعوة بنقر كف الفتاة بهدوء . ويتابع صاحبه قوله :

ـــ « مازلت أقول : لا يأخذنك اليأس، إذا ماحلت سنة رديئة فلسوف تعقبها فى الحال سنتان طيبتان . ان السنين تلحق بعضها كما يلحق فرديناك الفراخ . أليس كذلك يا شق ؟ »

فتجيب ماريت :

ـــ « هذا صحيح . ويجب الاعتراف بأن سيدى رجل فقير ، والتسليم بذلك . إنه رجل طيب السريرة مادام ، من الناحية الدينية ، رجلا كافرا ، ملحدا ، فهو لم يذهب إلى القداس مرة واحدة منذ خمسة عشر عاما ... »

فيجيبها كاربونيه :

ـــ « كثيرون هم أولئك الذين يترددون على الكنيسة لاستماع القداس . وأولئك هم العربيدون الذين يصلون الليل بالنهار ... »

ويمكن الاستدلال ، من هذا الحوار البسيط، على الرأى الذى كونته الآنسة ماريت فى سيدها . على أن هذا الرأى يظل مبهماً غامضاً اذا نحن لم نأت هنا على لمحة من أعمال الفيلسوف وتاريخ فكرته : ولد ادريان سيكست عام ١٨٣٩ فى مدينة نانسى حيث كان أبوه يدير حانوتاً صغيراً لتصليح الساعات . وامتاز ، على حداثة سنه ، بذكاء نادر وعقلية ناضجة فذة. فقد خلف بين زملائه ذكرى الطفل النحيل الصامت المنكمش على نفسه مع صلابة فى الخلق كانت مدعاة إلى نفورهم منه . وبدأ حياته بدراسات باهرة ثم متوسطة . وما إن أدرك السنة التى تدرس فيها الفلسفة - وكانت فى ذلك العهد تعرف بالمنطق - حتى امتاز بمؤهلات خاصة ومميزات عجيبة. ودهش استاذه من استعداده الكبير لدراسة علوم ما وراء الطبيعة وأراد أن يرغبه فى الالتحاق بمدرسة المعلمين فرفض أندريه وقرر لأبيه أنه مادام الأمر سينتهى باختيار مهنة فانه يفضل عملا يدويا على جميع المهن. . . ولسوف أكون ساعاتيا مثلك . . . » هكذا كان جوابه الوحيد على الحاح أبيه الذى كان يعلل نفسه ، كسواه من جماعات العمال وصغار التجار الفرنسيين الذين يتردد أبناؤهم على المدارس ، بأن ينعم ابنه بوظيفة

فى مستقبل أيامه . ولم يجد المسيو سيكست وزوجته ـ لأن أدريان لم يكن قد فقد أمه بعد ـ ما يؤاخذان ابنهما عليه . فهو لا يدخن ولا يتردد على مقهى ولا يجالس فتاة . فكان فخرهما من كل ناحية من نواحى حياته . وهذا ما جعلهما يمتثلان لارادته ولو على مضض منهما . وكذلك لم يطالباه باختيار مهنة ما . ولكنهما ، مع ذلك ، أبيا عليه أن يلتحق بأى عمل كعامل بسيط . فنشأ الشاب بينهما ولا شاغل له الا الدراسة والتحصيل كما يتراءى له . فقضى عشر سنوات فى المطالعة والاستزادة من الفلسفات الانجليزية والألمانية والعلوم الطبيعية ، خصوصا فيسيولوجيا العقل والعلوم الرياضية . ولقد أصيب فى النهاية ، بما قال عنه أحد كبار أدباء عصرنا فى حديثه عن نفسه بانه « التهاب حاد في المخ » أو هو نوع من الصرع الذى يصاب به طلاب العلوم الايجابية ، تلك العلوم التى اتخذها كارليل وميل وتين ورينان وكبار أئمة الفلسفة الحديثة قاعدة لتعاليمهم وأساسا لنشر دعايتهم . وفى عام ١٨٦٨ ـ وكان ابن ساعاتى مدينة نانسى قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ـ نشر مؤلفاً ضخما في خمسمائة صفحة أسماه « نفسية الله » . ومع أنه لم يرسل هذا

المؤلف لأكثر من خمسة عشر شخصاً فانه أثار ضجة بلغت حد الفضيحة . وكان لهذا المؤلف ، الذى كتب فى جو هادىء وفكرة بعيدة عن كل تحيز ، ظاهرتان بينتان: احداهما النقد التحليلي اللاذع الى حد القسوة . والأخرى العنت في الأفكار ، والتشبث في النفى ، الى حد التعصب . ولقد كان أدريان فى كتاباته أقل شاعرية من المسيو تين . ولم يكن فى مقدوره كذلك أن يكتب مقدمة جميلة كمقدمة كتاب « الذكاء » ، ولا النبذة التى نشرت عن نظرية الظاهرات العامة – كما أنه كان أقل تعقيداً فى تعابيره من المسيو ريبو الذى بدأ سلسلة دراساته الجميلة بكتاباته عن علماء النفس الانجليز . فكان مؤلفه « نفسية الله » يجمع بين البلاغة التى يمتاز بها الواحد ودقة البحث التى يتحلى بها الآخر . فقد عنى في هذا الكتاب ببحث أهم وأدق المواضيع المرتبطة بعلم ماوراء الطبيعة . فأصدر مطران شهير نشرة ضد هذا الكتاب . وتناوله كردينال فى خطاب له فى مجلس الشيوخ . ونقده أحد زعماء النقد بمقال نارى فى مجلة شهيرة . فكان ذلك كافيا لاثارة فضول الشباب ولفت نظره الى هذا الكتاب . فهبت حوله عاصفة ثورية هى مقدمة

جلية لما سوف يحدث من التطورات فى المستقبل القريب.
وكانت فكرة المؤلف تدور حول الدليل على الانتاج اللازم فى حالة « افتراض وجود الله » بتطبيق بعض قواعد علم النفس المرتبطة بالجهاز الفكرى مع إدخال بعض تعديلات عليه من نوع مادى. وكان قد وضع فكرته وشرحها وعززها بنظريات في الالحاد هى فى حدتها وقسوتها الوحشية أشبه بثورات «لوكريس» على أوضاع عصره. فكان من نتائج ذلك أن العمل الذى فكر فيه واستوعبه ثم ألفه فى عزلة بمدينة نانسى كما لوكان في زنزانة سجن، قد اندمج فجأة فى منازعات الأفكار العصرية والمناقشات الحادة القائمة حولها، إذ لم يصادف، منذ أعوام خلت، مثل هذه القوة فى الأفكار العامة مقرونة بمثل هذا الاطلاع الدقيق الواسع ولا مثل هذه الغزارة فى النظريات مصحوبة بمثل تلك الجرأة فى الالحاد. وبينما كان اسم هذا الكاتب يذيع ويشتهر في باريس كان أهله، وذويه، ومن يعيشون بالقرب منه ولا يعرفونه، ومن كانوا يعنون بشؤون تربيته قد دهشوا لهذا النجاح. فتألمت مدام سيكست إلى حد اليأس من المقالات التى نشرتها الصحف

الكاثوليكية . وقلق الساعاتى الشيخ وخشى أن يفقد
زبائنه من عظماء نانسى . وحلت جميع رزايا القرية بهذا
الفيلسوف وعذبته كالمصلوب فوطد عزمه على مغادرة
أسرته . إلا أن غزوة الألمان للبلاد وما أصابها من
الشقاء والانهيار قد حولت عنه أفكار معاصريه وذويه .
ومات أبواه فى ربيع عام ١٨٧١ . وفي صيف هذا العام
فقد أدريان سيكست عمة له . فصفى مركزه المالى فى
خريف عام ١٨٧٢ وانتقل إلى باريس للاقامة فيها .
وكانت موارده ، بفضل ما ورثه عن أبيه وعمته ، تعود
عليه بايراد يبلغ ثمانية آلاف فرنك . وعقد النية على
عدم الزواج وعدم الاختلاط بالعالم وعدم الطموح إلى
العلياء أو المناصب أو الشهرة . لقد كانت حياته كلها
مرتكزة على هذه الكلمة : التفكير .

ولكى نتمكن من وصف هذا الرجل الفذ بدقة ،
وخشية أن يعتبر القارىء ـ الذى لم يتعود الاطلاع على
تراجم عظماء قادة الفكر ـ تلك النبذة التى قدمناها عن
وصف فيلسوفنا غير طبيعية . فاننا نرى من الضرورة أن
نأتى على نبذة من برنامج عمل هذا المفكر اليومى . كان
المسيو سيكست ، صيفا وشتاء ، يجلس إلى مكتبه فى

الساعة السادسة صباحا . ولا يتناول أكثر من قدح من القهوة . وفي الساعة العاشرة يتناول طعام الأفطار فيتمكن على أثره من اجتياز باب حديقة النباتات للتريض حيث تكون الساعة العاشرة والنصف . فيمكث في نزهته هناك حتى منتصف النهار وأحيانا يتجاوز الحديقة لارتياد الأرصفة وناحية نوتردام . . . كان يجد لذة في الوقوف ساعات طوال أمام اقفاص القردة وحجرة الفيلة . وعندما كان الأطفال والخادمات يشاهدونه وهو يضحك، كما كان يفعل ، طويلا وفي صمت من وحشية النسانيس المختلفة وسفاهتهم ، فانهم كانوا يجهلون تماماً ما كان يدور في خلده من الأفكار المستوحشة السوداء التي يثيرها هذا المنظر في مخيلة هذا العالم الذي كان يقارن في نفسه بين المهزلة البشرية ومهزلة القردة ، كما كان يقارن بين جنوننا الطبيعي وبين حكمة الحيوان النبيل الذي كان في وقت من الأوقات سيد هذه الكرة قبلنا . وعند الظهر يرجع المسيو سيكست إلى داره ويعود من جديد إلى العمل فيشتغل حتى الساعة الرابعة . وبين الساعة الرابعة والسادسة كان يقابل - ثلاث مرات في الأسبوع - بعض الزوار ، وهم في أغلب الأحيان من الطلبة أو

المدرسين الذين يهتمون بمثل دراساته أو غرباء دفعتهم نحوه شهرته التى عمت جميع أنحاء أوروبا . وفى المرات الثلاث الأخر كان يغادر داره للقيام ببعض الزيارات الضرورية . ثم يعود فى الساعة السادسة فيتعشى ثم يغادر منزله من جديد فيسير بمحاذاة سور الحديقة المغلقة حتى يصل الى محطة اورليان . وفى الساعة الثامنة يعود ويتناول بريده اليومى فيجيب عليه أو يتناول كتابا فيقرأ . وفى الساعة العاشرة تطفأ جميع الأنوار . وكان يستريح من عناء هذه المعيشة الشبيهة بمعيشة الأديرة يوماً فى كل أسبوع ، هو يوم الأثنين ، لأن الفيلسوف لاحظ أن يوم الأحد يقذف بأفواج كثيرة من المتنزهين إلى الضواحى ولا تووب الامساء . لم يتحول مرة واحدة خلال الخمسة عشر عاما عن هذا النظام الذى سنه لنفسه وأصبح من مستلزمات حياته . ولم يقبل مرة واحدة دعوة لتناول الطعام خارج داره . ولم تطأ قدماه ملهى . وكان لايقرأ الصحف مطلقاً ويحيل جميع الأعمال الخاصة بمؤلفاته على ناشر كتبه ولا يشكر أحداً على مقال ينشر عنه . وكان لايكترث للسياسة ولا يهتم لشؤونها إلى حد أنه لم يتسلم دعوة الانتخاب مطلقاً .

ويجدر بنا أن نضيف ـ لكى نتبين أهم ملامح هذا الوجه الغريب الفذ ـ أنه قطع كل علاقة بأسرته . وأن هذه القطيعة كانت قائمة ـ كأقل عمل يأتيه ـ على نظرية . فقد كتب فى مقدمة مؤلفه الثانى : « تشريح الارادة » . تلك الجملة المعنوية : « ان الروابط الاجتماعية يجب أن تخفض إلى أدنى حد ممكن لمن كان يريد أن يعرف الحقيقة ويقولها في دائرة العلوم النفسانية » . ولمثل هذا السبب كان هذا الرجل الطيب ، الذى لم يبد ثلاث ملاحظات لخادمته منذ خمسة عشر عاما ، يتجنب عمل الاحسان ويحرم على نفسه فعل الخير . فقد كان . من تلك الناحية ، يفكر بمثل ما كان يفكر فيه سبينوزا فى المجلد الرابع من كتاب « الاخلاق » : « ان الشفقة عند الحكيم الذى يعيش بما يوحى به العقل سيئة وغير مجدية » ان هذا القديس العلمانى ـ كما كان يمكن أن يلقب عن استحقاق بما يلقب به الشيخ « أميل ليتريه » ـ كان يكره ، فى الشريعة المسيحية ، مرض الانسانية . ويبنى نظريته على سببين . الأول: أن فرض وجود أب سماوى وسعادة أبدية قد أوجدا فى النفس الاشمئزاز من الحقيقة الى حد الغلو والافراط . وأضعفا من قوة الاعتقاد والتسليم

بسنن الطبيعة . والثانى : أن هذه الشريعة ، بتركيزها النظام الاجتماعى على الحب - أى على الاحساس والانفعالات - قد فتحت مجالا لأسوأ المذاهب الفردية . على أنه كان يجهل أن خادمه الوفية كانت تخيط فى لحمة صديرتيه إيقونات مقدسة لحمايته . وكان قليل الاكتراث للعالم الخارجي والتفاته الى ما يدور حوله كان معدوما الى حد أنه كان يصوم أيام الجمعة وغيرها من الأيام التى قررتها الكنيسة على غير علم منه ودون أن يلاحظ ما كانت تبذله خادمه خفية لتنقذ سيداً كانت تقول عنه تلك الجملة الشهيرة وهى لا تعرف في الواقع معناها ولا مداها : « الا ان الله الرحيم لن يكون إلهاً طيباً رحيما لو طاوعه قلبه وأهلكه . »

وأثمرت جهوده المتواصلة خلال عدة سنوات فى الصومعة التى خلد اليها فى شارع جى ديه لابروس. فاصدر مؤلفاً جديداً - غير كتابه « تشريح الارادة » - أسماه « نظرية فى الشهوات » فى ثلاثة مجلدات . ولو لم تكن حرية الصحافة قد حطمت قيودها ، ولو لم تبلغ حرية النشر شأواً بعيداً. فمهدت للقراء ، منذ عشر سنوات، سبيل الاطلاع على كتابات - هى في جراة الوصف أفظع

من كتابات عالم مهما كانت تلك الكتابات منفرة ووحشية فى أوضاعها الفنية - لأثار نشر هذا الكتاب فضيحة أعظم من تلك التى أثارها كتابه عن « نفسية الله » ... وكان مذهب سيكست واضحاً فى هذين الكتابين . وإننا لنرى أن الواجب يدعو الى تلخيص هذا المذهب فى بضعة سطور حتى يسهل على القارىء فهم هذه المأساة ، التى تعد ترجمة حياة هذا العالم بمثابة مقدمة لها ... إن مؤلف هذه الكتب الثلاثة كان يسلم ، بمثل ما تسلم به مدرسة النقد المنتسبة الى « كانت » ، بان العقل يعجز دون معرفة الأسباب والجواهر . وأنه لايتعين عليه أكثر من أن ينظم الظاهرات ويرتبها فقط . وكان يسلم كذلك ، مع علماء النفس الانجليز ، بأن جزءاً من تلك الظاهرات المسماة بالروح ، يمكن أن تكون موضع بحث على بشرط أن تدرس طبقا لنظرية علمية ... إلى هنا . يتضح أنه لا يوجد فى هذه النظريات ما يميزها من النظريات التى شرحها المسيو « تين » والمسيو « ريبو » وتلاميذهما في أشهر مؤلفاتهم . إلا أن الميزتين الغريبتين البارزتين فى أبحاث المسيو سيكست كانتا فى غير هذه الناحية . أما الأولى ففى تحليله السلبي لما يسميه « هربرت

سبنسر » : « المجهول » . انا نعلم أن المفكر الانجليزى العظيم يسلم بأن كل حقيقة تستند الى مسببات خفية مجهولة يستحيل فهمها . ومن ثم يتعين علينا ـ لكى نستعمل الصيغة التى استعملها « فبشت » ـ أن نسلم بصحة هذه المسببات مع الاعتراف بأنها غير مفهومة . لأن المجهول فى نظر سبنسر هو « حقيقة » كما يؤيد ذلك بشدة فى فاتحة مؤلفه « المبادىء الأولى » . إنه يحيا ما دمنا نحيا منه . فاذا نحن اتخذنا هذه النقطة للبدء لما تبق أمامنا غير خطوة واحدة لنفهم المسببات لكل حقيقة تشتمل على فكرة ما دامت فكرتنا مشتقة منها . . إن الكثيرين من المفكرين يتوقعون ، منذ الآن ، إمكان التوفيق بين العلم والدين فيما يتعلق بهذه الناحية من المجهول . أما المسيو سيكست فانه يرى فى ذلك وضحاً أخيراً للوهم بما وراء الطبيعة ، وهذا ما جعله يتشبث فى تحطيمه بحجج قوية وأدلة متينة لم يعجب بمثلها منذ عهد « كانت » . أما الأمر الثانى الذى يشرفه كواحد من علماء النفس فقائم على شرح جديد جداً وبارع للغاية لنظرية النشوء الحيوانى في الشعور الانسانى . فقد استطاع ، بفضل اطلاعه الغزير وإلمامه الدقيق بالعلوم الطبيعية ، أن يحاول فى دراسته

عن أصل أوضاع الفكرة ما حاول « داروين » أن يدلل به على أوضاع الحياة . فبعد أن طبق ناموس التطور على مختلف الحوادث التى يتألف منها القلب البشرى ، زعم بأنه دلل على أرق مشاعرنا وأدق احساساتنا الخلقية ، وكذلك انحطاطنا المزرى ليست إلا الغاية الأخيرة والاستحالة الكلية لأبسط الغرائز ، مع أن تلك الغرائز بدورها ليست الا استحالة لخصائص الخلية الأصلية . بحيث أن العالم الأخلاق يمثل العالم الطبيعى بكل دقة . وأن الأول يعد بمثابة الضمير المعذب للثانى . وهذا الاستنتاج المقدم على سبيل الافتراض ، نظراً لصبغته وعلاقته بماوراء الطبيعة ، كان يعد خاتمة لسلسلة تحليلات رائعة يجدر بنا أن نذكر منها مائتى صفحة عن الحب كتبت بجرأة تكاد تكون مضحكة لأنها صادرة عن رجل كان عفيفاً ان لم يكن بكرا . ولكن ، أو لم يكتب لنا سبينوزا نظريته عن الغيرة بما لم يضارعه فى وحشيتها أى قصصى عصرى ؟ ألم يزاحم شوبنهور شامفور فى ميدان فكرته السيئة عن النساء وهجوه لهن ؟ وقد لايكون ثمة ما يدعو لأن نضيف أن مبدأ انكار التأثير الشخصى ونسبته الى قوة الأسباب يطغى على جميع

مؤلفاته . وأننا مدينون للمسيو سيكست بعض الجمل التى تعبر بقوة عن تلك العقيدة التى تسلم بأن كل شيء ضرورى للنفس حتى الوهم بأننا أحرار . فقد كتب : « كل عمل ليس إلا إضافة . فالقول بأن المرء حر إنما هو القول بأنه يوجد فى اجمالى أى مجموع أكثر مما يتضح وجوده فعلا من المواد التى جمعت . وهذا بعيد التصديق فى علم النفس بقدر ماهو بعيد التصديق فى العلوم الرياضية . » ويقول فى مكان آخر : « اذا نحن عرفنا نسبية الأوضاع الحقيقية لجميع الظاهرات التى يتألف منها الكون الحالى . فاننا نستطيع منذ الآن أن نحسب بدقة ، توازى دقة الفلكيين ، اليوم والساعة والدقيقة التى تغادر فيها انجلترا الهند مثلا ـ أو التى تحرق فيها أوربا آخر قطعة من الفحم الموجود فيها . أو التى يقتل فيها مجرم ما ، مع أنه لم يولد بعد ، أباه ، أو التى تنظم فيها قصيدة شعرية لم تقرض بعد ، إن المستقبل بأكمله مرتبط بالحاضر كما ترتبط جميع خصائص المثلث بتحديده ... » إن الاستسلام للقضاء والقدر فى الشريعة الاسلامية لم يشرح بمثل هذه الدقة المتناهية .

إن الدراسات النظرية التى من هذا القبيل قل أن

يحتمل قبولها إلا فى أفظع حالات ركود الذهن . ولذلك ، فان الكلمة التى كان يرددها المسيو سيكست مراراً عن نفسه : « إننى أنظر الى الحياة من ناحيتها الشعرية ... » كانت تبدو لمن يسمعها من الآراء الغريبة المستهجنة . ومع ذلك ، فليس أصح منها نظراً لعقلية الفلاسفة وطبيعتها الخاصة . إن ما يميز الفيلسوف بمولده عن بقية الرجال تميزا بينا ، هو أنه كان يرى الأفكار حية حقيقية كالكائنات بدلا من أن ينظر اليها - بالنسبة لادراكه وفهمه - كقواعد قابلة للشك والتحليل . إن الحاسة عنده تقتفى أثر الفكرة وتر تكز عليها ، على حين أنه يوجد عندنا جميعاً فاصل تام أو غير تام . أو بتعبير آخر تباين بين القلب والدماغ . وقد أبدع أحد الواعظين فى شرح طبيعة هذا الفاصل عند ما ألقى بتلك الجملة العجيبة العميقة : « إننا نعلم جيداً بأننا نموت ولكننا لانعتقد ذلك . » أما من كان فيلسوفاً بطبيعة جبلته وتركيبه فانه لايفهم هذا الازدواج . إنه لايفهم هذه الحياة المبعثرة بين حواس وأفكار متضاربة متناقضة . ولذلك فان الضرورة التى يشعر بها الناس جميعاً نحو الأشياء ، والاستحالة اللانهائية المستمرة بين الظاهرات وبعضها ،

والجهود التى تبذلها الطبيعة لتكوين نفسها وتحديد هذا التكوين بغير ما تحديد لنقطة البدء وبغير ما تحديد لنقطة الوصول بفضل الخلية الأصلية، والتوازن الذى توجده النفس البشرية التى تولد الحركة النفسانية فى شكل أفكار وانفعالات وخواطر، كل هذه العوامل لم تكن فى نظر المسيو سيكست إلا عوامل بسيطة للدراسات النظرية لاغير . ولقد كان يغرق فى تأملات أفكاره فى نوع من الذهول أشبه بالدوار، ويحس بها بجميع كيانه، فيترتب على ذلك أن هذا الرجل البسيط النحيل الوجه، الجالس إلى مكتبه تخدمه خادم عجوز وتعد له الطعام على مقربة منه، هذا الرجل الذى امتلأت جدران مكتبه بالرفوف المكتظة، والذى كان يلبس ساقيه أكياسا ليدفئهما ويستر صدره وظهره بعباءة رثة، كان يشترك بمخيلته في عمل الكون اللانهائى ويحيا حياة جميع المخلوقات ويلبس جميع الأزياء، فيرقد مع الجماد، وينمو مع النبات، ويتحرك مع الحيوانات التى وجدت منذ بدء الخليقة، ويتعقد مع مجموعة الأطراف العليا ثم ينبسط فى النهاية ويعود، إلى ما كان عليه، رجلا. فيخفق مع العقل فى دورات جديرة بأن تعكس العالم

الفسيح . تلك اللذة - وليدة هذه الأفكار العامة الشبيهة بالأفكار التى يولدها الأفيون - هى التى كانت تجعل هؤلاء الحالمين لا يأبهون بأتفه الحوادث التى تقع فى العالم الخارجى . وهى التى كانت تجعلهم - ولماذا لا نعترف بذلك ؟ - بعيدين تمام البعد عما يوجد في الحياة من الميول الطبيعية . إننا لا نتعلق إلا بما نشعر بانه حقيقة فعلية . أما فى نظر هذه الأدمغة العجيبة فان التجريد هو الحقيقة . والحقيقة الراهنة هى ظل واختبار خشن غليظ ، محط للشرائع غير المنظورة . ربما كان المسيو سيكست قد أحب أمه . ويقينا أن حياته الحساسة قد وقفت عند هذا الحد . فاذا كان يبدو طيباً وديعاً نحو جميع الرجال فليس ذلك منه إلا بدافع الغريزة . وهى نفس تلك الغريزة التى كانت تجعله - عند ما كان يريد أن ينقل مقعداً فى مكتبه - أن يتناول تلك القطعة بغير ما عنف ولا شدة . ولكنه لم يشعر مطلقا بالحاجة إلى وجود حنو قوى ملتهب بالقرب منه ، ولا عشيرة ، ولا اخلاص ، ولا حب حتى ولا صداقة . والقليل من العلماء الذين كان متصلا بهم ، قصرت علاقتهم به على المناقشات العلمية الداخلة فى اختصاص كل منهم . فهذا

عن الكيمياء ، وذلك عن الرياضيات العليا ، والثالث عن أمراض الجهاز العصبي . أما أن يكون هؤلاء العلماء متزوجين يعنون بتربية أولادهم أو يسعون وراء المناصب، فانه كان لايعنى بشيء من ذلك كله في علاقاته بهم .ومهما بدت هذه النتيجة مدهشة غريبة ، بعد هذا الوصف ، فذلك لايمنع من أنه كان سعيداً .

والآن . وقد وقف القارىء على وصف موجز لمثل هؤلاء الرجال ، ومثل تلك المعيشة الداخلية وتلك الحياة الخارجية العامة ، فليتصور نوع التأثير الذى أثاره الحادثان اللذان وقعا تباعا فى مكتب شارع جى دى لابروس بعد ظهر أحد الأيام . فمن جهة وردت دعوة الى المسيو أدريان سيكست للتوجه الى مكتب المسيو فاليت قاضى التحقيق لاستجوابه - بحسب نص الدعوة - « عن الوقائع والظروف التى يعطى له بيانها » ومن جهة أخرى وصلت بطاقة تحمل اسم السيدة أرملة جرسلو تلتمس فيها أن يتفضل المسيو سيكست بمقابلتها فى نحو الساعة الرابعة من اليوم التالى « لتتحدث اليه عن الجريمة التى اتهم فيها ابنها التعس كذبا » . لقد قدمت أن الفيلسوف لم يقرأ الصحف مطلقاً . فلو أنه تصفح احداها منذ

خمسة عشر يوماً لو جد فيها اشارة الى قصة الشاب جرسلو
التى نسيها الجمهور لما تلاها من الحوادث الأخرى . ولما
كان غير ملم بمثل هذه المعلومات ، فان الدعوة التى وصلته
ورسالة الأم لم تحدثا في نفسه أى تأثير بين - على أنه
قد استنتج من العلاقة بين الدعوة وكلمة الأم أن الحادثين
قد يكونا مرتبطين ، وفكر فى الحال بان المقصود ربما
كان ذلك الشاب المدعو روبير جرسلو الذى تعرف
اليه فى العام السابق فى ظروف غاية فى البساطة . ولكن
هذه الظروف كانت تتنافي مع كل فكرة خاصة بقضية
جنائية حتى كان يمكن لهذا العالم أن يتلمس منها شيئا
يتمسك به ويبنى عليه افتراضاته بأية وسيلة . وظل طويلا
يقلب نظره فى الدعوة تارة وفى البطاقة تارة أخرى وهو
فريسة لذلك القلق المؤلم الذى يثيره فى نفوس الرجال
المطبوعين بعادات خاصة أقل عارض يفاجأون به فى حياتهم

روبير جرسلو ؟ - وقع نظر المسيو سيكست على
هذا الأسم لأول مرة منذ عامين فى ذيل بطاقة مرفقة
برسالة مخطوطة عنوانها : « التعاون على دراسة نطاق
الفردية » . ونصت البطاقة فى كثير من التواضع على رغبة
كاتبها فى أن يلق الكاتب الشهير نظرة على تلك المحاولة

الأولى التى يقدم عليها شاب حديث السن . وأضاف المؤلف الى توقيعه : « طالب فلسفة عائد بكلية كليرمون فران » . وكان هذا العمل الذى يشتمل على نحو ستين صفحة يدل على ذكاء حاد ناضج قبل أوانه وإلمام تام بأحدث النظريات النفسانية العصرية ، وتحليل دقيق لبق رأى المسيو سيكست بعده أن الواجب يدعوه إلى الرد على تلك الرسالة بخطاب مسهب واف . فجاءته على أثره كلمة شكر واخطار من الشاب بأنه مرغم على السفر إلى باريس لتأدية امتحاناته الشفوية للالتحاق بمدرسة المعلمين وأنه سيحظى بشرف مقابلة « الأستاذ » . وفعلا رأى الأستاذ ، فى ذات يوم شابا يدخل عليه . وكان هذا الشاب فى نحو العشرين من عمره له عينان جميلتان سوداوان حادتان تتحركان في وجه يعلوه كثير من الشحوب فتضيئاه . لم يعلق بذهن الفيلسوف من محيا الشاب غيرهذا التفصيل الوحيد . وكان من هذه الناحية شبيها بجميع عشاق النظريات ودارسيها لا يأخذ من العالم الظاهر إلا تأثيراً عاماً هائماً ، ولا يحتفظ منه بغير فكرة شاردة لهذا التأثير . أما الأفكار فان ذاكرته لها كانت مدهشة عجيبة . فهو يتذكر أقل تفاصيل محادثته

مع روبير جرسلو المشار اليه . وإنه لم يجد بين الشبان الذين دفعتهم شهرته إلى التردد عليـــه من آثار دهشته بسعة معلوماته ونبوغه الناضج العجيب وتدليله القوى أكثر من هذا الشاب . لاشك أنه كان لا يغشى ذهن هذا الفتى اليافع شيء من التردد أو فكرة ثائرة تتناقض مع كثرة المعلومات التى جمعها . ولكن كم أعجب بما كان عليه هذا الشاب من سهولة الاستنتاج وطلاقة اللسان . وكم أحب ما كان يبدو عليه من الاخلاص فى حماسته واندفاعه ، فكان العالم يتخيله جالساً اليه يتحدث معه ويستمع الى ما كان يقوله في قليل من الاشارات :

« كلا . فانت لا تعلم حقيقة مكانتك من نفوسنا ولا ما نشعر به عند مطالعة مؤلفاتك . إنك ذلك الذى يقبل الحقيقة كلها ويسلم بها . أنت الذى تؤمن بتعاليمك به . . . هاك مثلا . إن ما كتبته فى مؤلفك (نظرية فى الشهوات) عن تحليل الحب لايخرج عن كونه فرضنا الدينى جميعاً . . . إنهم يحظرون هذا الكتاب في الكلية ويصادرونه ، ولذلك فانى احتفظت عندى بنسخة منه فاذا كانت أيام العطلة تردد على زميلان لى وأخذا يطالعانه وينقلان فصوله ... ، ولما كان كل كاتب يخفى فى دخيلة نفسه نوعاً

من تلك الأنانية التى يشعر بها كل رجل طبع مؤلفاته مهما كان ذلك الرجل مخلصاً كل الاخلاص كالمسيو ادريان سيكست، فان ما سمعه من أحد الطلبة عما يكنه له فئة من اخوانه وما يحملونه له فى صدورهم من فروض العبادة والتقديس قد أحدث فى نفس الفيلسوف هزة من الخيلاء والزهو. وكان روبير جرسلو قد التمس شرف زيارته ثانية فلما جاء أبلغه نبأ رسوبه في امتحان مدرسة المعلمين وأطلعه على طرف من أفكاره وما يعده لمستقبله. واستسلم المسيو سيكست من جهته، على غير عادته، الى دافع نفسه وأخذ يسأله عن بعض تفاصيل شخصيته، وهكذا علم أن الشاب كان وحيد أب مهندس توفى ولم يترك ثروة، وأن أمه قد عنيت بتربيته مع كثير من التضحيات. ثم أضاف روبير: « ولكننى لن أرضى بذلك بعد الآن. إن فى نيتى أن أنال إجازة الليسانس في هذا العام وأسعى فى الحصول على منصب أستاذ للفلسفة فى إحدى الكليات، ثم أشتغل فى اعداد مؤلف ضخم عن اتجاهات الشخصية. ويمكن اعتبار الرسالة التى عرضتها عليك بمثابة النواة ... » وازدادت عينا الشاب البسيكولوجى بريقا اذ كان يتحدث عن البرنامج الذى

وضعه لحياته ... وقعت هاتان الزيارتان فى شهر أغسطس من عام ١٨٨٥ . والآن نحن فى شهر فبراير سنة ١٨٨٧ . ففى غضون هذه المدة لم يتسلم المسيو سيكست من تلميذه الصغير غير خمس رسائل أو ست ، أخبره فى احداها أنه التحق بوظيفة معلم فى أسرة نبيلة كانت تقضى شهور الصيف فى أحد القصور القائمة على ضفاف أجمل بحيرة فى جبال الأوفرنى هى بحيرة عايدات . ويكفى - للتدليل على الهواجس التى ساورت خاطر المسيو سيكست من وجود صلة بين الدعوة التى وردت اليه من مكتب القاضى والرسالة التى وصلته من مدام جرسلو - أن نذكر هذا البيان البسيط : على الرغم من أنه تسلم أصول مقال طويل كان قد أعده للنشر فى مجلة فلسفية وطلب منه أن يراجعه، فقد ترك تلك الأصول على مكتبه وأخذ يبحث فى ذات المساء عن الرسائل التى كان قد تبادلها مع هذا الشاب . ووجدها فى الحال بداخل ملف كان يضم فيه جميع أوراقه بعناية تامة . وكانت تلك الرسائل محفوظة مع امثالها تحت عنوان : « مذكرات عصرية عن تكوين العقول . » وهى تقع فى نحو ثلاثين صفحة أعاد العالم قراءتها بامعان فلم يجد فيها إلا آراء من نوع

أدبى ، وأسئلة موجهة اليه لأخذ رأيه فيما يجب الاطلاع عليه من الكتب ، وبعض المذكرات . فأية رابطة يمكن أن توجد بين تلك الأعمال العقلية وبين القضية الجنائية التى تشير اليها الأم ؟ كان يجب أن يكون تأثير هذا الفتى على الفيلسوف عظيما - وان كان لم يره إلا دفعتين - لأنه ظل مستيقظا شطراً كبيراً من الليل وهو يفكر فى كيف يكون السر الذى ينطوى عليه إعلان المحكمة هو نفس السر الذى تتذرع به هذه الأم البائسة فى طلب مقابلته . ولأول مرة، منذ أعوام عدة ، انتهر خادمته الآنسة ترابنال لاهمال بسيط . ولأول مرة أيضا لوحظ عليه أنه شارد الفكر الى حد بعيد . وكان الأب كاربونيه قد اطلع على ما كتب فى خطاب الدعوة ووقف على مضمونه لأن مثل تلك الخطابات كانت ترسل مفتوحة تبعاً لعادة وحشية قاسية ، وأطلع زوجته على هذا السر وهكذا لم يلبث النبأ أن انتشر فى جميع أنحاء الحى . فكان يقول :

— ولست فضوليا ولا مغرماً بشؤون الغير ولكننى مع ذلك أهب عشرين عاما من عمر صاحبة هذا المنزل لأقف على ما تريده العدالة من هذا السيد سيكست

المسكين الذى أراه الآن خارجا ، فى مثل هذه الساعة ، كأنما هو معتوه . . . »

وكانت الفتاة العاملة في حانوت الخباز تقول لأمها :

— « كيف ! لقد غير المسيو سيكست ساعة تريضه . يخيل الى أنه ينتظر قضية ميراث »

ويقول أحد الطالبين العاملين فى الصيدلية لرفيقه :

— « انظر الى الأب سيكست كيف يقفز كالحمار البرى يظهر أن العدالة تضايقه . إن أمثال هؤلاء الشيوخ لا تدل مظاهرهم على شيء ، ثم تكتشف ، في إحدى زوايا حياتهم قصص شتى قذرة . . . إنهم جميعاً سفلة فى الواقع . . . »

وتقول زوجة المدرس بكلية فرنسا التى تسكن فى نفس البيت الذى يقيم فيه الفيلسوف الشهير وتلتقى به مراراً فى غدواتها وروحاتها :

— « ألا إنه الآن أكثر توحشاً من ذى قبل فلم يعد يرفع يده بالتحية وهذا افضل . على أنه يشاع أنهم سوف يحاكمونه على مؤلفاته وليس في ذلك ما يؤسف عليه . . . »

وهكذا كان أكثر الرجال وداعة ـ ممن يتوهمون أنهم

يقضون حياتهم فى عزلة عن الناس - لا يستطيع أن ينتقل أو يأتى بحركة بدون أن يكون مضغة فى الأفواه وعرضة للانتقادات ، ولا ذنب له إلا انه يقطن - فيما يسمونه فى باريس - حياً هادئاً . ويجدربنا أن نضيف الى ما تقدم أن المسيو سيكست لم يكن يهتم بهذا الفضول - لوأنه علم به - أكثرمن اهتمامه بمجلد فلسفى يدرس فى إحدى الكليات - لأنه كان ينظر الى مثل هذه الصغائر نظرة ملؤها الازدراء والاحتقار .

وكان الفيلسوف الشهير جد دقيق فى جميع تصرفاته . فمن الحكم التى اختطها لنفسه منذ فجر حياته - تشبها بديكارت - الحكمة الآتيـة : «النظام يحرر الفكر» . ولذلك فقد وصل الى دار المحكمة قبل الميعاد المحدد في الدعوة بخمس دقائق ، واضطر إلى أن ينتظر نصف ساعة فى الردهة قبل أن يستدعيه القاضى . وكانت تلك الردهة مستطيلة وجدرانها البيضاء مرتفعة خالية من كل زخرف، ولا يوجد فيها من الأثاث إلا بضعة مقاعد ومكاتب لصغار

الكتبة . وكانت الأصوات خافتة لاترتفع كما هي العادة في جميع حجر الانتظار الرسمية . ولم يكن في الردهة غير ستة أشخاص أو سبعة . وجلس الى جانب العالم أحد تجار الحى ترافقه زوجه مدعوين في قضيية أخرى ، فكان الاضطراب باديا عليهما من جراء احتكاكهما بالعدالة ! وازداد قلقهما عند رؤية هذا الشخص الحليق الذي يخفي عينيه وراء زجاج عويناته السميك المستدير ، ويرتدى الردنجوت فتزداد سحنته غموضا وتجهما . فارتأيا أن يهجرا مكانهما وينتحيا مكانا آخر وهما يتهامسان . فقال الزوج لزوجته :

— « إنه من رجال الشرطة »

فأجابته المرأة وهي تحدق في هذا الوجه الغامض بذعر:

— « يالله ! ما أعظم رياءه ! ... »

وفي نفس الوقت الذي كان يمثل فيه هذا المنظر المضحك ، على غير علم من هذا الباحث المنقب والخبير بدخائل القلب البشرى ، وبدون أن يشعر لحظة بما كان يحدثه من التأثير ولا بوجود احد على مقربة منه ، كان قاضي التحقيق يتحدث إلى صديق له في حجرة صغيرة ملاصقة لمكتبه . وكانت تلك الحجرة مزدانة

برسوم وتوقيعات بعض مشاهير المجرمين . وكان المسيو فاليت يلجأ اليها فى طلب الراحة أو التدخين أو اذا ما رغب فى التحدث الى أى زائر بعيداً عن رقابة كاتبه الذى هو له كالظل . وكان هذا القاضى لم يبلغ الحلقة الرابعة ، على وجهه مسحة من جمال ذاو . وهو حسن الهندام وأصابعه محلاة بالخواتم ، وبعبارة أوضح ، كان أحد قضاة المدرسة الحديثة ، وكان اذا سار فى الطريق وفى عروة سترته شارة لقب فارس الذى يحمله وعلى رأسه قبعته اللامعة خلته أحد رجال الأعمال الذين أنعم عليهم بوسام للخدمات التى أداها عند تقديم القروض . وكان يحمل بيده الورقة التى دون عليها العالم اسمه بخط واضح جلى وحروف متناسقة مرتبطة . وأطلع صديقه على التوقيع . وكان هذا الصديق رجلا عادياً من عشاق اللهو ، له وجه كالح عصبى كآلاف الوجوه التى تصادف فى باريس بحيث يتعذر الوقوف منها على ما انطوت عليه نفوس أصحابها من ذوق أو عادات أو أخلاق لكثرة ما مرت به تلك الوجوه من الانفعالات النفسانية المتعددة المتناقضة . فهو أحد أفراد تلك الفئة من الرجال الذين لايعنون بغير الانهماك فى الملذات ومشاهدة اولى حفلات التمثيل وزيارة معارض

الرسامين، وحضور جلسات القضايا الهامة. وبالاجمال هوأحد أولئك المولعين بالوقوف على مجرى الحوادث والأخبار . فما إن وقع نظره على اسم «ادريان سيكست» حتى صاح :

— « مرحى ! انى أهنئك يا صديقى فاليت . إنها لفرصة سعيدة تلك التى تسنح لك للتحدث الى هذا الرجل ! هلا قرأت الفصل الذى اختص به الحب فى مؤلف له لايحضرنى اسمه ؟ . . . يقينا إنه عليم بشؤون المرأة ، خبير بأحوالها ودقائقها . . . ولكن فيم عساك أن تستجوبه ؟ »

فقال القاضى :

— « فى موضوع جرسلو . لقد قابل هذا الشاب مراراً والدفاع يستشهد به ويقدمه شاهد نفى . وقد قدم التماس خاص بشأن استجوابه . »

فاجاب الآخر :

— انى آسف على أننى لاأستطيع أن أراه ! »

— وهل يسرك ذلك ؟ ليس أسهل منه . سأستدعيه ، فتخرج أنت عند دخوله . . . وعلى كل حال فقد اتفقنا فيما بيننا على هذا المساء . فى الساعة الثامنة عند فيجون .

وستكون جلاديس موجودة بالطبع ؟ »

ــ « اتفقنا ... أنت تعرف ما قالته جلاديس ، اذ كنا نلوم أمامها «برسى» على خيانتها لجوستاف : « ولكن من الواجب أن يكون لها عاشقان مادامت تصرف فى العام ضعف ما تأخذه من كل منهما ! ... »

فقال فاليت :

ــ « لعمرى . إنى ليخيل الى أن هذه المرأة تفوق ، فى فلسفتها عن الحب ، جميع من فى الوجود من سيكست وأمثاله . »

وضحك الصديقان فى جذل وغبطة . وأصدر القاضى أمره باستدعاء الفيلسوف . وصافح الفضولى صديقه المسيو فاليت مودعاً إياه من جديد ومكرراً قوله : « الى هذا المساء في تمام الساعة الثامنة » ، ثم غمز بعينه خلف زجاج منظاره كيما يتسنى له أن يتصفح وجه الكاتب الشهير الذى كان يعرفه مما قرأه له من نبذ نشرتها الصحف نقلا عن مؤلفه « نظرية فى الشهوات » . وما كاد أن يظهر هذا الرجل الطيب ، الذى كان يجمع بين غرابة الأطوار وشدة الحياء ، ويخطو فى حجرة المحقق والقلق باد عليه مما يتنافى مع الصورة التى طبعت عنه في ذهنهما ،

وتمثله لهما عدواً للمجتمع غليظ الطباع متيقظاً مهملا ، حتى تبادل رجل الملذات ورجل القانون نظرة أودعاها كل ما عراهما من الدهشة . ولاحت على شفتيهما ابتسامة مكرهة ولكنها لم تطل أكثر من لحظة . وانصرف الصديق ، ودعا القاضى الشاهد الى الجلوس على مقعد كبير مبطن بالدمقس الأخضر ، كأثاث هذه الحجرة الفاخر . وكانت الأرض مغطاة بطنافس متناسقة مع لون الأثاث ، وفي صدر الحجرة مكتب من خشب الكابلى ، واسترد وجه قاضى التحقيق جموده العادى بسهولة ، فمثل هذا التحول عند رجال القضاء أمر عادى طبيعى أكثر مما يتوهمه بعض من يلاحظون مثل هذه المتناقضات فى رجل يجمع بين شخصيتين متباينتين ، هما شخصية الرجل العادى وشخصية الموظف . إن تمثل المجتمع الذى ينظر الى مهنته بمجون واحتقار واستخفاف ليس إلا وحشاً مخيفاً . ووجود مثل هذا الرجل نادر لحسن الحظ . فليس لدينا من قوة التشكك ما يكفى لخدمة رياثنا وميولنا الكاذبة . وكان المسيو فاليت يتمتع بشهرة واسعة فى الأوساط الراقية ، فهو صديق لرواد المنتديات العامة والرياضية ، وند للصحافيين فى هزلهم . ومع ذلك فان

هذا الرجل الذى كان منذ لحظة يعلق، فى كثير من المجون ،
على كلمة امرأة لعوب دعى ليتناول وإياها طعام العشاء
فى نفس هذا المساء ، هذا الرجل لم يجد صعوبة فى التحول
عما كان ظاهراً عليه من المجون وهو يتحدث مع صديقه
الى الرجل المنقب الشديد النابه الذى أسند اليه البحث
عن الحقيقة واكتشافها باسم القانون . وحاول القاضى
بنظرة عميقة حادة أن يخترق صدر القادم الجديد وينفذ
الى أعماق نفسه ويقف على ما يخالج ضميره . فان للقضاة
القابضين على زمام مهنتهم بيد قوية ، كما للمحققين الذين
عركتهم الظروف وصهرتهم الوقائع، نزعة قضائية خاصة
تستيقظ فيهم كلما رأوا أنفسهم لأول مرة أمام شخص
طلب منهم استجوابه سواء أكان هذا الشخص لين العريكة
رقيق الحاشية سهل الاجابة على مايسأل عنه ، أم كان كتوماً
منكمشاً على نفسه يأبى الاجابة والكلام . فكان القاضى
فى هذا الموقف أشبه بلاعب السيف الذى يحاول أن
يختبر مهارة خصمه ليسدد له ضرباته . أما الفيلسوف
فقد لاحظ ، من ناحيته ، أن شعوره لم يخدعه إذ وقع
نظره على ماهو مكتوب بحروف كبيرة على ملف تناوله
المسيو فاليت : «قضية جرسلو» . وارتعش على الرغم منه

وساد الصمت رهيباً فى تلك الحجرة لايتخلله الا حفيف الورق وجرة قلم الكاتب وهو يكتب. وكان الكاتب قد تأهب لتدوين الاستجواب بذلك الهدوء وعدم الاكتراث الذى طبع عليه الرجال الذين اعتادوا أن يقوموا بما يشبه عمل الآلات فى مآسى محاكم الجنايات. فلا فرق لديهم بين قضية وأخرى أكثر مما يشعر به ناقل الموتى من الفرق بين ميت وميت، أو مايشعر به خادم المستشفى بين عليل وعليل.

وأخيراً تكلم القاضى:

— لسوف أكفيك، يا سيدى، عناء الأسئلة العادية الدارجة، فمن الأسماء والرجال ما لايصح جهلهم...

فلم ينحن الفيلسوف شاكراً تحت تأثير هذا المديح وفكر القاضى فى نفسه: «انه لايعرف شيئاً من أصول اللياقة، فقد يكون أحد أولئك الكتاب الذين يعتقدون أن واجبهم يحملهم على احتقارنا». ثم أضاف بصوت مرتفع:

— هأنذا أتكلم فى الموضوع الذى أثار الدعوة التى أرسلتها لك... أنت تعرف الجريمة التى اتهم فيها الفتى روبير جرسلو.

وكان الفيلسوف قد جلس عقب دخوله وأسند كوعه إلى ذراع المقعد وأخذ ذقنه بكفه ووضع سبابته على خده كما كان يفعل فى حالات التفكير والتأمل عند ما يختلى بنفسه. فما ان وجه له القاضى الحديث حتى اعتدل فى جلسته بدافع الغريزة ليصغى بانتباه إلى ما يقوله له واجابه:

— عفوا يا سيدى، ليست لدى أية فكرة عنها.

فأجابه القاضى، وقد ظن أنه بمثل هذا القول سيجيب على احتقار رجال الأدب لرداء القضاء الأحمر فى شخص هذا الشاهد، بنغمة أودعها قليلا من السخرية:

— ان جميع الصحف تناولت هذا الحادث فى كثير من العناية والدقة التى لم تتعود مثلها من الصحفيين:

وفكر فى نفسه: «انه يتكتم ... لماذا؟... أو يريد أن يخدعنى؟ يا له من أبله!»

فأجابه الفيلسوف:

— معذرة يا سيدى. اننى لا اقرأ الصحف مطلقا.

فنظر القاضى إلى محدثه ولم يتمالك نفسه عن صيحة «آه!» عبرت عما فى نفسه من السخرية أكثر مما فيها من الدهشة. وفكر صامتا:

«حسنا . أنت تريد أن تسخرمنى . فتمهل قليلا . . . »

ثم خاطبه فى شىء من الحدة والانفعال :

ـ « اذن سألخص لك التهمة ببضع كلمات . وانى لا أخفيك ما يخامرنى من الأسف على عدم المامك بحادث ، ان لم تكن مسئولا عنه جنائيا فان مسئوليتك الأدبية لا تخلو من اللوم . . . »

فبدا القلق على الفيلسوف ورفع رأسه . وسر القاضى وقال فى نفسه « تنبه أيها الرجل »

واستطرد بصوت مرتفع :

ـ على كل حال يا سيدى . فأنت تعرف من هو روبير جرسلو وما هى مكانته عند الماركيز دى جوسا راندون . . . توجد لدى ، ضمن أوراق هذا الملف ، صور مكاتبات عدة أرسلتها اليه ، وهو فى قصر دى جوسا ، وهى تشهد بأنك كنت ـ كيف أعبر عن ذلك ؟ ـ كنت الرائد النفسى لهذا المتهم . »

فأومأ الفيلسوف برأسه وتابع القاضى :

ـ « وانى أسألك الآن أن تقرر لى اذا كان هذا الشاب قد تحدث اليك عن داخلية هذه الأسرة وبأى ألفاظ . . . ولا شك فى أننى لا أطلعك على سر اذا

قلت لك إن تلك الأسرة مؤلفة من الوالد والوالدة وابن ضابط بفرقة الدراغون المعسكرة حالياً فى لونيفيل وابن آخر كان تلميذ جرسلو وفتاة فى التاسعة عشرة من عمرها هى الآنسة شارلوت . وكانت هذه الأخيرة مخطوبة إلى البارون دى بلان الضابط بفرقة أخيها . وقد أرجىء زواجهما بضعة أشهر لأسباب عائلية لا شأن لها بالقضية ، ثم تقرر أن يكون فى الخامس من شهر ديسمبر الماضى . ولكن، فى صبيحة يوم من الأسبوع السالف لحضور الخطيب والكونت اندريه شقيق الآنسة دى جوسا ، دخلت الوصيفة الى حجرة سيدتها فألفتها ميتة فى سريرها . . . »

وتوقف القاضى عن متابعة حديثه وأخذ يتصفح أوراق الملف وهو ينظر خلسة إلى الشاهد . فكانت الدهشة المنطبعة على وجه الفيلسوف تدل على الاخلاص وحسن النية إلى حد أن القاضى دهش من جانبه وتمتم في نفسه ، إنه لا يعرف شيئاً وهذا ماهو عجيب للغاية .» وعاد إلى دراسة وجه هذا الرجل الشهير مع استمراره فى مراجعة الأوراق وتظاهره بقلة الاكتراث . وادرك المحقق أن هناك بينات وشواهد لا يستطيع بدونها أن

يدرك حقيقة تلك الشخصية الغامضة المفكرة المتجردة التى تجمع بين رأس قوى فذ في عالم التفكير وطبيعة ساذجة حية إلى حد أنها تكاد تكون مضحكة فى عالم الوقائع والحوادث . فظل مشدوها وعاد إلى سرد الوقائع :

« وبالرغم من أن الطبيب الذى دعى على عجل لم يكن إلا طبيباً ريفياً وديعاً إلا أنه لم يتردد لحظة فى التقرير بأن منظر الجثة يكذب فكرة الموت الطبيعى ، لأن الوجه كان شاحبا والاسنان مصطكة وحدقتى العينين متمددتان بشكل غريب والجسم مقوس كالدائرة ومرتكز على العنق ومؤخر القدم . وبمجمل القول كانت تلك القرائن تدل دلالة قاطعة على حالة التسمم بالزرنيخ وتلك الحالة مسلم بها شرعا . ووجد على الطاولة الصغيرة بجانب السرير قدح به بضع قطرات من جرعة كانت الآنسة جوسا راندون قد تناولتها فى غضون الليلة السابقة جرياً على عادتها لمقاومة الأرق . لأنها كانت تشكو ، منذ عام تقريباً مرضا عصبيا . وحلل الطبيب تلك القطرات فوجد فيها آثاراً من جوز القىء وهو ، كما تعلم ، أحد أوضاع هذا السم المخيف في عالم الطب الحديث . وعثر البستانى على قارورة صغيرة ملقاة تحت نوافذ الحجز وجد بها بضع

قطرات من سائل قاتم اللون . وكانت تلك القارورة قد ألقيت بغرض كسرها ، ولكنها سقطت على أرض لينة رطبة فلم تنكسر . أما القطرات القاتمة فاتضح انها قطرات جوز القيء.. فلم يعد ثمة مجال للشك : فالآنسة دى جوسا قد ماتت مسمومة . وأيد تشريح الجثة هذا الزعم . فهل كان الحادث انتحاراً أم جريمة ؟... انتحار؟ ولكن أى سبب يحمل هذه الفتاة ، وهى على وشك الزواج من رجل لطيف رضيت به ، على التفكير فى الانتحار؟ وبأية وسيلة وبدون أن تترك كلمة أو رسالة تودع بها أسرتها ! ... ومن جهة أخرى كيف تسنى لها أن تحصل على السم؟ الواقع أن البحث من تلك الناحية قد هدى العدالة الى آثار التهمة التى تشغلنا اليوم . فقد قرر صيدلى القرية عند استجوابه أن معلم القصر حضر اليه لستة أسابيع خلت وطلب منه جوز القيء بحجة أنه يريد أن يعالج به مرضاً فى المعدة . وقد ترك هذا المعلم مدينة كليرمون في صبيحة اليوم الذى اكتشفت فيه الجثة بحجة أنه تسلم برقية تدعوه الى عيادة أمه . وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن تلك البرقية لم ترد له وأن أحد الخدم رأى ، فى ليلة الجريمة ، روبير برسلو خارجاً من حجرة

الآنسة شارلوت ، وأن قارورة السم ، التى اشتريت من الصيدلى وجدت عند الشاب ، قد أفرغ نصفها ثم ملئت بالماء القراح لتلافى الشكوك . ثم جاءت شهادات تعزز أن روبير جرسلو كان كثير التردد على الفتاة بغير علم من ذويها . وقد وجدت كذلك رسالة بعث بها الشاب الى الفتاة وهى وان كانت منذ أحد عشر شهراً إلا أنها تدل دلالة بينة على ما كان يبذله هذا الفتى من جهود خفية ومهارة مستترة لمغازلة الفتاة . وشهد الخدم ، كما شهد تلميذ هذا المعلم ، أن العلاقات بين الآنسة دى جوسا والشاب قد توترت كثيراً منذ ثمانية أيام بعد أن كانت على جانب عظيم من المودة . وأن الفتاة كانت لا تجيب على تحيته . واستنتجوا من جميع هذه القرائن أن روبير جرسلو علق بحب الفتاة فغازلها بلا أمل ثم دس لها السم ليحول دون زواجها من آخر . وتعزز هذا الاحتمال بما قدمه الشاب من الأكاذيب عند استجوابه . فقد أنكر بتاتاً أنه كتب الى الآنسة دى جوسا ، فووجه بخطابه . وقد عثروا كذلك بداخل المدفأة الموجودة فى حجرة القتيلة على آثار أوراق حرقت في ليلة الجناية ومن ضمنها نصف مظروف عليه خط المتهم . وأنكر أيضاً أنه ذهب ، في

تلك الليلة الى حجرة الآنسة شارلوت فووجه بالخادم
الذى شاهده خارجاً منها. وكان هذا الخادم قد اعترف،
لتعزيز أقواله، أنه كان داخلا في هذه الأثناء الى حجرة
احدى الوصيفات لأنه عشيقها. ثم ان جرسلو لم يعرف
كيف يعلل السبب الذى حمله على شراء جوز القيء بعد
أن خدع الصيدلى واستغل حسن نيته. وثبت أيضاً أن
جرسلو لم يشك مطلقاً من مرض في المعدة. وكذلك
لم يفسر لماذا اخترع مسألة البرقية ورحيله العاجل ولا
الاضطراب الشديد الذى تملكه عند ما علم بنبأ التسمم.
والواقع أنه لايمكن تعليل السبب الذى دعا الى ارتكاب
هذه الجريمة إلا أن يكون انتقام عاشق مفتون، والدليل
على صحة ذلك أن الضحية كانت تحمل جميع حليها ولم
يوجد فى جثتها أى أثر لمقاومة أو اكراه. وقد أمكن
تصوير وقوع الحادث كالآتى: دخل روبير جرسلو
الى حجرة الآنسة دى جوسا راندون، وهو عالم بأنها
تعودت أن تنام حتى الساعة الثانية وأنها تستيقظ فى
تلك اللحظة لتتناول جرعتها، ومزج تلك الجرعة بكمية
من جوز القيء كافية لتصعق الفتاة لأنها لم تتمكن من
الاستغاثة بعد أن وضعت الكأس من يدها. ثم خشى

أن يخونه انفعاله قبل اكتشاف الجثة فأمعن فى الهرب بعد أن ألقى القارورة الفارغة، التى وجدت فى الحديقة، من نافذة المكتب وهى قائمة فوق حجرة الآنسة شارلوت - أما القارورة الثانية فانه ملأها بطريقة تدل على الجهل كما يفعل المجرمون المبتدئون. ومجمل القول أنه قد ألقى القبض على جرسلو وأودع سجن ريوم وسيقدم الى محكمة الجنايات هناك فى دور فبراير أو فى أوائل مارس بتهمة تسميم الآنسة دى جوسا راندون.

وقد ازدادت القرائن التى جمعت ضده قوة وإرهاقا بتصرفاته مذ ألقى القبض عليه. فقد انكمش خلف حجاب كثيف من الصمت بعد أن ثبت كذبه فى جميع ماقدمه، وهو يرفض الاجابة على جميع ما يلقى عليه من الأسئلة مكتفياً بقوله انه برىء ولا حاجة به الى الدفاع عن نفسه. وقد رفض أن يقيم محامياً ليدافع عنه. ويقضى أوقاته فى حال من الكآبة تحمل على الظن بأنه يعانى آلام وخز الضمير وشدة تبكيته. وهو يقرأ ويكتب كثيراً أشياء فلسفية كأنما هو يريد أن يدلل، بتلك الوسيلة، على صفاء ذهنه ليحارب التأثير السىء الذى أحدثته كآبته. وهذا برهان على قوة الازدراء والسخرية التى يتمتع بها هذا الشاب

وهو في الحادية والعشرين من عمره . إن طبيعة العمل الذى يشغل به المتهم نفسه تبين لك ، ياسيدى ، بعد هذه القصة الطويلة، السبب الذى طلبت والدة الشاب شهادتك لأنها تثور ضد الحقيقة الراهنة ، وهذا طبيعي ، وتموت كمداً وغماً ولكن بدون أن تستطيع اقناع ابنها بالعدول عن صمته . ثم ان المتهم لم يطلب غير مؤلفاتك مع مؤلفات بعض علماء النفس الانجليز . وأضيف الى ماتقدم أنه وجد ضمن الكتب التى يقتنيها جميع مؤلفاتك وهى فى حالة تحمل على التسليم بأنها كانت تقرأ بامعان ومواظبة ، فقد خط على هامشها تعليقات أكثر إيضاحاً وأوفى شرحاً من النصوص الأصلية . . . وستحكم على ذلك بنفسك . . . »

وقدم المسيو فاليت إلى الفيلسوف نسخة من كتاب « نفسية الله » فتناولها الأخير وفتحها عفوا فرأى أنه قد أضيف إلى جانب كل صفحة مطبوعة صفحة من الورق كتبت بخط يكاد يشابه خطه ولكنه كان غاضباً محموماً بحيث كان من السهل على خبير في الخطوط أن يجزم ، من مجرد الاطلاع على تلك السطور ، بان كاتبها كان سريع القنوط واليأس . ودهش العالم لأول مرة

من تشابه الخطوط وشعر بتأثير مؤلم . فطوى الكتاب وأعاده إلى القاضى وهو يقول :

ـ « لشد ما أنا مشدوه يا سيدى من البيانات التى أطلعتنى عليها عن هذا الشاب التعس . ولكننى اعترف بأنى لا أفهم أية علاقة توجد بين تلك الجريمة وبين مؤلفاتى أو شخصى كما لا أفهم طبيعة الشهادة التى يمكننى أن أقوم بتأديتها .

فاستطرد القاضى :

ـ ان الأمر مع ذلك ميسور . فمهما كانت البينات الموجهة الى روبير جرسلو فانها قائمة على افتراضات . توجد ضده قرائن قوية ولكن لا يوجد اثبات قاطع . فانت ترى يا سيدى ـ على حد تعبير لغة العلم التى برعت فيها ـ أن المناقشة والمرافعة ستدور حول نقطة في علم النفس وهى : « كيف كانت أفكار هذا الشاب واتجاهاتها ، وكيف كانت أخلاقه ؟ » . من المؤكد أنه كان كثير الاهتمام بدراسة الأمور المجردة بكل ماله علاقة بما وراء الطبيعة . فلئن صح هذا الظن لضعفت التهمة وأصبح حظ الاتهام ضعيفاً .

وكانت هيئة المسيو فاليت وهو يتكلم تدل على

قلة الاكتراث ، فلم يشك العالم فى الشرك الذى كان ينصبه له وراء هذه الكلمات ، لا سيما وأنه لم يخبره بأن الماركيز دى جوسا الشيخ كان يحمل على روبير جرسلو وينعى عليه فساد الأخلاق تحت تأثير الكتب التى كان يقرأها . وكانت غاية القاضى من ذلك أن يحمل المسيو سيكست على تحديد نوع المبادىء التى تشرب بها الشاب ويدين بها .

وأجاب العالم :

ــ سلنى يا سيدى

فقال القاضى :

ــ أو تريد أن نبدأ من البداية ؟ فى أية ظروف وفى أى تاريخ عرفت روبير جرسلو ؟

فقال الفيلسوف :

ــ منذ عامين وبمناسبة عمل دراسى أعده عن « الشخصية البشرية » وحمله إلى نفسه .

ــ وهل رأيته مراراً ؟

ــ مرتين فقط .

ــ وما هو التأثير الذى أحدثه عندك ؟

فأجاب الفيلسوف وهو يزن كلماته :

ـ التأثير الذى يحدثه الشاب المتمتع بمواهب عظيمة في علم النفس ، حتى لقد كدت اذعر من هذا النضوج الغريب .

فشعر القاضى من تلك اللهجة أنه يسمع صوت رجل يأبى عليه ضميره الا أن يقول الحقيقة واستطرد :

ـ أو لم يحدثك عن حياته الخاصة ؟

فأجاب الفيلسوف :

ـ قليلا جداً . فقد أخبرنى بأنه يعيش مع أمه وأنه يفكر فى الاشتغال بمهنة التدريس على أن يعمل ، في نفس الوقت على اعداد بعض المؤلفات

فاستطرد القاضى :

ـ ‹ هذا صحيح . فقد وجدت تلك الفكرة مدونة ضمن البرنامج الذى أعده المتهم لنفسه ووجد ضمن أوراقه . لأنه ، وتلك أيضا احدى التهم الموجهة اليه ، قد أتلف معظم هذه الأوراق خلال المدة التى انقضت بين استجوابه لأول مرة وبين اليوم الذى ألقى فيه القبض عليه . فهل تستطيع أن تقدم لنا بعض الايضاح أو تفسر لنا إحدى الجمل الواردة فى هذا البرنامج لأنها غامضة على غير المشتغلين بالفلسفة الحديثة ؟ وهاك هى الجملة . ›

وتناول القاضى ورقة من بين الأوراق :

ـ « ضاعف التجارب البسيكولوجية وكررها أكثر ما يمكن ... »

فاجاب المسيو سيكست بعد صمت قليل :

ـ « اننى جد مرتبك ياسيدى ، ولا أدرى بماذا أجيبك » .

ورأى القاضى أنه لافائدة من التحايل على رجل فى هذه الدرجة من السذاجة وأدرك أن سكوته يدل فقط على أنه كان يبحث عن لفظة دقيقة للتعبير عن فكرته . واستطرد العالم :

ـ « أما أنا فاننى أعرف المعنى الذى أعلقه على تلك الجملة ، واننى أعتقد أن هذا الشاب متعمق جداً فى المواضيع البسيكولوجية وأنه يقصد بقوله هذا ما اعتقده أنا ... فن المسلم به فى العلوم التطبيقية الاخرى كالكيمياء أو الطبيعة أنه اذا أريد اختبار احدى المواد اختباراً سلبياً وجب تطبيق تلك المادة تطبيقا ايجابيا وصفيا . فعند ما أحلل الماء مثلا الى عناصره ، يجب أن أتمكن ، مع مراعاة جميع الاعتبارات . من إعادة تركيب الماء من تلك العناصر بالذات . هذا اختبار هين جداً وكثير الانتشار ولكنه كاف لتلخيص أسلوب العلوم الحديثة .

فالوصول الى معرفة مسببات الأشياء عن طريق الاختبار هو إمكان تكوين الظاهرة بايجاد العناصر التى تتكون منها ... فهل يمكن التسليم بمثل هذه الطريقة فى الظواهر الخلقية ؟ انني أعتقد، فيما يتعلق بى ، أن ذلك ممكن . وفى النهاية إن مايسمونه تربية ليس إلا اختباراً بسيكولوجيا لم يحسن تأسيسه لأنه يلخص هكذا : لو فرضنا وجود ظاهرة ما ـ وقد تسمى أحيانا فضيلة كالصبر والحرص والاخلاص ، وأحياناً تسمى استعدادا عقليا أو لغة حية أو غير مستعملة كالاملاء والحساب ـ فلابد من ايجاد الظروف التى يسهل حدوث تلك الظاهرة فيها ... غير أن هذا المجال محدود لأننى اذا أردت فرضاً أن أوجد ، متى شئت ، نوعا من الشهوة فى وسط ما ، مع علمى بالظروف الحقيقية التى ولدت تلك الشهوة ، فانى اصطدم بصعوبات جمة فى القانون والأخلاق لا يمكن تحليلها . ربما جاء وقت تسهل فيه مثل هذه الاختبارات . أما رأيي أنا فانه لايوجد أمامنا ، نحن المشتغلين بعلم النفس ، إلا أن نتمسك بالاختبارات التى أوجدتها الطبيعة والمصادفة . فبفضل المذكرات والمؤلفات الأدبية والعلمية والاحصائيات وملفات القضايا ومذكرات الطب الشرعى ،

تملك عالما من الحوادث والوقائع فى خدمتنا . لقد ناقشنى فعلا روبير جرسلو فيما ينقص علمنا من هذه الناحية . وانى أذكر أنه أبدى أسفه على أن المحكوم عليهم بالموت لايمكن وضعهم فى ظروف خاصة بحيث يمكن اجراء بعض الاختبارات الخلقية عليهم . تلك فكرة فرضية ناشئة عن عقل لايظل يافعا لم يفقه بعد أن الوصول إلى نتيجة مرضية قائمة على مثل تلك الأفكار يستدعى دراسة حالة مدة طويلة من الزمن ... »

وأضاف العالم معبرا عن أفكاره الخاصة : « ليس أفضل من الأطفال لاجراء مثل تلك الاختبارات ولكن كيف يتسنى اقناع أولى الشأن بأنه قد يكون من مصلحة العلم أن تولد فيهم بانتظام بعض النقائص أو بعض الرذائل ؟ »

فقال القاضى مشدوها من ذلك الهدوء الذى نطق به الفيلسوف بتلك الجملة الهائلة :

— رذائل ؟

فاجابه العالم مبتسما بدوره من دهشة القاضى :

— لقد كنت أتكلم كمشتغل بعلم النفس . وهذا هو السبب ياسيدى الذى لايحتمل معه بعض التقدم لعلمنا .

وانني لأجد في صيحة الدهشة التي بدرت منك دليلا على ذلك اذا دعت الحال . لا يمكن للمجتمع أن يمتنع عن نظرية الخير والشر، على حين أن تلك النظرية لامعنى لها فى نظرنا غير التعبير عن مجموعة من الاصطلاحات قد تكون أحياناً صالحة وأحياناً تافهة »

فقال القاضى :

— أنت تسلم مع ذلك بوجود أعمال طيبة وأعمال باطلة .

وهنا كشف القاضى عن خبيئة نفسه واستغل تلك المناقشة فى صالح التحقيق الذى يقوم به وسأل ملمحاً :

— « أنت تسلم بأن مسألة تسميم الآنسة دى جوسا مثلا تعد جريمة ... »

فأجاب المسيو سيكست :

— « من الوجهة الاجتماعية بدون أدنى ريب . أما فى نظر الفيلسوف فلاتوجد جريمة ولا فضيلة. فرغباتنا ليست إلا بعض وقائع من النوع الذى تسوسه بعض القوانين والشرائع .

وهنا بدا زهو الكاتب إذ أضاف :

« ولكنك تجدياسيدىشرحاً ضافياً وافياً ، وأعتقد

أنه نهائی ، لهذه النظريات فى كتابى عن « تشريح الارادة»
فسأل القاضى :

— هل تناقشت أحياناً فى هذه المواضيع مع روبير جرسلو ؟ وهل تعتقد أنه يشاطرك أفكارك ؟

فأجابه الفيلسوف :

— غالباً .

فظهر القاضى بمظهره الحقيقى واستطرد :

— « أو لا تعلم يا سيدى أنك تكاد تعزز التهم التى يدلى بها الماركيز دى جوسا . فهو يزعم أن مذاهب الماديين العصريين قد حطمت معنى الأخلاق فى هذا الشاب وجعلته أهلا لارتكاب تلك الجريمة ؟ » .

فقال المسيو سيكست :

— « إننى لا أعرف ماهى المادة. فلست إذن مادياً ، أما أن يلقى على مذهب تبعة مايقدم عليه شاب مضطرب الحواس لأنه يفسر هذا المذهب مثل هذا التفسير السخيف. فان ذلك التطبيق يكاد يشبه فى غرابته ما يمكن أن يسند الى الكيميائى الذى اخترع الديناميت من الجرائم التى ارتكبت بواسطة تلك المادة المهلكة . حقاً ان تلك الحجة واهية ولا يمكن الأخذ بصحتها . . . »

وكانت اللهجة التى نطق بها الفيلسوف هذه الجملة تدل على ما يخلقه الايمان الراسخ العميق من العقيدة القوية والمقاومة الروحية التى لاتقهر . ولكن سرعان ماتحولت تلك اللهجة فجأة الى نغمة وادعة صبيانية عند ما سأل القاضى بغتة :

ــ «وهل تظن أننى سأضطر الى الذهاب الى ريوم لتأدية الشهادة ؟»

فلاحظ القاضى، فى كثير من الدهشة، ذلك التناقض العجيب بين حزم المفكر فى الجزء الأول من حديثه وبين القلق الذى اعتراه وهو ينطق بجملته الأخيرة وأجابه :

ــ «لاأظن ياسيدى فقد تبين لى أن علاقاتك بالمتهم كانت سطحية أكثر مما تتوهمه والدته إذا صح أنها لم تتجاوز هاتين الزيارتين وبضع مكاتبات لا تخرج فى مضمونها عن مكاتبات فلسفية . على أننى أعود الى سؤالك عما اذا كان المتهم لم يسر اليك بأشياء خاصة بمعيشته عند أسرة جوسا ؟»

ــ «مطلقاً . ثم انه كف عن مكاتبتى عقب التحاقه بتلك الأسرة ..»

ــ «ألم تلاحظ على رسائله الأخيرة أى أثر لمطامع

جديدة أو قلق أو استيضاح عن شعور باحساس غريب مجهول ؟ »

فأجاب الفيلسوف :

— « لم ألاحظ شيئا من هذا القبيل »

فاستطرد المسيو فاليت ، بعد صمت جديد كان يدرس خلاله هذا الشاهد العجيب :

— « اذن ياسيدى . إننى لا أريد أن احتفظ بك أكثر من ذلك . فساعاتك جد ثمينة . فاسمح لى الآن أن ألخص للكاتب أقوالك . فهو لم يتعود سماع مناقشات في مثل هذه المواضيع السامية . . . ثم توقع عليها بعد ذلك . . . »

وبينما كان القاضى يلخص لكاتبه ما كان يعتقد أنه يهم القضاء فى شهادة العالم . كان هذا الأخير يصغى بدون أن يبدى أية ملاحظة وبدون أن يفهم لأن التأثير العميق الذى أحدثه في نفسه نبأ تلك الجريمة التى ارتكبها روبير جرسلو وما يعزى اليه من الارتباط بتلك الجريمة بطريق غير مباشر قد أذهله وجعله يفكر . فوقع بدون أن ينظر ، بعد أن تلا عليه المسيو فاليت الصفحة التى دونت فيها أقواله بصوت مرتفع . وقبل أن يغادر المكان أعاد سؤاله من جديد :

ـ « اذن . يمكننى أن أعتمد على انى سوف لا أضطر الى الذهاب إلى هناك ؟ »

فاجابه القاضى وهو يشيعه الى الباب :

ـ « هذا ما أظنه . وعلى كل حال فهذا الأمر لا يتم بعد يوم أو يومين »

ونطق القاضى بتلك الجملة الأخيرة وهو يشعر بلذة خفية مما بدا على سحنة هذا الرجل الطيب من الألم الصبيانى . وبعد أن غادر سيكست مكتبه قال لكاتبه :

ـ « لاشك عندى فى أنه مجنون . وخير لمن كان مثله أن يسجن . فقد طالما فسدت أخلاق الشبان من تأثير الأفكار التى ينشرها ذلك النوع من المفكرين الفوضويين . ومع ذلك فان هيئته تدل على حسن النية . فلو أنه سجن لكان أقل خطراً منه الآن . ياللوغد ! . . . هل تعلم أنه قد يتسبب فى قطع رأس تلميذه ومريده بما فى أقواله من المفارقات والآراء الغريبة ؟ . . . ولكن يظهر أن ذلك لايهمه وأن كل ما يهتم به هو أن يعلم اذا كان سيذهب الى ريوم أم لا . ياله من معتوه ! »

فأبدى الكاتب موافقته على هذا الرأى باشارة من رأسه .

وأخذ القاضى وكاتبه يضحكان ويهزان أكتافهما .

وبعد أن استعرض القاضى فى مخيلته - فى شىء من الذهول - مختلف الانفعالات التى مرت به ازاء هذا المخلوق المتكتم العجيب أضاف :

— « لعمرى . لم أتوقع مطلقاً أن يكون أدريان سيكست الشهير شبيها بهذا المخلوق العجيب . . . حقاً إن هذا غريب لا يوصف ! »

ألم بسيط

إن ما وصف به قاضى التحقيق جمود العالم ليكون أوقع فى النفس وأفعل ، لو تمكن القاضى من اقتفاء أثر المسيو سيكست ليقرأ ما يدور في مخيلة الفيلسوف من الأفكار فى المدة بين التحقيق الذى أجراه معه وبين الموعد الذى حددته له والدة روبير جرسلو المسكينة . إن أول ما فعله ذلك الرجل ، الذى وصفه المسيو فاليت فى ذات اللحظة بأنه معتوه ، عند ما أدرك ساحة المحكمة الكبرى ، هو أن ينظر الى الساعة كما يفعل

رجل الأعمال المقيد بمواعيد دقيقة ، وتمتم : « الثانية والربع . لن أصل الى دارى قبل الثالثة . وستأتى مدام جرسلو فى الساعة الرابعة . . . لا وسيلة الى استئناف العمل . . . وهذا ما يسيئنى » وعقد النية فى الحال على تقديم موعد نزهته اليومية وجعلها فى تلك اللحظة خصوصاً وأنه كان يستطيع أن يصل الى حديقة النباتات عن طريق النهر والمدينة التى كان يحب مشاهدة منظرها الذى أخنى عليه الدهر ووداعتها الريفية . وكانت السماء صافية الأديم ، كالصفاء الذى يعقب سقوط البرد ، ومياه نهر السين تنساب تحت القناطر وهى تحمل على ظهرها السفن المحملة بالبضائع ، وكان الدخان يتصاعد من مداخنها البارزة من سقف حجرة خشبية قائمة فوق ظهرها . وكانت خيول المركبات تقرع أعتاب الطريق بحوافرها . فلو أن العالم لاحظ كل تلك التفاصيل ، إذ كان يقطع الطريق ليدرك الأفريز بخطوات مترددة كما يفعل الرجل الريفى الذى يخشى مرور العربات ، لكان شعوره بالحقيقة أوقع وأعمق . ولكنه استمر يفكر فى ذلك الاعتراف المدهش الذى أطلعه القاضى عليه . ثم إن رأس الفيلسوف لايخرج عن كونه آلة تحدث

لوقائع فيها التأثير المباشر البسيط الذى يعتبر طبيعياً عند الأشخاص الآخرين . فكأن الفيلسوف مركب من ثلاثة أشخاص مندمج بعضها ببعض : سيكست الرجل الطيب الأعزب الذى تكلؤه خادمته الرفيقة بعنايتها ، ويهتم قبل كل شىء براحته المادية . ثم الفيلسوف المجادل ، أو بمعنى أوضح وأوفى ، المؤلف الذى تتوقد فيه نيران الأنانية والأثرة ، شأن جميع الكتاب ويستعر اوارها في دخيلة نفسه عفواً وبغير تعمد منه . ثم العالم النفسانى الشغوف بدراسة الحياة ومشاكلها الداخلية . وهكذا كان لابد لأية فكرة - لكى تؤثر فى تلك العقلية الفذة ، وتحدث فيها مفعولها الكامل - أن تمر من هذه الأطوار الثلاثة.

ولذلك فان أولى الشخصيات التى بدأت تفكر عنده كانت شخصية الرجل العادى . فبدأ التفكير منذ اللحظة التى غادر فيها دار المحكمة حتى بلغ ضفة نهر السين . فكان المسيو سيكست يتحدث إلى نفسه . وأول مابدر الى ذهنه أن يردد الجملة التى اوحتها الى نفسه رؤية الساعة :

— « أجل هذا مايسيئنى . يوم بأكمله ضاع سدى .

ولماذا ؟ . . . انني لأسائل نفسي عن علاقتي بقصة تلك الجريمة . وما الذي عاد على التحقيق من شهادتي ! . . . ، انه لم يشك مطلقاً في أن نظرياته عن الجريمة والمسئولية لو وضعت بين يدي محام قدير لبق لكانت امضى سلاح يوجه إلى جرسلو . ثم استطرد : « أو كان ضروري أن يقلقوا راحتي . بيد أن هؤلاء الرجال لا يقدرون حياة رجل عامل ... ما أعظم غباوة هذا القاضي وما القاه على من أسئلة تافهة ! ولكن عسى الا أضطر إلى الذهاب إلى ريوم للمثول بين يدي بضعة رجال آخرين على شاكلة هذا الأبله ؟ . . . » وتمثلت له من جديد صورة الانتقال وما فيها من ضروب المتاعب على رجل تعود العمل بداخل مكتب وفي جو هادىء ، حتى إنه اذا دعي للقيام بأية حركة بدنية خالها نكبة حقيقية . ولا غرو ، فالرجال الأذكياء والعباقرة الأفذاذ يتأثرون بمثل تلك الأمور الصبيانية التافهة . وتصور الفيلسوف - في كثير من الاسى - حقيبته مفتوحة . وملابسه مطوية ، وأوراقه التي يحتاج اليها لأعماله موضوعة بجانب قمصانه . ثم تصور صعوده إلى العربة ، وغوغاء المحطة ، وعربة القطار ، واختلاطه بالمسافرين ، والوصول إلى بلد مجهول ، وما يلاقيه من

المتاعب فى حجرة الفندق حيث لاتوجد الآنسة ترابنار
لتقوم بخدمته وتعنى بشؤونه التى يجهلها كما يجهلها الطفل .
فهذا المفكر المستقل الجرىء إلى حد أنه لن يتردد فى
الاستشهاد - فى غير هذا العصر - فى سبيل عقائده بحزم
برونو وثبات فانينى ، شعر عند تصورة تلك المتاعب
البسيطة بشىء من الضيق الحيوانى . وتخيل نفسه مقودا
إلى جلسة الجنايات ، مرغما على الأجابة على أسئلة رئيس
أمام جمهور شاخص متنبه ، وكل ذلك بدون أن تكون
لديه فكرة واحدة يستند اليها ليقاوم حياءه الطبيعى ،
فتلك الفكرة هى منبع القوة الوحيد عند جميع المفكرين
المشتغلين فى دراسة النظريات . ثم استنتج ، وهو جد
مضطرب وقلق ، مما خيل اليه وقوعه : « أجل . لسوف
أوصد بابى منذ الساعة . ولكن لاتتعجل الحوادث . فقد
لاأحتاج إلى تحمل ذلك العناء ، وبذلك ينتهى كل شىء . . »

— « ينتهى ؟ . . » وهنا تنحى الرجل العادى المحب للعزلة
في داره عن مكانه فى هذا الجدل الباطنى الى ثانى الشخصيات
المستترة فى هذا الفيلسوف : إلى كاتب المؤلفات
التى يتناولها الجمهور بمناقشاته الحادة - « ينتهى ؟ » ، ربما
نحو شخصى الذى يروح ويجىء . ويقيم فى شارع جى

دى لابروس ، ويؤلمه الانتقال إلى الاوفرنى شتاء لنفس ذلك السبب التافه . . . ولكن كتبي وافكارى ؟ ما أغرب وأعظم ذلك الحقد الغريزى الذى يضمره الجهلاء لمذاهب ليس فى مقدورهم أن يفهموها ! . . . هذا شاب دبت الغيرة إلى قلبه فقتل فتاة ليحول دون زواجها من آخر . وهذا الشاب كان يراسل فيلسوفا ويدرس مؤلفاته . فالمتهم فى نظرهم هو الفيلسوف . ثم هأنذا أصبحت ماديا . أنا الذى برهنت على عدم وجود المادة ! . . . ، وهز كتفيه ، ثم تمثل صورة جديدة هى صورة ماريوس ديمولان المدرس الشاب فى كلية فرنسا . والرجل الذى كان يكرهه أكثر من كل شيء فى الدنيا . وفى نفس الوقت تمثل أمام عينيه ، كما لوكان يطالع رأى المفكرين في إحدى المجلات العلمية ، بعض العبارات التى امتاز بنشرها هذا المدافع عن مذهب القائلين بان النفس غير مادية : « المذاهب المشئومة . السم العقلى الذى يسيل من أقلام كتاب الاستعراض المخجل الفاضح لبسيكولوجية الدعاية والرشوة . . . »

— وقال ادريان سيكست مخاطبا نفسه : « أجل . لو أن هذا الرجل لاينتهز الفرصة التى اتاحتها له هذه

الصدفة التى تجعل من أحد تلاميذى قاتلا لاخطأ ظنى فيه.
لسوف يزعم أن علم النفس هو السبب فى ذلك كله.»
ويجدر بنا أن نذكر أن ماريوس ديمولان عند ظهور
كتاب « تشريح الارادة » حمل عليه حملة شعواء وأشار
إلى وجود خطأ فاحش فيه. والسبب فى ذلك أن ادريان
سيكست كان قد أفرد فصلا خاصاً شيقاً فى كتابه عن
اكتشاف ظهر لعالم فيسيولوجى ألمانى، فسلم بصحة هذا
الاكتشاف. ثم ثبت فيما بعد أنه غير صحيح. ربما أراد
ديمولان عند نقده الكتاب، أن يشير، فى كثير من
التهكم المقرون بالسخرية والتنديد، إلى ما وقع فيه المحلل
العظيم من السهو. إلا أن سيكست، الذى اعتاد ألا يجيب
على أى نقد، رأى أن يتناول هذا النقد بالرد. فلم يصعب
عليه - مع تسليمه بدهشته واعترافه بحسن نيته - أن
يدلل بغير ماعناء على أن النقطة التى سلم بصحتها كانت
تفصيلية وأنها لاتؤثر كلية على مجموع نظريته. على أنه
أضمر فى خبيئة نفسه لهذا العالم الروحانى حقداً كبيرا
خصوصاً وأن سيكست يعزو تلك الحملة إلى الازدراء
الموحى به من خلق منحط لأن ديمولان قد زعزع الثقة
بمذاهبه، بمطامع سافلة وطموح إلى نيل شرف الانخراط

فى سلك المجامع العلميـة والمناصب الرفيعة. وفكر سيكست: «كأنى أسمعه باذنى!... ان مايمكنه أن يقوله عن كتبى لا يهمنى. ولكن علم النفس؟. علم النفس! إنه مع ذلك العلم الذى يتوقف عليه مستقبل هذا العالم...»

ويرى مما تقدم أن الفيلسوف قد وصل، وهو فى هذه النقطة كغيره من العاملين بمذهب الذرائع، إلى أن يجعل من مذاهبه المحور الذى يدور العالم حوله. فكأنه كان يفكر هكذا: «ما هو السبب الرئيسى بالنسبة لأى حادث تاريخى؟ حالة عقلية عامة. وتلك الحالة العقلية ناشئة بدورها عن الأفكار السائدة. فالثورة الفرنسية مثلا، قد نشأت عن عقيدة خاطئة عند الرجل وتلك العقيدة وليدة الفلسفة الكارتزية. واستنتج من ذلك أنه إذا أريد تغيير سير الحوادث فانه يجب، في بادىء الأمر، تغيير التعاليم التى درست عن النفس وابدالها بمبادىء واضحة، فينتج عن ذلك ايجاد تعليم وسياسة جديدين: ومما هو أدعى إلى الغرابة أن هذه النظرية قد جعلت من هذا الملحد أحد أنصار الحكم الذاتى لا يقل حماسا عن بونالد او جوزيف دى مستر. ولذلك فانه

عند ما حنق على ديمولان كان يعتقد ، بحسن نية ، انه يحقد على أحد المسببين فى تقهقر الانسانية . ومرت به بضع لحظات مؤلمة وهو على تلك الحال يتصور هذا الخصم الممقوت وقد تناول حادث موت الآنسة دى جوسا وتذرع بها ليخرج على علم العقل الحديث ويحمل عليه حملة شعواء . « هل يجب الرد عليه أيضاً؟ » . ساءل سيكست نفسه هذا السؤال وقد تحول ظنه إلى يقين حتى لم يعد يشك فى مهاجمة خصمه له . ورد على نفسه بصوت مرتفع وبلهجة الحزم : « أجل سأرد عليه وبأحسن ما يوجد فى جعبتى » .

وكان قد وصل في نزهته خلف رأس كنيسة نوتردام ، ووقف يتأمل هندسة هذا الأثر وزخرفه ، فقد كانت تلك الكتدرائية الأثرية تمثل عادة فى نظره العقلية الجرمانية وخلقها الكثيف الذى طالما قارنه بفكره مع بساطة العقلية اليونانية التى تمثلها بعد مشاهدته صورة فوتوغرافية للبارتنون ، منذ عهد طويل ، فى مكتبة نانسى . تلك كانت طريقته فى تذوق الفنون . ان ذكرى ألمانيا التى طرأت عليه فجأة قد حولت تيار أفكاره لحظة . فتذكر على الرغم منه هيجل ثم مذهب « ذاتية المتناقضات » ثم مذهب « التطور » الذى تولد عنه .

وانضمت تلك الفكرة الأخيرة إلى بقية الأفكار التي أزعجته وعاد إلى سيره وهو يقيم في نفسه البينات ضد الاعتراضات التي كان يتوقع أن يقيمها ديمولان في حادثة الفتى جرسلو. ولأول مرة، منذ بدء حديثه مع القاضي، تمثلت في ذهنه المأساة التي وقعت في قصر جوسا براندون على حقيقتها، لأنه كان يفكر فيها من الناحية الحقيقية في حياته الطبيعية. وهي البسيكولوجية. فنسي ديمولان ومتاعب السفر إلى ريوم لأن أفكاره كلها كانت متجهة إلى المشكلة الخلقية التي تثيرها هذه المأساة، فقدشغلت ذهنه، واستحوذت على جميع أفكاره. إن أول سؤال كان يجب أن يلقى في هذا الموضوع هو: «هل قتل روبير جرسلو الآنسة دي جوسا حقيقة؟» ولكن الفيلسوف لم يفكر حتى في ذلك، لأنه استسلم، بدون أن يشعر، إلى تلك النقيصة التي يقع فيها جميع المفكرين الذين لا يدققون البحث في النظريات التي يسلمون بصحتها ويضاربون بها. فليست الوقائع في نظرهم إلا مادة تستغل نظريا فيشوهونها طوعا وارتياحا ليقيموا على انقاضها صرح مذاهبهم. وعاد الفيلسوف في تفكيره إلى القاعدة التي لخص بها هذه المأساة لنفسه. «شاب يقع

بين براثن الغيرة ويقتل. إن هذا لدليل جديد يعزز المبدأ الذى ينادى به وهو أن غريزة الهدم وغريزة الحب تستيقظان عند الذكر فى وقت واحد ...، وكان قد استخدم هذا المبدأ ليكتب فى مؤلفه «نظرية الشهوات» فصلا فى منتهى الجرأة عن «ضلال الشعور الجنسى». ان ظهور الغريزة الحيوانية الوحشية عند المتمدنين لكافية وحدها لاستغلال تلك العقلية. وكذلك يجب دراسة الناحية الوارثية للقاتل ...» واجتهد ان يتمثل روبير جرسلو ولكنه لم يستطع ان يخلق من تلك الصورة غير الملامح التى كانت تعزز النظرية المرسومة في ذهنه «ان عينيه السوداوين البراقتين، وحركاته السريعة الحادة، وطريقته الفجائية في التعرف على، وحماسه خلال محادثته ... لاشك ان ذلك كله يدل على وجود خلل فى الجهاز العصبي عند هذا الفتى. ان الاب مات حديث السن ؟ فلو امكن اقامة البينة على تأثير الكحول والخمور في هذه الاسرة فقد نصل إلى ايجاد واقعة جميلة يسميها لجران «ذيول الصراع الخفى» ونستطيع هكذا أن نعلل تعنت هذا الفتى فى الصمت، وان انكاره ربما كان صادرا عن حسن نية. هذا هو العامل الجوهرى الذى كان يدلل به على

الفرق بين المصاب بداء الصرع والمصاب بالعته . لأن الأخير يتصور ما يصدر عنه وما يفعله . بينما المصاب بالصرع ينسى ولا يذكر شيئاً ، فهل يكون هذا الفتى مصاباً بالصرع الخفي ؟ ... »

عند ماوصل الفيلسوف الى تلك النقطة من تأملاته شعر بشيء من الغبطة الحقيقية . فقد استطاع ، على منوال أقرانه ، أن يقيم صرحا من الأفكار قانعا بصحة ما تحمله اليه من التفسير والشرح . وظل ينظر الى هذا الافتراض من جميع نواحيه ويستعرض شتى الأمثلة التى أوردها كاتبها فى مؤلفه عن الطب الشرعى الى أن وصل الى حديقة النباتات فولجها من الباب الكبير المفتوح على رصيف سان برنار ثم دار على اليمين وسار فى طريق رصفت أرضها بالأسمنت المسلح وقامت على جانبيها الأشجار القديمة العهد وقد تعانقت أغصانها . وهبت الريح بشدة فحملت الى تلك الناحية رائحة كريهة أقرب الى رائحة الجيفة المنتنة ، وكانت تلك الرائحة منبعثة من الوحوش الرابضة فى أقفاصها الحديدية بالقرب من هذا المكان . وشغل الفيلسوف بتلك الرائحة عن الاستطراد فى تأملاته . ووقف الى جانب أحد الأقفاص ينظر الى

خنزير برى عظيم الرأس وقد انتصب على ساقيه النحيفتين وأخذ يحرك بوزه الطويل بين قرنيه بشراهة ووحشية .

وفكر العالم فى نفسه : « من ذا الذى يسلم بأننا قلما نعرف حقيقة أنفسنا أكثر مما يعرف هذا الحيوان حقيقة نفسه . إن ما نسميه « شخصنا الذاتى » ليس إلا ذكرى غامضة مضطربة للحوادث التى تحدث لنا » ثم عاد بذاكرته الى روبير جرسلو : « من يدرى ؟ لقد كان الفتى مهتما بدراسة الشخصية المتعددة ، فهلا كان يحمل فى نفسه شعورا مظلما بأنه يحمل فى شخصه حالتين متباينتين كشرط أول وشرط ثان ، أو بعبارة أوضح أنه يحمل كائنين : أحدهما صافى الذهن ، ذكى ، شريف ، شغوف بالأعمال العقلية ، وهو الذى عرفته ، والآخر مظلم ، وحشى ، ثائر وهو الذى قتل ؟ . حقا انها بينة . إننى لسعيد بمصادفتى إياه ... ونسى أنه عند ما ترك دار النيابة كان ينعى على نفسه علاقاته بمتهم ريوم . « انه لمن حسن الحظ أننى سأدرس الام الآن . فلسوف تقدم لى البيانات الصحيحة عن السلف . إن ما ينقص علم النفس الذى نهتم له هى دراسات شخصية قائمة على مشاهدات ، عن تكوين عقلية عظماء

الرجال والمجرمين . سأحاول دراسة هذه العقلية ... »

كل شهوة صادقة نزاعة الى الأنانية سواء أكانت عند المفكرين أم غيرهم . وهكذا فان هذا الفيلسوف الذى لم يكن خليقاً بايذاء ذبابة أخذ يسير بخطوات سريعة نشيطة نحو الباب المؤدى الى شارع كوفيه ومنه الى شارع بوسيو ثم شارع جى دى لابروس حيث سيلتق ويتحدث إلى أم تعسة تملكها اليأس فجاءته متوسلة ليساعدها على انقاذ رأس ابن ربما كان بريئا ! ولكن براءة المتهم المفترضة وحزن الأم والدور الذى قد يطلب منه أداؤه فى هذا الموقف الجديد ، كل ذلك قد تلاشى من مخيلته أمام الفكرة الثابتة التى طبعت فى ذهنه ، وهى أنه سيتمكن من تدوين ملاحظة جديدة لها مغزاها ، ويضمها الى ملف الملاحظات التى يعنى بجمعها . ودقت الساعة الرابعة عند ما وصل هذا المفكر العجيب الى الافريز عند باب منزله وهو لا يشك ولا يفكر فيما يوجد في عمله هذا من القسوة والوحشية أكثر مما يفكر فيه الجراح المغتبط من النتيجة الباهرة التى وصل اليها عقب تشريح جثة . ووقف عند باب المنزل رجلان : الاب كاربونيه ، والبائع صاحب الحانوت القائم بناصية

الطريق . وكانا يديران ظهرهما الى الناحية القادم منها ادريان سيكست ، ويلهوان مازحين بمنظر سكير يتخبط على الافريز المقابل ، وقد وصلت به نشوة الخمر الى حد لم يعد يعرف معه أى متجه يتجه ، ويعلقان عليه بما يتوارد الى ذهن العامة من أفراد الشعب من الخواطر التى تثيرها فيهم رؤية مثل هذه المناظر . وكان الديك فرديناند يحوم حولها متنقلا بين ساقيهما لالتقاط مايعثر عليه منقاره بين أعتاب الافريز . وقال البائع :

ــ لا شك فى أن هذا السكير قد شرب أكثر من المعتاد .

فأجاب كاربونيه .

ــ وإذا قلت لك إنه لم يصل إلى هذه الدرجة إلا لأنه لم يشرب كفاية إذ أنه لو شرب أكثر من ذلك لسقط عند بائع النبيذ . وما كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ويرتطم بالجدران ... حسناً . ها هو ذا يصدم السيدة الحزينة .

ولم ير الرجلان الفيلسوف ولم يشعرا بقدومه ، فكانا يسدان عليه طريق المرور . وتردد العالم لحظة على جارى عادته وخموله الطبيعى فلم يزعجهما . ثم لم يلبث

بدوره أن تابع السكير بنظراته . كان التعس ممزق الثياب وعلى رأسه قبعة عالية أخنى عليها الدهر وأصابها بما لديه من شتى المحن . وكانت ساقاه النحيلتان تهتزان كعودين من الغاب وأصابعه بارزة من أطراف حذائه الممزق . وكان قد اصطدم بسيدة متشحة بالسواد ، واقفة على افريز شارع جى دى لابروس عند ناصية شارع لينيه . لا شك فى أن هذه السيدة كانت منصرفة الذهن فى مراقبة مجىء شخص يهمها كثيراً لأنها لم تلتفت لأول وهلة . وأخذ الرجل الممزق الثياب يعتذر إلى هذه السيدة بالحاح السكارى فانتهى بها الأمر إلى أنها شعرت بوجوده ونظرت اليه ثم تنحت عن طريقه بحركة اشمئزاز وابتعدت عنه فاستشاط السكير غضبا ، واستند إلى الحائط وأخذ يرسل إلى المرأة بعض الألفاظ الجارحة ، فتجمع حولها عدد كبير من الصبية كانوا يلعبون فى الطريق ، وأخذ البائع يضحك وشاطره الأب كاربونيه هذا الضحك ثم التفت الأب كاربونيه حوله ليبحث عن ديكه فرديناند وهو يصخب :

— « إلى أين ذهب هذا الملعون ؟ ... »

ووقع نظره في هذه الآونة على أدريان سيكست

وخلفه الديك فردينان . وكان العالم قد تأخر هو أيضا عن دخوله البيت مأخوذاً بمشاهدة منظر السكير والمرأة المجهولة .

وقال البواب .

ــ آه يا مسيو سيكست . إن هذه السيدة المتشحة بالسواد قد سألت عنك دفعتين منذ ربع ساعة ، وهى تقول بأنك فى انتظارها .

فأجابه العالم :

ــ اذهب وجئنى بها

ثم فكر في نفسه .

ــ « هذه هى الأم »

وكانت أول حركة بدرت منه هى أن يدخل البيت في الحال . ثم منعه عن ذلك نوع من الخجل وظل واقفا عند عتبة الباب . وهرول الأب كاربونيه ، بقلنسوته العالية وفوطته الجلدية التى تغطى صدره ، نحو الجمع المحتشد يتبعه ديكه . وما إن سمعت المرأة دعوته حتى تركت صاحب الديك يعنف السكير واتجهت نحو منزل الفيلسوف ، وكان هذا الأخير لم يكف ، بعامل الغريزة ، عن مناجاة نفسه وترديد الأفكار التى كانت تشغله خلال نزهته .

فلاحظ فى الحال وجود شبه غريب بين هذه السيدة المتنكرة التى جاءت تقصده والشاب الذى استجوب بشأنه . فكانت نفس النظرات البراقة فى نفس الوجه النحيل الشاحب . وفى هذه المرة زال عنه الشك . زال أثر المحلل النفسانى القاسى الذى لا يشغل فكره إلا الواقعة التى يريدان أن يدرسها وحل محله الرجل الطيب الساذج الجاهل لمقتضيات الحياة العامة وما تستدعيه من آداب اللياقة والمجاملة وتعذر عليه أن يجد الألفاظ التى يتطلبها موقفه. فأنقذته مدام جرسلو- إذ كانت هى فى الواقع- من هذه الورطة ، وخدمته بأن بادرته الحديث :

ـــ أنا يا سيدى الشخص الذى كتب لك بالأمس :

فتمتم العالم :

ـــ لى عظيم الشرف ياسيدتى. وانى لآسف على عدم وجودى فى البيت قبل ذلك . . . ولكن خطابك حدد الساعة الرابعة . . . ثم إننى آت فى هذه اللحظة من عند قاضى التحقيق حيث دعيت لتأدية الشهادة فى مسألة هذا الولد التعس ! . . .

فقالت الأم وهى تضغط على ذراع أدريان سيكست لتقطع عليه جملته وهى تشير الى البائع الذى ظل واقفا

عند عتبة الباب وهو ينصت :

ــ « آه . ياسيدى ! »

فأجاب العالم وقد أدرك قسوة غفلته :

ــ « معذرة لو سمحت لى بالمرور أمامك لأرشدك الى الطريق ؟ »

وسار في الردهة ليخفى الاحمرار الذى شعر بأنه صبغ وجهه وأخذ يصعد درج السلم الذى بدأت تخيم عليه الظلمة بزوال النهار. وكان يسير الهوينا ليخفف ضجر رفيقته التى كانت تستند الى حاجز السلم كما لو كانت لا تجد من نفسها القوة اللازمة لتسلق درج الطبقات الأربع . وكانت زفراتها المتقطعة المتصاعدة تدل على ما كانت هذه المرأة التعسة عليه من شدة الضعف . فنظر الفيلسوف على الرغم مما طبع عليه من الجمود وقلة الاكتراث لما يدور حوله من المؤثرات الخارجية بنوع من الشفقة الغامضة عند ما دخل الى حجرته ، وتصفح وجه زائرته على ضوء المصباح الذى كانت خادمته قد أشعلته. وتأثر اذ رأى هذا الوجه وقد تجعدت أساريره وهاتين الشفتين وقدجفتا من وطأة الحمى وهذين الحاجبين العابسين وقد اقترنا عند أعلى الأنف من وطأة الحزن. وأدرك من حركات يديها المضطربتين ما آلت اليه حال

هذه المنكودة فكانت تقبض بحدة على ملف كان يحوى بلا شك مذكرة دونت فيها دفاعها وجميع البيانات التى توضح ما يعانيه هذا الوجه من وطأة الألم وعذاب الفكرة . وما كادت تسقط على مقعد ـ إذ أنها لم تعد تتمالك نفسها لتجلس ـ حتى قالت بصوت محطم :

ــ ياالهى ! ياالهى ! أو أكون قد وصلت متأخرة . كنت أريد أن أتكلم معك ياسيدى قبل محادثتك مع القاضى. ولكنك دافعت عنه . أليس كذلك ؟ لقد قلت إن ذلك مستحيل . إنه لم يرتكب مايتهمونه به ؟ . . . أنت لاتعتقد بأنه مجرم ياسيدى ، أنت الذى كان يدعوك أستاذه ، أنت الذى كان يحبك حبا جما ؟ . . .

فقال الفيلسوف

ــ لم يطلب منى أن أدافع عنه ياسيدتى . فقد سألونى عن علاقتى به ، ولما كنت لم أره الا مرتين ولما كان لم يكلمنى الا عن دراساته . . .

فقاطعته الأم بيأس عميق مؤلم :

ــ آه !

ثم استطردت مرددة :

ــ لقد جئت متأخرة

وألحت وهى تضم راحتيها

— ولكن كلا ... لسوف تأتى لتؤدى الشهادة أمام محكمة الجنايات وتقرر بأنه لايمكن أن يكون مجرما، بأنك تعرف بأنه لايمكن أن يكون كذلك ؟ إنه لمن المستحيل أن يصبح المرء قاتلا، دساسا للسم بين يوم وآخر. إن حداثة المجرمين تنبئ عن جريمتهم، فهم سفلة، مقامرون رواد مقاه.. أما هو يا سيدى، فانه، مذ كان فتى صغيراً مع أبيه المسكين كان غارقاً دائماً بين صفحات الكتب... وقد كنت أقول له.. «هيا روبير. اخرج، يجب أن تخرج لتستنشق الهواء. لتلهو.» لو كنت تعلم لذة الحياة الهادئة التى كنا نقضيها معاً قبل اندماجه بتلك الأسرة الملعونة! وهو لم يفعل ذلك إلا بسببى. لم يلتحق بها إلا لكى لايحملنى عناء الصرف عليه لاتمام دروسه. فقد كان المنظور أن يصبح أستاذاً بعد ثلاث أو أربع سنوات، وربما التحق بكلية كارمون. وكنت إذ ذاك أزوجه. فقد اخترت له فتاة. وحينئذ أبقى فى ركن هادئ لأربى له أولاده. آه. ياسيدى!، وأخذت تبحث في عينى الفيلسوف عن جواب يتفق مع رغبتها القوية ثم استطردت:

— قل إذا كان في الامكان أن يرتكب ابن له مثل هذه الأفكار مايشيعونه عنه ؟ تلك سفالة . أو ليست تلك نذالة ياسيدى ؟ . . . ،

— هدئ من روعك يا سيدتى . هدئ من روعك .

تلك كانت الكلمات الوحيدة التى استطاع أن يجيب بها أدريان سيكست على هذه الأم التى كانت تندب أمامه انهيار آمالها بلهجة تمزق نياط القلب . ومن جهة أخرى فانه كان لم يزل تحت تأثير محادثته مع القاضى الى حد أنها ظهرت له شاردة الفكر بعيدة عن الحقيقة فريسة أوهام قد أعمت بصيرتها . فظل أمامها حائراً مصعوقاً . وإلى جانب ذلك فقد عاودته مخاوفه وهواجسه من السفر الى ريوم فتأثر منها بقدر ما كان متأثراً من هذا الألم الذى تمثل له فى هذه المرأة . فلماذا لا يعترف لها ؟ وتجلت تلك الانفعالات النفسية فى نظراته التى كانت تعبر عن ارتيابه فلم تنخدع لها الأم . فان للآلام الشديدة شعور الغريزة التى لاتخطئ . وفهمت هذه المرأة أن الفيلسوف لايعتقد ببراءة ابنها ، فابتعدت عنه بحركة دلت على ما فى نفسها من الذعر وتمتمت فى زفرة :

— ، كيف ! وأنت أيضاً ياسيدى ؟ . أنت مع

أعدائه ؟ . . أنت ؟ أنت ؟ . . . »

فأجاب أدريان سيكست بهدوء

— « كلا ياسيدتى . لست عدواً . أنا لاأتمنى إلا أن أعتقد ماتعتقدينه ، ولكنك تسمحين لى بأن أكلمك بكل صراحة ؟ . . . ان الوقائع هى الوقائع . وإنها قوية رهيبة ضد هذا الفتى التعس . . . ذلك السم الذى اشترى سراً ، وتلك القارورة التى ألقيت من النافذة ، وتلك القارورة الأخرى التى أفرغ نصفها ثم أعيد ملؤها ماء ، وخروجه من مخدع الفتاة في ليلة الوفاة ، وتلك البرقية الكاذبة ، وذلك الرحيل الفجائى ، وتلك الرسائل المحترقة ، ثم أفكاره . . . »

فقاطعته الأم :

— « ولكن لايوجد دليل في كل ذلك يا سيدى . لايوجد دليل واحد . ذلك الرحيل الفجائى ؟ كان يريد أن يغادر مكانه منذ أكثر من شهر . لدى رسائله التى كان ينبئنى فيها عن خطته . ثم ان مدة ارتباطه أوشكت أن تنتهى وقد توهم أنهم يريدون إبقاءه في حين أنه سئم مهنة المربى ، ولما كان حيياً خجولا فانه أدلى بحجة كاذبة واخترع تلك البرقية المشئومة . هذا كل ما فى الأمر . . .

السم ؟ إنه لم يشتره سراً. فقد درس طويلا بعد الطعام! خروجه فى الليل ؟ ولكن من ذا الذى رأى ؟ خادم ؟ واذا كان هذا الخادم مأجوراً من القاتل الحقيق ليتهم ابنى ؟ هل أعرف أنا ما كانت تدسه هذه الفتاة ومن كان يجد في مصلحته أن يقتلها ؟ تلك القارورة الملقاة والأخرى التى أفرغ نصفها والرسائل المحترقة ؟ ولكن الا ترى أنها بقية خطة رسمت لالقاء الشبهات عليه ؟ كيف ؟ لماذا ؟ لسوف يتضح ذلك يوما. هيا. إن ما أعرفه أنا ، هو أن ابنى ليس مجرما. انى أقسم على ذكرى والده. آه! أو تظن أننى كنت أدافع عنه هكذا لو كنت أشعر بأنه أثيم ؟ كنت بالعكس أسأل الرحمة. كنت أبكى وأنتحب. كنت أتوسل بدلا من أن أطلب العدل، كما أفعل الآن، وأنشده ؟ كلا. لم يكن من حق هؤلاء القوم أن يتهموه كما فعلوا ويلقوا به فى غياهب السجن ويدنسوا شرف اسمنا على غير أساس. إذ أنه لا يوجد ضده برهان كما أبنت لك ذلك ياسيدى..

فأجابها الفيلسوف وهو يظن فى دخيلة نفسه أن هذه المرأة المسكينة لم تبرهن له على شىء إلا تمسكها وعنادها فى مقاومة الحقيقة الراهنة :

ـ لو كان بريئا فلم هذا التعنت في السكوت ؟
فصرخت مدام جرسلو
ـ ايه ! لو أنه كان متهما لتكلم ، لدافع ، لكذب !
وأضافت بصوت خشن مختنق :
ـ « ألا يوجد في الأمر سر ؟ أنا واثقة من أنه يعرف شيئا لا يريد الافصاح عنه . لماذا ؟ يحتمل أنه لا يريد أن يدنس شرف هذه الفتاة ماداموا يدعون أنه كان يحبها ؟ »
وشبكت راحتيها وتغيرت لهجة صوتها واستطردت :
ـ آه يا سيدى . إذا كنت أردت أن أقابلك . وإذا كنت تركت ريوم ليومين . فانما ذلك لهذا السبب . لا يوجد غيرك من يستطيع أن يحمله على الكلام ، أن ينال منه وعداً بالدفاع عن نفسه ، ان يثبت براءته ، أن يتكلم . يجب أن تعدنى بأن تكتب له . بأن تأتى هناك فأنت مدين لى بذلك . »
وهنا الحت بصوت قوى خشن :
ـ لشد ما تعذبت بسببك ...
فأجابها الفيلسوف سائلا
ـ « أنا ؟ »

فاستطردت وعلى وجهها سيماء الغضب وفى صوتها رنة الاحقاد القديمة:

— إذا كان قد فقد الايمان فعلى من تقع التبعة؟ عليك أنت يا سيدى. على كتبك. رباه! لشد ما كرهتك فى ذلك العهد! اننى ما زلت أتصور وجهه عند ما أنبأنى بأنه لن يتناول القربان المقدس فى عيد الأموات لأنه كان يشك. فقلت له: «وأبوك؟ فى عيد الأموات!» فأجابنى: «دعينى وشأنى فاننى لم أعد أومن»... كل شىء قد انتهى، كان جالساً إلى مكتبه وأمامه مجلد مفتوح فأقفله وهو يحدثنى. اننى أذكر. لقد قرأت اسم المؤلف، هكذا، عفواً، فاذا هو اسمك يا سيدى. لم أكن أناقشه فى ذلك الوقت لأنه أصبح عالماً كبيراً وأنا امرأة مسكينة جاهلة... ولكن في اليوم التالى وبينما كان هو فى مدرسته استدعيت الأب ما رتل الذى عنى بتربيته وتهذيبه صغيراً وأدخلته حجرة المكتب لأطلعه على ما تحويه من الكتب. كنت أشعر بأن تلك المطالعات هى التى أهلكت ولدى. وكان كتابك لم يزل موضوعا على المكتب، عفواً ياسيدى، إذا كنت أجرح شعورك. عفوا. ولكنك تقدر

جيدا لو أن ابنى ظل الفتى المسيحى الذى كان ، لكنت أنشد الكاهن الذى يسمع اعترافه وأتوسل اليه ليأمره بالخروج عن صمته . اقد سلبته ايمانه يا سيدى . انى لا ألومك ولن ألومك . كما انى لا أضمر لك ضغينة أو حقداً . ولكننى جئت أسألك ما كنت سأسأل الكاهن عنه . لو أنك سمعته عند ما آب من باريس ! كان يقول لى عنك : « أنت لا تعرفينه يا أماه . ولسوف تحبينه وتحترمينه . إنه قديس . » اه ! عدنى بأنك ستحمله على الكلام . فليتكلم ، ليتكلم لأجلى . لأجل أبيه . لأجل من يحبونه . لأجلك أنت يا سيدى . إنه لا يمكن أن يكون لك تلميذ قاتل . لأنه تلميذك وأنت أستاذه . إنه مدين لك بالدفاع عن نفسه كما هو مدين لى بذلك . أنا أمه ؟ . . . »

فأجابها العالم باخلاص عميق : « انى أعدك بعمل ما استطيع »

تلك هى المرة الثانية ، فى هذا اليوم ، التى تجلت فيها مسئولية الأستاذ نحو التلميذ وتجسمت له ، فقد تمثلت له أمام القاضى ولكنها ألفته منكمشاً وراء صلابة المفكر الذى يأبى الأخذ بمثل هذا اللوم

السخيف . ولكن أقوال هذه المرأة المسنة المضطربة التى تذكيها نيران هذا الألم البشرى الذى لم يتعوده لأنه تعود عيش الزهد الذى يقضيه ، قد هزت فى فؤاده أوتاراً غير أوتار الأنانية والكبر . ولقد شعر كذلك باضطراب عجيب يستولى على مشاعره . واستطردت حديثها فى رقة تناقض اللهجة الشديدة التى كانت تخاطبه بها منذ لحظة :

— « لقد أخبرنى فعلا بأنك طيب . طيب جداً . »

وتابعت حديثها وهى تكفكف عبراتها : « وقدجئت أيضا لأداء مهمة كلفنى بها هذا الفتى المسكين . ثم احكم إن لم يكن في ذلك برهان جديد على أنه برىء . لقد أتم ، وهو فى سجنه منه شهرين ، عملا فلسفيا عظيما . وأخبرنى أنه يهتم به كثيراً لأنه أهم مؤلف له . فعاهدت نفسى أن أحمله لك . » وقدمت للعالم ملفاً من الورق كانت تحمله على ركبتيها : « ها هو ذا كما سلمه لى . إنهم يصرحون له بالكتابة ما شاء فكلهم يحبونه ، وهم يسمحون لى بمقابلته والتحدث اليه فى غير الحجرة النظيفة المخصصة لذلك حيث كان الحارس يصغى الينا . انى ألتقى به الآن فى الحجرة المخصصة للمحامين . ولكن كيف يمكن لمن

يعرفه ألا يحبه ؟ ألك أن تلقى نظرة ؟ » والحت بصوت محتبس : « إنه لم يكذبنى أبداً . وأعتقد أن هذا ما قاله لى . ومع ذلك فربما فكر فى أن يكتب لك ما رفض أن يدلى به إلى أى امرىء آخر ؟ » .

فأجابها ادريان سيكست وهو يفض الملف

— « لسوف أتأكد من ذلك فى الحال » والقى نظرة على الصفحة الأولى من الكراسة وتمكن من قراءة ما يأتى ! « علم النفس الحديث » ثم على الورقة الثانية قرأ عنوانا آخر : « مذكرات عن شخصى » كتبت تحته السطور الآتية : « اننى أرجو من أستاذى العزيز المسيو ادريان سيكست أن يعتبر نفسه كأنه مقيد بعهد ويحتفظ بالسطور التالية لنفسه خاصة . فاذا هو لم يلائمه القيام بهذا التعهد نحو تلميذه التعس فاننى اسأله ان يعدم هذه الكراسة ، واننى واثق بشرفه وبأنه لن يقدم هذه المذكرة لكائن من كان حتى فى سبيل انقاذ رأسى »

ووقع الفتى بحرفى اسمه فقط

وسألت الأم : « اذن » بينما كان العالم يقلب صفحات الكراسة وهو فريسة قلق عميق

فأجابها العالم : « اذن اليس فى هذه الكراسة غير

عمل فلسفى كما أخبرك . هاك . . . » وعرض لانظار الأم المنقبة ما كان مكتوبا على الصفحة الأولى

وتردد على شفتى الأم سؤال . ولاح الشك في نظراتها وهى تقرأ تلك الجملة العنيفة التى لا يمكن لعقلها المسكين أن يفهمها لأنها لاحظت تردد أدريان سيكست . ولكنها لم تجسر على سؤاله ووقفت وهى تقول :

— « لسوف تعذرنى إذا كنت قد شغلتك طويلا ياسيدى . لقد وضعت فيك أملى الأخير وانك لن تخدع قلب أم . اننى أذهب وأنا أحمل وعدك . »

فأجابها الفيلسوف برزانة وتؤدة : « لسوف أعمل يا سيدتى كل ما أستطيع عمله لاظهار الحقيقة . اننى أعدك بذلك مرة أخرى »

وعند ما ودع ادريان سيكست المرأة التعسة وأصبح وحده في حجرة مكتبه ظل طويلا غارقا في لجة أفكاره . ثم تناول المخطوط الذى سلمته له مدام جرسلو وقرأ . وأعاد قراءة الجملة التى كتبها الشاب ثم لم يلبث أن دفع عنه هذه الكراسة المغرية وأخذ يتنزه فى الحجرة بلا انقطاع . وتناول هذه الورقات مرتين ودنا بها من النار ولكنه لم يلقها في اللهب . وثارت عاصفة في رأسه

واشتد فيها النزاع بين الفضول الشديد الذى يوقظه
اعتراف تلميذه فى نفسه وبين اعتبارات حيوية شتى .
كان يشعر بذلك : ان قيامه بالعهد الذى يقطعه عليه لقراءة
هذه المذكرة ووقوفه على ما يمكنه الوقوف عليه من
مطالعة هذه الصفحات سوف يؤدى به إلى حالة يرجح
انها ستكون فظيعة . ماذا عساه أن يفعل إذا هو وقف
على الحجة التى تؤيد براءة الشاب ولا حق له فى تقديمها
أو علم ما هو أفظع وما كان يخشى من أمر اداناته وصحتها؟
ولم يشعر بأنه كان يرتعد فى قرارة نفسه خوفا من ثبوت
ما كان يخشاه فيرى، خلال هذه المذكرة ، إذا صح وجود
الجريمة ، أثر تأثيره الشخصى لأن ذلك يؤيد التهمة
القاسية التى وجهت اليه دفعتين ، والتى ترمى إلى ايجاد
علاقة بين مؤلفاته و بين تلك القصة المشئومة . ومن جهة
أخرى فان انانية رجل الدرس والتحليل التى كانت تستفظع
كل انزعاج وتأنفه ، كانت تغريه بعدم الاختلاط بمأساة
ليس من شأنه فى الواقع أن يختلط بها. وفى النهاية
استقر رأيه وتمتم : « كلا . لن أقرأ هذه المذكرة ،
سأكتب إلى هذا الفتى كما وعدت أمه وتقف الحال
عند هذا الحد » وكانت ساعة العشاء قد أزفت وهو شارد

فى تصوراته وأفكاره . وتناول طعامه وحيداً على حسب عادته وهو جالس إلى جانب مدفأة من الصينى (اذ كان يعنى بالتدفئة عناية خاصة لسرعة تأثره من البرد) وضعت على طاولة صغيرة مستديرة يسترها غطاء من المشمع . وكان المصباح الذى يستعين به على الكتابة يضىء طعامه البسيط ، فقد كان مؤلفاً - على جارى عادته - من المرق والخضر مع قليل من العنب المجفف والماء القراح . وكان من عادته أن يتناول عفوا أحد الكتب التى تملأ مكتبته التى فضل وضعها فى تلك الحجرة تلافيا للزحام ، او يصغى إلى الآنسة ترابنار وهى تحدثه عن تدبيرها لشؤون المنزل . ولكنه ، فى هذا المساء ، لم يتناول كتابه ، وعبثاً حاولت خادمه أن تعرف إذا كانت هناك أية علاقة بين زيارة السيدة ودعوة قاضى التحقيق . وعصف الهواء ، وكان هواء شتويا يسمع أنينه وهو يرتطم بخشب النوافذ وينفذ من فتحاتها المظلمة الضيقة واستلقى العالم على مقعد كبير بعد تناول الطعام ، امام مذكرة روبير جرسلو بدلا من الخروج كعادته . وأخذ ينصت إلى تلك الأنات المملة . وساورته أفكاره وعاوده تردده ثم انتصر العالم النفسانى على الرجل الموسوس

فأمر ماريت ، وقد جاءته بعد ردح من الزمن لتنبه بأن فراشه قد أعد ، بان تذهب وتنام . ودقت الساعة الثانية وهو مازال يقرأ تلك القطعة التحليلية الغريبة التي أسماها روبير مذكرة عن شخصه والتي كان يجدر بأن تسمى : « اعتراف شاب عصري »

اعتراف شاب عصرى

سجن ريوم — يناير ١٨٨٧

انى أبعث اليك ياسيدى بهذه المذكرة التى كتبتها عن نفسى وأبيت أن أرفعها إلى المحامى بالرغم من توسلات أمى. لقد كتبتها لك لنفس السبب الذى دعانى أن أحمل اليك باكورة اعمالى. فأنت لاتعرف فى تلك اللحظة إلا النزر القليل من الوقائع المرتبطة بحياتى! توجد بينك، أنت الأستاذ الجليل، وبينى أنا تلميذك المتهم بأشنع التهم، رابطة متينة قل ان تتحطم. فقد عشت ملازما

لفكرتك ، متأثراً بها ، شغوفا بجلالها ، فلم يشغلنى عنها
أى عامل حتى في أدق مواقف حياتى وأحرجها ! وانى
الآن ، فى وسط اليأس الأدبى الذى اتخبط فى خضمه
الرجراج المدلهم ، أرانى أوجه اليك نظراتى كما أوجهها
الى الكائن الوحيد الذى أرقب عونه وأؤمل فيه وارجو
مساعدته . آه . لاتنبذنى ياسيدى واستاذى العزيز ، وثق
بأن اليأس المخيف الذى ارزح تحت عبئه غير ناشيء
عن مظاهر العدالة التى تمثل أمامى وتكتنفنى ، واننى لن
أكون جديراً بلقب فيلسوف إذا أنا لم أكن قد حملت
نفسى ، منذ أمد بعيد ، على الأخذ بفكرتى واعتبارها
الحقيقة الراهنة والاعتماد عليها والركون اليها واعتبار
العالم الخارجى بمظاهره الزائفة كسلسلة من المظاهر
الخداعة المشؤومة . لقد تعودت مذ بلغت السابعة
عشرة من عمرى أن أردد ، في أدق ساعات اليأس
والعجز ، تلك العظة التى أدلى بها سينوزا العظيم وان
القوة التى يواظب عليها الرجل فى حياته قوة محدودة وقوة
المسببات الخارجية تفوقها كثيرا ، لسوف يحكم على
بالموت بعد ستة أسابيع بسبب تلك الجريمة . ومع انى
برىء منها فأنا لا أستطيع بتاتا أن أثبت براءتى

ولسوف تعلم السبب عند ما تطلع على هذه الصفحات.
سأذهب إلى المقصلة وأنا رابط الجأش ثابت الجنان.
لسوف احتمل هذا الحادث بنفس الثبات الذى كنت
أتحمل به قرار طبيب يفحصنى ويحكم بأننى لامحالة هالك
لمرض قتال فى القلب. لسوف يكون من واجبى، —
عند مايحكم على، ان أقاوم أولا ثورة الحيوان ثم
تأثير يأس أمى فى نفسى. على اننى وجدت في مؤلفاتك
الدواء لمثل هذه الأدواء. فاذا أنا قاومت صورة الموت
بشعور الواجب. وإذا أنا خففت من فظاعة الرؤيا
التى يمثلها حزن أمى بالاستنجاد بشرائع علم النفس التى
تحكم العواطف، فاننى استطيع أن أحظى بالهدوء النسبي،
ويكفى للوصول إلى ذلك أن أردد فى ذهنى بعض الجمل
التى خطتها يراعتك، كتلك التى وردت فى الفصل الخامس
من الجزء الثانى من مؤلفك «تشريح الارادة»، والتى
احفظها عن ظهر قلب: «ان الارتباط العام بين
الظواهر يجعل كل ظاهرة منها تحمل عبء الظواهر
الأخرى بأكملها بحيث أنه يمكن اعتبار كل جزء من
العالم، في كل لحظة، بمثابة بيان موجز لكل ماحدث
وماسوف يحدث. وعلى أساس هذا المعنى فقط يصح القول

بأن العالم أزلى فى جزئياته بقدر ماهو سرمدى فى مجموعه »

فيالها من جملة لأنها تشمل وتعزز وتؤيد الفكرة التى تقول بأن كل شىء ضرورى سواء أكان فينا أو حولنا مادمنا نحن أيضا نعد جزءا من هذا العالم الأزلى !.. واأسفاه ! لم لاتستطيع هذه الفكرة ، التى تتضح لى عند ما أفكر كما يجب أن يفكر المرء برأسه لا بأعصابه . والتى أسلم بها بكل قواى وكيانى ، أن تحطم في نوعا من الألم الخاص ، الذى يتملك فؤادى كلما تذكرت المأساة التى مررت بها ، وبعض الأعمال التى فكرت فيها وأردتها والتى تسببت فيها وان كان عن طريق غير مباشر ؟ ولكى أوضح لك الأمر بكلمة ، يا استاذى العزيز ، فانا أكرر لك ، مرة أخرى ، بأننى وان كنت لم أقتل الآنسة دى جوسا فقد اختلطت اختلاطا كبيرا بمأساة تسميمها ، واننى لاشعر بوخز الضمير فى حين ان المذاهب التى أومن بها ، والحقائق التى أعرفها ، والعقائد التى تكون مادة الفهم والذكاء عندى ، تحملنى على التسليم بأن وخز الضمير ليس إلا من أحط الأوهام البشرية . إن هذه العقائد لتعجز عن أن تجلب الى نفسى ما كنت أتمتع به من راحة اليقين . و إننى أشك كما يشك قلبى

بصحة مايسلم به عقلى ولا أظن أنه يمكن أن يوجد عذاب ، يقاسيه رجل أفنى زهرة عمره وشبابه لارضاء الشهوات العقلية ، أفظع من هذا العذاب . ولكن علام أحاول أن أعبر لك ، بألفاظ لغوية منمقة ، عن حالة عقلية أريد فى الواقع أن أبينها لك ، أنت العالم الكبير بأمراض النفس ، وأوضحها لك من جميع نواحيها لتصف لى الدواء الناجع الوحيد، بكلمة تفسر لى ما غمض على ، وتؤيد لى بأنتى لست وحشا ضاريا ، وتهدينى فى ديجور الاضطرابات التى تتخبط فيها عقائدى ، وتبرهن لى على أننى لم أخطىء منذ سنوات عدة باعتناق الايمان الجديد بشهامة الكائن المخلص ! وفى النهاية يا أستاذى العزيز ، انى أرانى تعسا جداً وفى حاجة إلى أن أصرخ تعاستى . وإلى من عسانى أن ألجأ إن لم ألجأ اليك مادمت لا أؤمل فى وجود من يفهمنى غيرك ، غيرك أنت العالم النفسانى الذى أنتمى اليه وأعتبر نفسى مريده ؟ مضى على مايقرب من شهرين فى هذا السجن فلم أشعر بأننى تمالكت نفسى وعدت إلى ما كنت عليه قبل هذه الحوادث الرهيبة إلا فى اللحظة التى عزمت فيها على تحرير هذه المذكرة اليك . ولقد حاولت أن أشغل فكرى ببعض المواضيع العقلية المجردة

لم أفلح، ولكنني تمكنت ،بفضل تلك الوسيلة ،من كتابة هذه الصفحات التي أبعث بها اليك بدون أن أثير فضولهم أو أحرك اهتمامهم إلى ما كنت أكتبه. منذ أربعة أيام وأنا لا أفكر في غير ذلك، ولا يسعني إلا أن أشكرك على هذه النعمة التي أعادت إلى قوة التفكير. ولقد وجدت كذلك بعضاً من تلك اللذة، التي كنت أشعر بها فيما مضى، عندما بدأت محاولاتي الأولى. لأنني استعدت بهذا العمل أسلوبي الهادئ القوى، وهو نفس أسلوبك. وقد رسمت بالأمس الخطة التي سأتبعها لتدوين تاريخي الحالي، واتبعت في تقسيم فصوله نفس التقسيم الذي وضعته أنت لكتاباتك. ولقد برهنت بذلك لنفسي على ثبات تفكيري وقوة ذاكرتي عندما تمكنت من سرد تاريخ حياتي منذ نشأتها كما لو كنت أحل عملية هندسية بواسطة ضم الأجسام إلى بعضها. وانى أرى الآن جلياً أن العوامل الأساسية، في النوبة التي أتألم منها، هي ماورثته أولا، ثم البيئة الفكرية التي نشأت فيها ثم الوسط الذي تجمعت فيه الحوادث وهو الذي رحلت اليه عند التحاق بأسرة جوسا راندون. لسوف أجعل من النوبة في حد ذاتها والأسئلة التي تثيرها في نفسي المادة التي تتألف منها آخر

أجزاء دراستى ، تلك الدراسة التى سأطرها من الذكريات الطفيلية التافهة ، لأجعل منها مايسميه أحد أساتذة عصرنا « القوات الخالقة » ، وقل ما يكون من وراء ذلك أننى سأقدم لك وثيقه صحيحة عن بعض وسائل الشعور التى كنت أعتقد فيما مضى بأنها ثمينة نادرة . وهكذا أكون قد برهنت لك مرتين ، بثقتى التامة فى محافظتك على السر ثم باستنجادى بمعونتك الفلسفية ، على مكانتك من الذى يكتب لك هذه السطور ، والذى يبدأ ، وهو يرجو صفحك عنه لهذه المقدمة الطويلة ، بتحليل نفسه . ولسوف أعرف كيف أحملك على الأخذ بنظريتى متى انتهيت من شرحها .

رانالى

— ١ —

مهما كان الحادث الذى أرجع إليه فى ماضى بعيداً ، فاننى ألاحظ ، ان القوة التى كانت تتسلط على وتظهر خلال جميع النوبات التى صدمتنى فى حياتى سواء أكانت هذه النوبات صغيرة أم كبيرة كما تظهر اليوم ، هى رغبتى فى الازدواج . يوجد دائماً فى نفسى شخصان متباينان : أحدهما هو الذى يروح ويجىء ويعمل ويسعر . والآخر هو الذى كان ينظر إلى الأول نظرة فضول هادئة

سواء أكان ذاهباً او آتياً او عاملا او شاعراً . ففي اللحظة التى أنا فيها الآن ، ومع علمى بأننى موجود في السجن ، واننى متهم بالجريمة العظمى ، وان شرفي قد ثلم ، واننى محزون مكروب ، واننى أنا أنا روبيرجرسلو المولود فى كلرمون فى الخامس من سبتمبر سنة ١٨٦٤ وليس غيرى ، فاننى أفكر فى هذه الحالة ، كما أفكر فى واقعة أنا غريب عنها . ثم هل يصح في هذه الحالة ، أن أعبر عن هذا الشخص بلفظة « أنا » ؟ حقيقة لا . إذ ان شخصى الحقيق ، إذا أردنا صحة التعبير ، ليس ذلك الذى يتعذب ولا ذلك الذى ينظر . فهو مركب من الاثنين معاً . ولقد أحسست بذلك إحساساً واضحاً جلياً وان كنت لم أتمكن من فهم هذا الاستعداد النفسانى المفرط ، منذ طفولتى ، تلك الطفولة التى أحاول أن أستعيد ذكراها فأمحى من ذهنى كل ما له علاقة باخلاص المؤرخ النزيه

« ان ذكرياتى الأولى تمثل لى بلدة كلرمون فران ، والمنزل الواقع على المتنزه الذى تغيرت اليوم معالمه عقب تشييد مدرسة المدفعية . وكان المنزل مبنياً كبقية منازل هذه البلدة من طوب فولفيك . وهو نوع من الطوب سنجابى اللون ، ضارب إلى السواد

فيكسب الطرقات المعوجة منظر مدينة من القرون الوسطى. وكان أبى، الذى فقدته منذ طفولتى، من مقاطعة «اللورين» ويشغل فى كلرمون وظيفة مهندس للكبارى والطرق، وكان رجلا نحيفاً معتل الصحة قل أن ينبت الشعر في لحيته، يمتزج صفاء وجهه بشىء من الكآبة ما زلت أرق لها كلما مرت بذاكرتى مع طول العهد. ما زلت أتصوره جالساً فى حجرة مكتبه المطلة على سهل ليماى الشاسع وتل كروئل القائم إلى جانبها ثم سفح جبال فوريز القاتمة. وكانت المحطة قريبة من منزلنا فيصل صفير القطارات إلى داخل تلك الحجرة الهادئة بلا انقطاع. كنت جالساً على السجادة بجوار النار ألعب صامتاً بلا حراك. فكانت أصوات الصفافير الحادة تحدث فى أعصابى، منذ ذلك العهد، تأثيراً غريباً غامضاً أشبه بزوال الساعة والحياة. وكان أبى يرسم على صبورة إشارات خفية ورسومات هندسية وقواعد جبرية واضحةالسطور والمنحنيات أوحروف الكميات الجزئية المتفرقة التى كانت تكشف عن حقيقة كيانه وحياتهالخاصة. وكان يكتب أحياناً، وهو واقف، على طاولة للرسم يفضلها على مكتبه. وهى مركبة من

لوحة عريضة من الخشب الأبيض موضوعة على قاعدتين. وكانت الكتب الرياضية المصفوفة بدقة فى خزانة الكتب ووجوه العلماء الرزينة المنقوشة أو المرسومة كل ما تزدان به جدران هذه الحجرة من نوع الزخارف مع ساعة تمثل كرة أرضية وخريطتين فلكيتين. وعلى المكتب مسطرة حسابية وبراجل ومسطرة مسطحة على شكل زاوية. انى أردد ذكرى هذه الأشياء كما أشاء وهذه الصور تساعدنى على فهم الحوادث. وتأسست فى نفسى فكرة العيش عيشاً كمالياً ونظرياً تساعد عليه بغير ما ريب بيئتى الوراثية. وقد حملنى التفكير فيما مضى على أن أتأكد أن كثيرا من مزايا خلقى تعد نتيجة طبيعية لما ورثته عن تلك المعيشة التى كان يعيشها أبى فى دراسة المواضيع المجردة. وانى أقدم مثلا على ذلك:

وكنت أشعر دائماً بكراهية عجيبة نحو العمل مهما كان بسيطا بحيث كنت أشعر بقلبى يخفق وينبض بسرعة لمجرد التفكير فى أداء زيارة عادية. وكنت أنفر كذلك من الرياضة البدنية وحركاتها المملة وأتحاشى أن أشتبك فى جدل مع أى شخص حتى للدفاع عن أفكارى التى أعزها وأجلها. وإنى ليخيل إلى

حتى اليوم أن مثل هذا الجدل يكاد يكون مستحيلا .
وتلك الكراهية نحو العمل تعلل بأنها نتيجة طبيعية
لاجهاد الفكر لأن مثل هذا الاجهاد إذا اشتدت وطأته
فانه يعزل الرجل فى وسط الحقائق فلا يحسن احتمالها
لأنه ليس على اتصال بها . وإنى لأشعر الآن بأننى أخذت
عن أبى المسكين ما ألقاه من صعوبة الاندماج بالواقع
كما أخذت عنه أيضاً ملكة التعميم التى تميز قوة التفكير
عندى واختلاله وكذلك تأثير الجهاد العصبي ذلك التأثير
المريض الذى شرد بآرائى شروداً جنونيا في بعض الأحيان.
ومات أبى حدث السن مما يدل على أنه لم يكن قوى
البنية فلا بد انه تأثر عند بلوغه سن الرشد من الجهود
التى بذلها للالتحاق بمدرسة الهندسة وهى جهود مضنية
للصحة . وكان هذا العالم ضيق المنكبين ضعيف الأعضاء
لانقطاعه عن الحركة واستسلامه للتفكير والتأملات ،
هزيل اليدين حتى ليظهر أنه كان يحمل فى عروقه قليلا
من مسحوق الطباشير الذى طالما استعمله بدلا من
كويرات الدم الأحمر الكريم . لم يخلف لى عضلات
قوية تستطيع أن تقاوم ثورة أعصابى وهياجها بحيث
أرانى مدينا له بشهوة مفرطة جامحة إلى جانب عاطفة

الخمول والجمود التي كانت تحول دون قيامي بأقل حركة. ففي كل مرة كنت أشعر بالرغبة الحادة كان يستحيل على أن أكبح جماح تلك الشهوة. لقد طالما تردد على ذهني، وأنا أحلل نفسي، هذا الفرض: وهو أن الطبائع المتجردة أضعف من غيرها على مقاومة الشهوة إذا استيقظت تلك الشهوة. وربما كان السبب في ذلك أن الصلة اليومية بين العمل والفكرة قد تحطمت بينهما، والمتعصبون خير مثل يضرب لذلك. وهكذا فانني رأيت أبي، وهو بطبيعته صبور هادىء، يحتدم ويشتد به الغضب إلى حد الجنون حتى ليكاد يفقد وعيه. وانى أرانى من هذه الناحية نعم الخلف كما أرانى من سليل قل توازنه العقلى فهو من فئة أولئك الرجال العباقرة الذين يعيشون بالفطرة. ومع أنه كان مزارعا إلا أنه توصل إلى اقتناء ثروة من اعماله الهندسية ثم فقدها في المنازعات والدعاوى. فسلالتى من هذه الناحية عنصر خطر يثور وينفجر من وقت لآخر إلى جانب ما يمتاز به من الذكاء وقوة الادراك. ولقد نظرت فيما مضى إلى هذه الطبيعة المزدوجة، المؤلفة من نوبات الشهوة المقرونة بنشاط مستمر في التفكير المتجرد، باعتبار أنها حالة خاصة سامية. ولطالما تمنيت أن أكون

محموما وصافي الذهن معا ، وأن أكون فى وقت واحد ذلك الشخص المفكر والفكرة التى يعمل على تحليلها فأجد، فى هذا النوع من الدراسة ، وسيلة للسمو والتبحر في العلوم والمعارف . واأسفاه ! أين قادنى هذا الوهم الباطل ؟ ولكن ليست الساعة ساعة التحدث عن النتائج فما زلنا نتكلم عن الأسباب .

و انني اعتقد أن من أهم العوامل التى أثرت على منذ طفولتى ما يأتى : ما كدت أتعلم القراءة حتى كانت أمى تستصحبنى معها إلى القداس صباح كل يوم أحد . وكان يحتفل بهــذا القداس في الساعة الثامنة فى كنيسة الكابوشيين التى شيدت منذ عهد قريب فى شارع ، غرست على جانبيه أشجار الدلب ، يوصل بين مدرسة سابلون وساحة النور في محاذاة حديقة النباتات . وكانت تجلس عند باب هذه الكنيسة بائعة فطائر تدعى الام جيرار كنت أعرفها جيدا لأننى كنت أشترى منها فى الربيع عصياً صغيرة ربطت بها أربعة أو خمسة حبوب من الكرز بخيط أبيض . تلك كانت أول أنواع الفواكه التى كنت آكلها فى هذا الفصل . وكانت هذه الثمار الطازجة الحامضة إحدى شهوات عهد الطفولة . وقد كان يمكن أن تعتبر

فى نظر من أراد أن يدرسنى سببا للحكم على بوجود تلك الشهوة الجامحة التى حدثتك عنها فى نفسى ، فقد كنت أسير نحو هذا الحانوت كالمحموم . ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد الذى جعلنى أفضل كنيسة الكابوشين بزخرفها البسيط على نواويس نتردام دى بورى الارضية وقباب الكاتدرائية القائمة على عمد فاخرة أنيقة . وكان مكان الخوروس عند الكابوشين مستترا ، فكانت الأناشيد والألحان أثناء الصلاة تصل إلى السمع من أفواه خفية مختبئة خلف الحواجز فتثير مخيلتى . فكان يخيل الى أن هذه الألحان آتية من مكان بعيد ناء وخارجة من جب سحيق أو قبر . وكنت أنظر إلى أمى وهى تصلى إلى جانبى بتلك الحدة التى كانت تميزها فى أقل أعمالها ، وأفكر في أن أبى ليس هناك وأنه لايأتى الى الكنيسة أبدا ، فقلقت طفولتى من هذا الغياب إلى حد أننى سألت يوما :

— ولم لايرافقنى أبى إلى القداس ؟ »

« ولم يصعب على عينى الصغيرتين النقادتين أن أقف على الارتباك الذى أحدثه سؤالى فى أمى . على أنها مع ذلك قد تخلصت بأجابة شبيهة بالأجوبة العديدة السابقة

التى كانت تفوه بها شفتا المرأة الشغوفة بالمبادىء الثابتة وحب الطاعة :

ــ لأنه يستمع إلى قداس آخر فى حينه . ثم اننى طالما قلت لك إنه لايجب على الأبناء أن يسألوا لماذا يفعل آباؤهم هـذا الشىء أو ذاك ... »

« لقد كانت هذه الجملة التى نطقت بها أمى ، إذ كنا نسير عائدين تحت أشجار مدرسة سابلون فى صبيحة يوم بارد من أيام الشتاء ، تعبر بجلاء عن السبب الذى فرق بين نفس أمى ونفسى . مازلت أذكر الى الآن معطفها ويديهـا المختبئتين داخل فراء مبطن بالحرير القاتم بحيث لا يرى إلا جزء من كتاب الصـلاة الذى كانت تحمله . وأتخيل الصراحة البادية على وجهها وهى تـكذب على تلك الـكذبة الطاهرة ، إذ كانت تقول : « لايجب أبدا أن تسأل لـماذا ... » مازلت أرى عينيها اللتين أخذتا تلقيان على ، منذ ذلك العهد ، نظرات لاتفهمنى ، وهى منذ ذلك العهد لا تشك فى شىء من طبيعة الطفولة المفـكرة التى كانت تثير فى نفسى دائما نزعة السؤال عن كل شىء ولأى سبب : لماذا ؟ . أجل لماذا خدعتنى امى ؟ فقد كنت أعلم أن أبى لم يتردد

مطلقا على الكنيسة . ولماذا كان لايذهب ؟ ..

كانت أصوات الكهنة المختبئة تردد ألحان القداس بينما كنت أنا شارد الفكر فى دياجير هذا السؤال . لقد كنت أعلم ، دون أن أقدر أسباب هذا التميز ، أن أبى كان يعد من البارزين من سكان المدينة . فكثيرا ما اوقفنا بعض أصدقائه فى الطريق ، إذ كنت أسير إلى جانبه ، فيداعبنى أحدهم ويربت بيده على خدى قائلا : « إيه . لسوف تصبح عالما كبيرا كأبيك ؟ » وعند ما كانت تستشيره أمى فى أمر فانها كانت تصغى اليه باحترام غريزى . ولذلك فانها كانت تعتبر عدم قيامه ببعض الأعمال أمرا طبيعيا فى حين أن قيامنا بها يعد واجبا ضروريا . لقد كانت واجباته تختلف عن واجباتنا . لم تتخذ هذه الفكرة شكلا خاصاً في رأسى الصغير ولم تتجل فيه بوضوح فى ذلك الوقت ، ولكنها غرست فيه البذور لما سيكون أحدى العقائد التى سأومن بها فى شبابى : وهى ان الرجال الأذكياء لا يحكمون بنفس القواعد التى يحكم بها غيرهم . هناك ، فى هـــذه الكنيسة الصغيرة ، واذ كنت منكبا على كتاب الصلاة ، نبت فى فؤادى ذلك المبدأ العظيم الذى جنيت ثماره فى

مستهل حياتى : وهو أن المفكرين أمثالنا لا يجب عليهم أن يستسلموا للشرائع التى يحكم بها غير المفكرين ولا يسلموا بها أو يطبقوها على أنفسهم . وكنت كذلك أرافق والدى إلى النزهة فوقفت خلال محادثاتى وإياه ، وأنا فى تلك السن الصغيرة ، على أولى المبادىء العلمية التى بنيت عليها نظرتى إلى هذا العالم وكونت عقيدتى فيه . . .

« وكانت المزارع المحيطة ببلدة كلرمون بديعة . ومع انى كنت من أولئك الذين لا يهتمون لمظاهر الحياة إلا قليلا إلا أنى احتفظت في مخيلتى بصورة الآفاق التى كانت تحيط بتلك المتنزهات ومنظرها الرائع . وكانت المدينة تطل من إحدى نواحيها على سهل ليمانى وتلتصق من الناحية الأخرى بسفح آخر حلقة من سلسلة جبال الدوم . وكان النتوء البارز من فوهات البراكين الخامدة وثوراتها الهادئة وسيل الحمم المتحجرة تكسب تلك الجبال البركانية شبها بتلك البقاع التى يكشف عنها التلسكوب فى تلك الكتلة الجامدة والجثة الهامدة المسماة بالقمر . فهناك ذكرى موحشة لأفظع اختلاجات الكرة ، وهنا أجمل مناظر الخشونة مجسمة فى تلك الطرقات الوعرة التى تخترق الكروم والينابيع التى تنساب بين أشجار

الكستنة والصفصاف . ولقد كانت سعادة طفولتى تتجلى فى التجول بصحبة أبى فى الطرقات من كشبان كروئيل إلى جرجوفي، ومن روايا إلى دورتيل، ومن بومون إلى جرافنوار . وإنى لأشعر بمجرد كتابة هذه الأسماء أن ذاكرتى تعيد إلى قلبي طفولتـه فأرانى ذلك الطفل الذى تمثله الصورة الفوتوغرافية التى احتفظت بها سائر إلى جانب أبى وأنا مسترسل الشعور ملفوف الساقين . من أين جاء هذا العالم الرياضى ورجل العمل والأفكار المجردة بهذا الميل إلى المزارع ؟ لقد طالما فكرت في هذا الأمر منذ ذلك العهد وأظنى اكتشفت ، بهذه المناسبة ، مذهباً قليل الانتشار ، عن نمو العقول : وهو أن ميولنـا فى سنى حداثتنا تلازمنا حتى فى حالة اتجاهنا فى طريقة مخالفة لها وأننا نواظب على اتباعها معللين ذلك بأسباب عقلية تنفى وجودها ـ دعنى أفسر لك . من الطبعى أن أبى كان يحب المزارع لأنه نشأ فى قرية . وانه ، إذ كان طفلا ، قضى أياماً بطولها عند حافة الجداول والأنهار بين الحشرات والأزهار . وبدلا من أن يستسلم إلى ميوله بطريقة بسيطة فانه كان يمزج بها مشاغله الحالية بصفته عالماً . وأنه ما كان ليغتفر لنفسه أن يذهب إلى

الجبل لمجرد النزهة دون أن يدرس طبيعة الأرض . وأن ينظر إلى زهرة دون تحديد أوصافها واكتشاف اسمها . وأن يلتقط حشرة دون أن يتذكر طائفتها وعاداتها . ولقد توصل هكذا ، بفضل طريقته الدقيقة فى كل عمل يقوم به ، إلى الوقوف على جميع خفايا القرية . فكنا إذا سرنا معاً ، لانطرق غير هذا الحديث ولا نتكلم في غير هذا الموضوع . وكان يتخذ الكلام عن القرية الجبلية وسيلة ليتطرق منه إلى الحديث عن الأرض فيشرح لى تقلباتها ثم ينتقل بحديثه ، بغير ماعناء أو اجهاد ، وبألفاظ جلية واضحة ، إلى التكلم عن فرض لابلاس عن النجمة السديمية ، فاتمثل فى مخيلتى بجلاء كيف كانت تنوء الكواكب السيارة تتخلص من النواة الملتهبة أعنى من الشمس فى دورانها . وكانت سماء الليل فى شهور الصيف الجبلية تتحول إلى خريطة فيرشد عينى ، وهما لما تبلغان العاشرة ، إلى ما فيها ، فكنت أميز نجمة القطب وبنات النعش السبع والنسر الواقع والأبرق وجميع هذه العوالم الهائلة التى لاتدرك والتى يعرف العلم حجمها ومكانها وكذلك معدنها . وهكذا كانت الحال عن الأزهار التى كان يدربنى على تنظيمها . والحصا الذى

كنت أكسره تحت إشرافه بواسطة مطرقة صغيرة من الحديد. والحشرات التى كنت أطعمها أو أثيرها تبعاً للظروف. وقبل أن تتبع المدارس برنامج تدريس هذه الأشياء بعهد بعيد، كان أبى قد طبق على تعليمى الأولى مبدأه العظيم وحكمته السامية: «لا تصادف شيئاً وتتركه قبل أن تدرسه علمياً». وهكذا كان يوفق بين مشاعره الأولى الساذجة وبين دقة البحث التى اكتسبها من دراساته الرياضية. وإنى أنسب إلى هذه الطريقة فى تعليمى السبب فى وجود ملكة التحليل فى نفسى ونضوجها منذ نعومة أظفارى وربما اتجهت هذه الملكة إلى دراسة الحقائق الثابتة لو ظل أبى حياً. على أنه لم يقدر له اتمام تلك التربية التى بدأها طبقاً لخطة كان قد وضعها بعد دراستها درساً محكما وعثرت على أثرها ضمن أوراقه. وحدث فعلا، خلال إحدى نزهاتنا وفى صيف السنة العاشرة من عمرى، أن فوجئنا معاً بعاصفة بللت ثيابنا حتى أغرقتها، وأصيب أبى ببرد شديد أثناء عودتنا بتلك الثياب المبللة، وشعر فى المساء بقشعريرة، وانتابته بعد يومين نزلة شعبية ومات فى الأسبوع التالى.»

«لقد طالما وددت أن أتحاشى، قدر الامكان، فى

هذا البيان الذى أوجز فيه مختلف الأسباب التى كونت نفسى وأنا فتى ، ذكر أكره شىء إلى فى الحياة وهو ابداء العواطف النفسانيـة والتظاهر بها ، ولذلك فلن أقص عليك ، ياأستاذى العزيز ، غير تلك التفاصيل عن موته ، إذ أن فى غيرها ما هو مؤلم للغـاية . ولـكننى لم أشعر بوطأة تأثيرها على نفسى إلا عن بعد وبعد انقضاء عهد طويل . وأذكر اننى ، وإن كنت فى ذلك العهد فتى يافعاً ، قد شعرت بأن ما ألم بى من الدهشة كان أكثر مما ألم بى من الحزن والشجن . واننى آسف اليوم فقط على فقد والدى ، وأدرك مقدار ماخسرته بفقده . أظننى قد أوضحت لك بجلاء ما أنا مدين به لوالدى من الميول وسهولة التجريد والانشغال بالأعمال التى تتطلب تحكيم العقل والتفـكير والأيمان بالعلوم وحسن تطبيق القواعد . هذا فيما يتعلق بالعقل . أما فيما يتعلق بالأخلاق فقـد اكتسبت أول مبادىء الأنانية فى التفـكير وكذلك قليل من عناصر المرض وصعوبة الأقدام والتنفيذ التى تنشأ عنها صعوبة مقاومة الشهوات إذا هى أثرت فيك وقذفت بك فى لجتها . ـــ واننى أريد أن أوضح أيضا ما أعتقد أننى مدين به لأمى . فأول ما ألاحظه من هذه الناحية

أن هذا التأثير الثانى كان يفعل في عن طريق غير مباشر فى حين أن الأول كان يؤثر فى مباشرة . والحقيقة أن هذا التأثير لم يبدأ إلا عند ما ترملت أمى وأرادت أن تتولى بنفسها العناية بى بعد أن كانت ، حتى ذلك الحين ، قد تركت لأبى أمر العناية بتربيتى . ومما يدعو إلى الغرابة والدهشة أن نصبح وحيدين فى هـذه الحياة ، ومع ذلك لا يتفق قلبانا اتفاقا كليا تاماً مع ما كانت عليه أمى من قوة الأرادة وشدة العزيمة وما كنت عليه أنا من صغر السن وحداثة العهد بالحياة . فى الواقع توجد لعلم النفس مبادىء أولية تفسر لفظتى الأم والأبن بمعنى حنان مطلق وتفاهم عميق بين النفوس . وربما تم ذلك فى الأسر القديمة التالدة وإن كنت فيما يتعلق بالطبيعة البشرية قليل الاعتقاد بصحة مايسلم به البعض من احتمال وجود علاقات تقوم على السذاجة وسلامة النيـة بين أشخاص تباينت أعمارهم واختلفت أجناسهم . وعلى كل حال فان الأسر العصرية تقدم لنا ، تحت ستار الواجبات المصطلحة ، أشد وأقسى ظواهر الطلاق المستتر الخفى والشقاق المالى وأحياناً الضغينة والحقد . وجميع هـذه الظواهر لا يتعذر فهمها إذا ما فكرنا فى مسبباتها

ومنشئها . لقد طالما امتزجت العناصر بيعضها البعض منذ مائة عام من قرية الى قرية ومن جنس الى جنس حتى غيرت دماءنا جميعاً عن طريق الوراثات المتناقضة المتباينة . فمن الأشخاص من هم من أسرة واحدة ولكنهم يختلفون تماماً في تكوينهم العقلى والخلق . ولاشك فى أن هذه العلاقة المتينة المستمرة بين هؤلاء الأشخاص ستصبح ، مع تعاقب الأيام ، سبباً فى فتن يومية أو مظاهر كاذبة مستمرة . وفى استطاعتى أن أقول إنى وأمى نعد خير مثال على ذلك لو أن اللذة التي يشعر بها كل من يكتشف دليلا بيناً جديداً على صحة احدى قواعد علم النفس ظلت سليمة لا يشوبها نوع من الأسف العميق إذ يرى المكتشف نفسه ضحية لاكتشافه .

« وكان أبى ـ كما أسلفت لك ـ من خريجى مدرسة الهندسة وابن مهندس ، وقد أوضحت لك أيضاً أنهما كانا من مقاطعة اللورين وهناك مثل شائع يقول : ان اللورينى خائن لمليكه ولله أيضاً . »

« إن هذا الفزع يؤيد ـ بشكل قاس ظالم ـ صحة تلك الملاحظة التى تقول بأن نفوس سكان الحدود مركبة تركيباً مزدوجاً . فقد كانت حياة سكان اللورين مضطربة

تتقاذفها مدنيتان مختلفتان ويعبث بها عنصران متباينان : العنصر الجرمانى والعنصر الفرنسى . وفضلا عن ذلك فان لذة الخيانة والضرر لاتخرج عن كونها فساد لذة أخرى، هي اضطراب الشعور وإن كانت تلك اللذة تعد غريبة مدهشة من حيث الادراك والفهم . أما من ناحيتى فانني أنسب الى الوراثة قوة الازدواج التى كنت أتكلم عنها فى بدء هذا التحليل ، ويجدر بى أن أضيف انى طالما شعرت وأنا طفل بلذة غريبة فى التظاهر البرىء هى بلاشك من نوع هذا المبدأ . فقد صادفنى أن كنت أقص على زملائى بيانات شتى ، غير صحيحة ، عن نفسى وعن مسقط رأسى ومسقط رأس أبى وعن نزهة قمت بها ، وما كان ذلك لأفتخر ، ولكن لكى أظهر أمامهم بمظهر شخص آخر ليس إلا . ولقد تذوقت فيما بعد طعم شهوات عجيبة فى بسط آراء تتعارض تماماً مع ما كنت أعتقد بأنه الحقيقة ، وما كان ذلك إلا لنفس ذلك السبب الغريب. ولما كنت أشعر بغريزتى أن التخصيص في الأخلاق والعقيدة والميول ليس إلا تحديداً . لذلك كنت أجد لذة فى تمثيل دور آخر الى جانب طبيعتى الحقيقية ، وأرى فى ذلك إثراء لشخصى . أما أمى فهى امرأة من سكان

الجنوب متمردة على كل ماهو مركب، ولاتسلم إلا بصحة ماتصوره الذهن . فصور الحياة تتمثل فى مخيلتها حائرة واضحة بسيطة . فاذا فكرت فى الدين تمثلت كنيستها وكرسى اعترافها وسماط القربان وجماعة الكهنة الذين عرفتهم وكتاب التعليم المسيحى الذى درسته وهى طفلة . وإذا فكرت فى عمل نظرت إلى الجهود الفعلية التى يتطلبها والربح الحقيق الذى ينجم عنه . فمهنة التدريس التى طالما رغبت فى أن أعتنقها كانت مجسمة لها فى شخص المسيو لباسيه أستاذ الرياضيات وصديق أبى . فكانت ترانى شبيهاً به ، أخترق المدينة مرتين فى اليوم ، فأرتدى صيفاً سترة من صوف الباغا وقبعة من القش ، وشتاء أستر قدمى بقبقاب وجسمى بمعطف من الفرو وأتقاضى أجراً ضئيلا ثم أنعم بمعاش طيب . وقد تمكنت أن أدرس بواسطتها إلى أى حد تشل هذه الطبيعة الخيالية حركة من تسيطر عليهم فيعجزون دون إدراك ما يخالج بواطن النفوس الأخرى . وكثيراً ما يقال عن أمثال هذه الجماعة إنهم مستبدون أنانيون أو أن أخلاقهم سيئة فاسدة . والحقيقة أنهم يقفون أمام من يعاشرونهم كما يقف الطفل أمام الساعة . فالطفل يرى

العقارب تدور ولكنه لا يعرف شيئاً عن مجموع الآلات المستترة التى تسيرها وتديرها . فاذا امتنعت العقارب عن طاعته والسير كرغبته فليس ما يحول بين هياج الطفل وتخريب محركات الساعة إلا ما يحتاج اليه من الوقت لاستثارة غضبه وثورته .

« وهكذا تصرفت أمى معى منذ الأسبوع التالى لمصابنا المشترك . فأصبحت ، كلما وقفت بها ، أشعر بأننى أتخبط فى حالة من الانقباض لا يمكن التعبير عنها ، ودون أن توجد لهذا الانقباض واقعة معينة تحدده أو تبين أسبابه . وأول فرصة سنحت وتبينت منها بدء الانفصال بين روحينا ، بقدر ما كان يمكن أن يتبينه رأسى الصغير ، وقعت بعد ظهر أحد أيام الربيع بعد مرور أربعة أشهر على وفاة أبى . وكان تأثير الصدمة التى أصابتنى عنيفاً إلى حد أننى ما زلت أذكرها الآن كما لو كانت أصابتنى أمس . كنا قد اضطررنا إلى الانتقال إلى سكن آخر . فاستأجرنا لذلك الدور الثالث من منزل قائم على مرتفع فى شارع بيليار ، وهو طريق ضيق بجوار قصر العمدة . وقد رغبت أمى فى اختيار هذا السكن لوجود شرفة فيه ، وهى الشرفة التى كنت ألعب عليها

بعد ظهر ذلك اليوم . ولسوف تعلم ، عند الوقوف على اللعبة التي كنت ألهو بها ، مدى تربيـة أبي لمخيلتي والطابع الذي ميزها به . كنت أحمل حجراً صغيراً ، وهو يمثل في نظري أحد المكتشفين العظام ، وأنقله بين أحجار أخرى التقطتها من أصص الازهار الموضوعة بالشرفة . وكان بعض تلك الأحجار يمثل لي بلادا والبعض الآخر يمثل حيوانات غريبة قرأت أوصافها . وكانت احدى النوافذ تطل على هذه الشرفة . وكانت الشرفة مفتوحة . ووصلت أثناء لعبي الى جانب تلك النافذة ، فسمعت أمي تتحدث مع زائرة عني فلم أتمالك نفسي عن الاصغاء . وكان قلبي يدق متأثرا بفكرة أن شخصي كان موضع حكم الآخرين . ولقد فهمت فيما بعد انه لاتوجـد من العلاقة بين شخصنا الحقيقي وبين التأثير الذي يحدثه فينا أقرب الناس الينا حتى اصدقائنا اكثر مما يوجد بين لون وجهنا وبين انعكاس هذا اللون في مرآة زرقاء او خضراء او صفراء .

وقالت الزائرة :

— ربما كنت مخطئة في حق روبير المسكين . فقي سن العاشرة قل أن يكون الطفل كامل النمو ! ،

فاستطردت أمى :

ـ عسى الله أن يحقق ظنك . ولكننى أخشى أن يكون عديم الشعور جاحد القلب . أنت لاتتصورين إلى أى حد كان قاسياً عند وفاة أبيه . . . فنى اليوم التالى كان يخيل إلى أنه لم يعد يفكر فيه . . . ومنذ ذلك الوقت لم ينطق بكلمة واحدة . . . إحدى تلك الكلمات التى تدل على أنه يتذكر شخصاً . . . وعند ما أتحدث اليه عن أبيه فقلما يجيبنى . . . حتى ليخيل إلى أنه لم يعرف ذلك الراحل العزيز الذى طالما أحبه وكان طيب القلب نحوه . . . »

« لقد قرأت فيما قرأت أن والدة الكاتب مريميه عنفته يوماً ، إذ كان حدث السن، ثم طردته من الحجرة ؛ ولم يكد أن يتوارى عن نظرها حتى قهقهت ضاحكة ، فأدرك إذ ذاك كيف هزأوا به ، ومثلوا أمامه دور الحدة والهياج . وشعر بموجة من اليأس وقلة الثقة تجتاح فؤاده ولم تهدأ ثورتها مطلقاً . ولقد تأثرت كثيراً عند قراءتى لتلك النكتة وأدركت أن هناك شبها مدهشا ، بين ما أصاب الكاتب الشهير من الانفعال النفسانى ، وبين ما وقع لى من تأثير الحديث الذى سمعته . حقاً بأننى كنت لا أتكلم عن أبى بتاتاً ولكن من الخطأ الفاحش والمين

البين أن يقال بأنى قد نسيته ! لقد كنت أفكر فيه بلا انقطاع . وما كنت أسير على إفريز، ولا أقطع طريقاً، ولا ألقى نظرة على قطعة من أثاث المنزل، إلا وساورتنى ذكرى الميت إلى حد الألم . وإلى جانب هذه الذكرى المؤلمة، كنت أشعر بدهشة مخيفة إذ كنت أفكر فى أنه قد اختفى إلى الأبد، فتمتزج كل هذه العوامل النفسانية وتتضارب في مخيلتى فتحدث فى نفسى نوعا من الفزع المقلق الذى كان يكم فمى، ويعقل لسانى، ويخرسنى عن الكلام، عند ما كانوا يتحدثون إلى عنه . وإننى لأدرك الآن جيداً أنه كان يتعذر على أمى أن تعلم حقيقة الفكرة التى كانت تساور ذهنى وما كانت تحدثه من التأثير فى نفسى .
فما كدت أسمع حكمها على قلبى بمثل هذه القسوة حتى شعرت بإهانة عميقة وخيل إلى أنها عند ما تكلمت بمثل هذه اللهجة كانت لا تعاملنى بما كان يجب أن تعاملنى به وأنها ظلمتنى، فثرت ثورة طفل لم تروض طبيعته فظل مستوحشاً، وبدلا من أن أفضى إليها بما يزيل هذا الأثر من نفسها ويغير عقيدتها انكمشت على نفسى فى مكانى وثرت على هذا الظلم الصارخ البين . ونشأت منذ تلك اللحظة فى نفسى فكرة استحالة التفاهم معها وشعرت كذلك بأنى سوف

أشعر بدافع قوى يحملنى على التكتم وإخفاء خبيئة نفسى كلما وقع نظرها على نظرى.

« تلك كانت أول مشادة بيننا ، إذا صح التعبير عما حدث بمثل هذا اللفظ .

« وقد أعقبها موقف آخر أورده على الرغم من ظاهره البسيط التافه، إذ أنه لا يمكن الحكم على الأطفال بالطفولة إن لم تكن الحوادث الهامة التى ترتبط بأحساسهم بسيطة تافهة. كنت في ذلك العهد مولعاً بالقراءة؛ وشاءت المصادفة أن تضع فى متناول يدى كتباً تختلف تماما عن الكتب التى كانت توزع فى الحفلات الدراسية، والسبب فى ذلك أن أبى، وإن كان مضطلعا ومتخصصا في العلوم الرياضية وقليل الميل الى الآداب ، فانه كان يميل إلى بعض الكتاب ويفهمهم على حسب طريقته ولقد استطعت فيما بعد أن أحكم، من بعض ملاحظات دونها عن هؤلاء الكتاب ، أن الأحساس بالأدبيات يعد من المشاعر الشخصية المتأصلة فى النفس بحيث لا يمكن الاستعاضة عنها بسواها ولا قياسها بغيرها — أى أنه لا يوجد قياس مشترك بين الأسباب التى تجعل اثنين معاً يتذوقان كاتبا واحدا أو يمجانه . وبين الكتب التى كان يمتلكها أبى في

مكتبته توجد ترجمة لشكسبير فى مجلدين كانوا يجلسوننى
عليهما أمام المائدة بعد إذ أزف الوقت لأهجر مقعد الطفولة.
ومرت الأيام فتركونى، بغير ما عمد، أقلب صفحات
هذين المجلدين وأشاهد الرسوم. ولم تلبث تلك الرسوم
أن أثارت فضولى فانتقلت منها الى قراءة بعض النصوص
المدونة تحتها. فقرأت عن اللادى ما كبث وهى تحك
أصابعها تحت نظرات الذعر التى كان يلقيها الطبيب والخادم،
وعن عطيل وهو داخل الى حجرة ديدمونة شاهراً
خنجره ومائلا بوجهه الأسود على جثتها البيضاء الممددة.
وعن الملك اير وهو يمزق ملابسه تحت بريق الصواعق.
وريشار الثالث راقداً فى خيمته تحيط به الأشباح.
وانتقلت من تلك النصوص الى قراءة كثير من الأجزاء
الى حد أننى، ولما أبلغ العاشرة من عمرى، قد أصبحت
ملماً إلماماً تاماً بتفاصيل تلك المآسى التى كانت تثير
مخيلتى بما كنت أستطيع أن أفهمه منها. ولاشك أن ذلك
يرجع الى أن هذه المآسى قد ألفت خصيصاً لتمثل أمام
جماهير من الشعب وأنها تتضمن عنصراً من الشعر الفطرى
لايتناسب مع مدارك الطفولة. وقد كنت أحب أن
أتمثل هؤلاء الملوك وأستعرضهم أمام نظرى، وأتخيلهم

مغتبطين أو يائسين ، يسيرون في طليعة جيوشهم وهم ظافرون أو مهزومون . كما كنت أحب تلك المذابح التى تتخللها أصوات الأبواق الحربيـة والطبول والأعلام المرفوعـــة أو المنكسة ، والمناظر الرهيبة المستفزة ، والانتقالات السريعة من بلد الى آخر ، والأوصاف الجغرافية الوهمية . وبالاجمال كنت أقف مسحوراً بما فى تلك القطع من الايجاز الملم بسير هؤلاء الأشخاص وتاريخهم العجيب . فكنت ، اذا ما انفردت الى نفسى ، أستعين بالمقاعد لتمثيل تلك الأدوار . . . فكان كل مقعد يمثل فى نظرى أحد هؤلاء الأشخاص . فهذا يورك وذاك لانكاستراو واروبك أو جلوسستر . ياللطفولة الساذجة ! . . . وكان أبى يشمئز من الحقائق المؤلمة التى تنطوى عليها الحياة ، ولذلك فانه كان يرتاح الى مافى شكسبير من العناصر البريئة المؤثرة ويميل الى مواقف النساء الرقيقة فيسر لشخصيات أيموجين وديدمونة وكورديليا وروزاليند ، وإن كانت تلك الشخصيات فى ظاهرها غريبة أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة . حقاً إن وجود مثل هـذه المتناقضات يؤيد نظرية عدم التناسب والتباين في الأحكام التى يصدرها الفنيون على تأثير الشعور

والعاطفة . . . وكنت ، الى جانب هذه الكتب ، أقرأ
مؤلفات ولترسكوت وقصص جورج ساند وكلها محلاة
بالصور . وإنني أعترف أنه كان خير لى ألا أغذى مخيلتى
بمثل هـذه المواد المتناقضة التى لاتخلو من بعض الخطر
والتأثير السيء . لاسيما على من كان فى سنى فانه لايفهم
منها إلا شذرات ضئيلة، فقد كان يعوزنى من ألجأ اليه
وأستعين به على حل رموزها والوقوف على حقيقـة
أغراضها لأن تأثيرها على كان عكسياً وضررها أكثر
من نفعها . فأبى ، فى انهماكه أمام لوحته السوداء واشتغاله
فى إيجاد المواضيع الرياضية أوحلهـا ، كان بعيدا عن
هـذا العالم سابحاً في الفضاء اللانهائى طائراً على أجنحة
شيطان التجرد المستبد فلايهتم لمايدور حوله، وإن الصاعقة
كانت لتنقض على المنزل وتقوض أركانه بدون أن
يشعر بسقوطها . وكانت أمى من جانبها تجهل تأثير هذا
الشيطان جهلها لتنين الأبوكاليبسيس المخيف . ولذلك
فانهـا ما كادت تثوب الى رشدها وتسترد شعورها
وحواسها عقب الصدمة التى أصابتنا وساعات اليأس
التى مرت بنا حتى أخذت تنقب في أركان الحجرة التى
كنت أدرس فيها فعثرت على كتاب ضخم مفتوح : هو

كتاب « ايفانوهيه » لولتر سكوت . فسألتني :

ــ « ماهذا الكتاب ؟ ومن أذن لك بأخذه ؟ . . . »

فأجبتها :

ــ « ولكنني قرأته مرة قبل ذلك ؟ »

وأخذت تنقب فى خزانة الكتب الصغيرة التى كانت تضم ، الى جانب كتبي المدرسية والى جانب مؤلفات شكسبير ، مؤلفات أخرى كأنباء جنيف ونيقولا نيكلباى وروب روى وبركة الشيطان . ثم استطردت حديثها بالحاح

ــ « وتلك ؟ أن هذه الكتب ليست لمن كان فى سنك . ويسرنى أن تحملها معى الى حجرة الاستقبال لوضعها فى مكتبة أبيك . »

« وانى أرانى وأنا أحمل هذه المجلدات ثلاثة بعد ثلاثة على ذراعى الصغيرتين وأنقلها الى الحجرة الباردة المكتظة بالأثاث والوسائد والمطلة على الشرفة . وهى نفس الحجرة التى سمعت منها أمى ، منذ أيام خلت ، تنطق بحكمها القاسى على قلبي . فكانت تتناول هذه المجلدات بأصابعها البيضاء البارزة من بين أطراف ثوبها الأسود وتضعها بنظام الى جانب المؤلفات الرياضية الضخمة . ثم أوصدت باب المكتبة الزجاجى وانتزعت مفتاحها وضمته الى مجموعة

المفاتيح التي كانت لاتفارقها أبداً . ثم خاطبتني بشدة
ـ « اذا مارغبت فى قراءة كتاب فاطلبه منى . »
« أنا ، أطلب منها أحد هذه الكتب ! . . . ولكن
أيها ؟ لقد كنت أعلم جيداً أنها سترفض أن تسمح لى
بجميع ما أميل الى قراءته من تلك الكتب التى كنت
أتردد على الحجرة للاطلاع على اسمها من خلف زجاج
المكتبة ! لقد كنت على ثقة تامة من أننا لانتفق معاً فى
التفكير فى أى موضوع ولن نتفق على ذلك مطلقاً .
لحقدت عليها لأنها وقفت في سبيلى وحالت بينى وبين
أعز أمانى وأحب رغبانى ، وهى المطالعة . على أن حقدى عليها
لهذا السبب كان أقل من حقدى عليها للأسباب التى أبدتها لى
وبنت عليها تصرفها معى لأنها رأت ، لتعزيز نظريتها ، أن
الواجب يدعوها إلى الاستعانة ببعض كتب الصلاة
واستعادة بعض ما جاء فيها عن خطر القصص وتأثيرها
السيء فتأكدت فى الحال أن ما أوردته يتناقض تماما
مع اختباراتى الشخصية . ثم إنها تذرعت بالخطر الذى
لحق بى من جراء تلك المطالعات الطائشة لتهتم بشؤون
تربيتى وتراقب دراستى بحرص وانتباه . لقد كان ذلك
من واجباتها ، ولكن البون كان شاسعا بين الأفكار التى

نفثها أبى فى نفسى ورسخت فى ذهنى الناضج مع حداثة
سنى ، وبين بؤس فكرتها الممتلئة بالمؤثرات والانفعالات
الرجعية الضئيلة السخيفة . وأصبحت أرافقها فى نزهتها
فكانت تتحدث إلى . وكان حديثها محصورا فيما تبديه
من ملاحظات عن هندامى وعاداتى الطيبة أو السيئة
وعن رفاقى الصغار وأهلهم وذويهم . فكانت عقليتى
المهذبة المدربة على لذة التفكير تشعر إذ ذاك بأنها
مضطهدة مكتومة وتكاد أن تختنق، فكان منظر القرية
الجامد ببراكينها المتخربة يذكرنى بسلسلة التطورات
العظيمة للمأساة الأرضية التى كان أبى يصورها لى فيما
مضى ، وكانت تتناول منى الأزهار التى أجنيها وتحتفظ
بها لحظات ثم تلقيها على الأرض دون أن تعيرها نظرة
أو التفاتة . وكانت تجهل اسمها كما كانت تجهل أسماء
الحشرات التى كنت ألتقطها فترغمنى على إلقائها فى الحال
بحجة أنها قذرة وسامة ، وتلك الطرقات الممتدة بين
الكروم التى كنا نقطعها معا لم تعد تمثل فى نظرى تلك
الطرقات الممتدة نحو العالم الشاسع اللانهائى الذى طالما
دعتنى كلمات الراحل الكريم إلى العمل على اكتشافه،
وأصبحت كغيرها من الطرقات العادية التى تخترق

المدينة وتكتظ بشقاء الواجبات اليومية . عبثا أحاول أن أجد ألفاظا لأعبر بها عن شعور السأم الوهمى الغريب والفكر المعذب والجو القاتم المكفهر الذى كانت تحمله هذه النزهات إلى نفسى فلا أجد لفظا صريحا أبينا . فقد خلق اللغة رجال وهؤلاء وجدوا للتعبير عن أفكار وشعور الرجال ولكنك لن تجد الألفاظ التى تلائم مدارك الأطفال ولما تنضج بعد فى ظل نفوسهم ، كيف يمكن أن أعبر عن آلام تتناقض مع بعضها ولا يمكن الافضاء بها الا اذا مرت كتلك الآلام التى تألمتها وكانت وليدة رأس تعصف فيه عناصر التفكير السامى والأدراك العميق ، ودماغ لم يصل فى نضوجه الى حافة الافق العقلى حتى حيل دون رقيه وتقدمه وأخذ يرزح تحت جور دماغ آخر مأفون ضئيل بعيد عن كل فكرة عامة أو نظرة بعيدة أو عميقة ؟ أما اليوم وقد اجتزت طور الطفولة المضطهدة المعذبة ، فأنى أفسر الحوادث التى اعترضتنى فى غضونه بتطبيقها على شرائع تكوين العقول ، وألاحظ أن القدر ، الذى كفل الطفل الذى كنته إلى تربية أم كأمى ، قد أشرك في ذلك نوعين من التفكير متناقضين بعيدين عن بعضهما بعد جنسين مختلفين .

وإنى لأجد الآن ، في شتى التفاصيل الدقيقة التى تمر بمخيلتي برهاناً قاطعاً على ذلك التباين بين طبيعتينا المتقاربتين المتكاملتين . وأظننى أدليت اليك بما يكفى لاقتصر فى حديثى معك على تحديد نتيجة هذا الاحتكاك الصامت بين نفسينا . وأعتقد أننى ألاحظ ، على حد التعبير الفلسفى ، أن هذه التربية العكسية قد بذرت فى نفسى بذرتان ، بذرة الشعور وبذرة التفكير . أما الشعور فهو إدراك وحدتى الذاتية ، وأما التفكير فهو قوة التحليل التى تدور في خبيئة نفسى .

« ولقد قدمت لك القول أننى ، سواء أكان فى مجال الشعور أم فى مجال التفكير ، كنت متأثرا بفكرة اننى لن أستطيع أن أكشف لأمى عن خبيئة نفسى . وهكذا ما كدت أفتح عينى على الحياة العقلية حتى عرفت اننا نخفى فى نفوسنا عنصرا غير قابل للاتصال بها . وبدأت تلك العاطفة عندى بما يشبه الخجل ، ولم تلبث أن تحولت الى أنانية . ولكن أما كان مصدر الكبر والأنانية والأثرة وحب الذات واحدا ؟ أما أن يخشى الانسان الظهور فمعنى هذا انه يختار العزلة . ومن اختار العزلة فانه لا يلبث أن يفضل ذاته ويحبها . ولقدا كتشفت منذ

ذلك الحين، عند مطالعتى لمؤلفات بعض الفلاسفة المحدثين كالمسيو رنان مثلاً، أن ذلك الشعور الذى أعبر عنه بعزلة النفس يتحول إلى ازدراء ظافر واحتقار سام. ثم وجدته في «ادولف» لبنيامين كونستان قد تحول إلى مرض وجفاء، وإلى شعور ساخر فى بايل. أما فى نظر الطالب بمدرسة قراوية الذى يحمل تحت إبطه حافظة أوراقه وكتبه ويقطع الطرقات الباردة شتاء فى بلدته الجبلية، فان ذلك الشعور ليس فى نظره إلا غريزة قاتمة مؤلمة. ولكن تلك الغريزة، بعد أن طبقت على أمى، كبرت وشبت حتى صارت تطبق على رفاقى وأساتذتى. كنت أشعر بأننى أختلف عنهم اختلافاً أشرحه لك بكلمة: كنت اظننى أفهمهم تماماً ولا أعتقد أنهم يفهموننى. إن التفكير يحملنى الآن على الاعتقاد بأننى كنت لا أفهمهم أكثر مما كانوا يفهموننى، على أننى أرى أيضاً ان ذلك الفرق كان يوجد فى الواقع بيننا وهو أنهم كانوا يرضون بشخصهم وبشخصى ببساطة وطيبة وشهامة فى حين أننى كنت قد بدأت بتعقيد شخصيتى باطالة التفكير فى نفسى. فاذا كنت قد شعرت منذ طفولتى، بعكس ما قاله المسيح، انى وحيد لا رفيق لى ولا قريب، فذلك

لأنني تعودت ، منذ طفولتي ، اثارة ضميري واغاظته وان أجعل من نفسي مثالا لا شبيه له ، للشعور الذاتي المفرط . كان أبي قدحلاني بفضول عجيب وذكاء مفرط ناضج . ولما لم يعد إلى جانبي ليسدد خطاى ويهديني إلى عالم المعارف الايجابية والمعلومات الحقيقية الصحيحة ، فان هذا الفضول الراكد ، لعدم وجود ما يشغله ، قد تحول نحو شخصي . ان العقل مخلوق حي ، كغيره من المخلوقات ، وكل قوة عنده تتبعها حاجة كما هي الحال عند سواه . ولذلك يجب عكس قول المثل القديم : من استطاع شيئا فانه يريده . فكل قوة تؤدي دائما إلى الارادة التي تباشرها وتدربها . فالوراثة العقلية وتربيتي الأولى جعلا مني رجلا مفكراً قبل الأوان . وبقيت هكذا . ولكن لما كانت مداركي وفهمي لا تهتم إلا بانفعالاتي الشخصية لعدم وجود استاذ إلى جانبي كالذي فقدته، فانني أصبحت في نظر أمي ، وإن كانت لم تشتبه في ذلك أبداً ، أنانيا مجرداً أتمتع بقوة غريبة تتجلى عندي في ازدراء الغير واحتقارهم . على أن تلك المميزات في خلقي لم تظهر وتتجلى إلا فيما بعد وتحت ضغط نوبات الأفكار التي مررت بها ، وأراني الآن مدينا باطلاعك على منشئها وتاريخها .

بيئة أفكاري

— ٢ —

« كان للمؤثرات المختلفة التي سردتها عليك في شيء من الايجاز والتجرد ، ولكن بألفاظ تفهمها أنت يا أستاذي العزيز ، نتيجة أولى غير منظورة ، فقد جعلت مني وأنا بين الحادية عشرة والرابعة عشرة من عمري طفلا تقيا متعبداً . ولو أنني ألحقت بمدرسة داخلية فمن المحتمل أنني كنت أنشأ كسواي من رفاقي الذين تمكنت من دراستهم منذ ذلك العهد فلم أجد بينهم من اثرت فيه حرارة الايمان .

ففي ذلك العهد الذي أتحدث عنه والذي يمتاز باستيلاء

الحزب الديموقراطى على أزمة الحكم فى فرنسا نهائيا مرت بالبلاد عاصفة من التفكير الحر واجتاحت باريس وطغت على الريف . ولكننى كنت ابن امرأة تقية شديدة التمسك باهداب الدين، فأرغمت على الأخذ بأساليب أصعب الأديان وأشدها . وخير دليل على ما قدمته لك عن نضوج ميولى إلى التحليل وتشريح العواطف النفسانية اننى شعرت ، بعكس زملائى، باغراء يكاد يكون شهوانيا يدفعنى نحو كرسى الاعتراف . ودامت نوبتى الصوفية مدة أربع سنوات ، من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٠، واننى لأستطيع القول إن الحوادث الوحيدة التى مرت بحياتى خلال هذه النوبة كانت تنحصر فى ترددى على الكنيسة كل خمسة عشر يوما حيث كنت أجثو فى كرسى الاعتراف الخشبي الضيق فأتحدث بصوت منخفض وقلب خافق عما يدور فى خبيئة نفسى . واقترب الموعد المحدد لتناولى القربان لأول مرة، فكان ذلك فاتحة شعورى بتأثير الاعتراف على نفسى . كنت أومن ولذلك فان هفواتى الصغيرة كانت تظهر لى بمظهر الجرائم الحقيقية فكنت أشعر بخجل فى الافضاء بها . كنت أندم، وهذا الندم يحملنى على الاعتقاد بأننى سأحظى بالغفران فلا أترك كرسى

الاعتراف إلا وأنا أشعر بلذة الضمير المستريح الهانئ .
كنت طفلا خياليا عصبي المزاج ، فكنت والحالة هذه أجد فيما يحيط بالاعتراف من الأسرار . وفى سكون الكنيسة البارد وفى رائحة البخور التى تملأها ، وفى تمتمة صوتى وأنا أقول « يا أبتى » ، وهمس صوت الكاهن وهو يجيب « ياولدى » من خلف الحاجز الخشبي ، نوعا من الشعر الخفى أتأثر منه دون أن أفهمه . أضف إلى ذلك كله شعورا بالخوف الغريب الذى كان ينبعث من تعاليم الأب مارتل الذى نيطت به مهمة اعدادنا إلى تناول القربان . كان هذا الكاهن صغيراً وقصيرا ، وكانت له سحنة المصابين بداء الصرع ونظرات عميقة مكفهرة ، وعينان زرقاوان في وجه أحمر مستطيل . فكان إذا صعد على منبر كنيسة مينيم ، حيث كان يجمعنا ليخطبنا عن الجحيم ، جحظت عيناه وجمدتا فى وجهه وارتسمت فيهما رؤيا الذعر الذى كان يرسله إلى نفوسنا . وانى لأسر أن يكون الآن فى عداد الأموات وإلا لرأيته داخلا على فى سجنى ، ومن يدرى ؟ فربما تأثرت تأثراً رجعيا من وجوده بين أركان تلك الحجرة التى طليت جدرانها بالجير الأبيض وليس فيها من الأثاث إلا مقاعد خشبية ومنبر صغير

من الخشب المطلى . وكان موضوع عظاته العادية «قلة عدد الأبرار المختارين والانتقام الالهى» . فكان هذا الكاهن يقول : « من ذا الذى يمنع الله ، مادام مطلق السلطة والقوة ، أن يكره نفس الميت على البقاء الى جانب الجسد الذى انفصلت عنه ؟ ... ستقف تلك النفس هناك ، فى حجرة الميت ، صاغية إلى الزفرات والبكاء ، ناظرة إلى دموع وعبرات الأقارب والخلان ، وقد حظر عليها أن تعزيهم أو تخفف من لوعتهم ... ستبقى سجينة في النعش ، وهناك ، سترغم ، خلال أيام عدة وليالى كثيرة على مشاهدة تعفن هذا البدن ، الذى كانت تقيم فيه ، بين الدود والروائح المنتنة ... » مثل هذه الصور كانت تتردد على لسانه المر بمثل هذا الخيال الوحشى . فكانت تنتابنى فى نومى . وأصبح الخوف من الجحيم يساور نفسى ويتملكنى إلى حد الجنون . ومن جهة أخرى فقد كان الأب مارتل يبدى مثل هذه الفصاحة ليعلمنا أهمية الاقتراب من المائدة المقدسة وتأثيرها على خلاص نفوسنا . فنتج عن ذلك أن خوفى من العذاب المؤبد قد حملنى على فحص ضميرى فحصاً دقيقاً للغاية .

وسرعان ما أصبح شاغلى الوحيد أن أرجع بنفسى

الى الوراء ، وأنظر اليها ، بتلك النظرة الفاحصة المدققة التى كنت ألقيها على أقل نزعة من نزعات أفكارى . فكنت لا آبه لشىء ماعداها .

ولأول مرة منذ وفاة أبى وجدت شاغلا فى تلك القوة التحليلية التى رسخت في نفسى نهائياً حتى صارت جزءاً لاينفصل عنها .

« وكان يجب أن يحدث شعورى الذاتى بدخيلة نفسى تحسناً فى كيانى الخلقى . فجاءت النتيجة على عكس ذلك فقد ازدادت دقة التفكير عندى قوة ونعومة بحيث كانت كافية لتفسير هذا الكيان الخلقى قلما يكون من ناحية النظم الدينية الكاثوليكية الدقيقة . فكنت خلال فحص ضميرى ، حيث يشعر المرء باللذة أكثر مما يشعر بالندم ، أتحايل ببراعة ولباقة على استنباط أسباب غريبة لأبرر بها أخطائى التافهة . ولم يكن الأب مارتل بسيكولوجيا بارعاً ليميز هذا التباين الدقيق ، ويفهم أن تمزيق نفسى بمثل هذه الأفكار كان يقودنى رأسا الى تفضيل اضطرابات الخطيئة وتعقيدها على محاسن الفضيلة وبساطتها . فكان لاينظر إلى إلا نظرته الى طفل مجد مجتهد جد تقى . وانى أدلل لك على ذلك بالمثل الآتى :

فى صبيحة اليوم الذى تقرر أن أتناول فيه القربان لأول مرة ، رآنى الكاهن مقبلا عليه والدموع تبلل وجهى. وسألته ان أعترف اليه من جديد وأفهمته أننى عند ما رجعت إلى نفسى وبحثت في مخبئات ضميرى اكتشفت أننى كنت قد ارتكبت خطيئة غريبة ضد الحياء البشرى. كنت لستة أسابيع خلت قد سمعت اثنين من زملائى يهزآن ويحقران سيدة مسنة كانت داخلة الى كنيسة الكارم المقابلة لباب المدرسة . فضحكت من ألفاظهما بدلا من ردعهما وتعنيفهما . وكانت السيدة المسنة ذاهبة لتحضر القداس ، فمن يحقرها فكأنه يحقر عملا صالحا تقياً . لقد ضحكت . فلماذا ؟ ان عدم انتقادى لهذه الفضيحة لابد أن يكون بدافع الخجل الكاذب . وما دام الأمر كذلك فاننى أعتبر نفسى مشتركا وإياهما فيها . أما كان الواجب يدعونى الى مقابلة هذين الساخرين وتذكيرهما بواجبهما الدينى وتعنيفهما على كفرهما وحثهما على طلب الغفران ؟ لم أفعل ذلك . فلماذا ؟ بدافع الخجل الكاذب أيضا . بدافع الحياء البشرى على حد تعبير التعليم المسيحى . وقضيت طوال الليلة السابقة لليوم المقرر لتناول القربان ، وأنا أسائل نفسى بألم واحتضار عما

اذا كان فى مقدورى أن ألحق بالاب مارتل فى صبيحة اليوم التالى لأعترف له بتلك الخطيئة . وإننى لأذكر للآن تلك الابتسامة التى قابلنى بها ومداعبته لوجنتى لتهدئة خاطرى ، بعد أن غفر لى ذنبى . وما زلت أسمع رنة صوته الرقيقة التى خاطبنى بها قائلا : « ليتك تستطيع أن تبقى هكذا دائما ! ... » كان لا يشك فى أن هذه الوساوس التى ساورتنى - وإن كانت تافهة - كانت دليلا على تفكير معتل سقيم ، وأن هذا التفكير سيسمم فىّ لذة الاستمتاع بعذوبة القربان المقدس . ولم أكتف خلال الأسابيع السالفة بفحص ضميرى وتحليله تحليلا دقيقاً وافيا واستسلمت الى لذة الاضطراب التى تنشأ عن الخيال وهى نتيجة حتمية لذلك العقل المحلل . وهكذا تصورت بدقة متناهية جميع الاحساسات التى سوف تخالجنى عند ما أتناول القربان بين شفتى . وسرت نحو حاجز الهيكل ، وقد ستر بغطاء أبيض ، وأنا فى أشد حالات الانفعال النفسى ، وشعرت عند تناول القربان برعشة يأس مخيفة لا أستطيع التعبير عن تأثيرها فى نفسى . وقد اطلعت فيما بعد أحد زملائى ، وقد ظل تقياً دينا ، على هذا الشعور الغريب فأجابنى : « إنك لم تكن

ساذجا كما كان يجب أن تكون » . إن تقواه قد وهبته بعد النظر الذى يمتاز به الناقد العميق . ولا شك فى صحة ماقاله ، ولكن ماذا عسانى أن أفعل وماذا كنت أستطيع أن أعمل ؟

« على أن ضياع إيمانى - وهو الحادث العظيم الذى تمتاز به سنى حداثتى وصباى - لم يبدأ من عهد هذا اليأس الذى شعرت به . فان العلل التى سببت فى ضياع إيمانى كانت كثيرة جمة واننى لا أفهمها على حقيقتها إلا اليوم ، فمن هذه الأسباب ما كان تأثيره على نفسى بطيئا تدريجياً ، كتأثير الدودة على الثمرة تأكل لبابها وليس فى ظاهرها مايدل على هذا الخراب الداخلى إلا بقعة على حمرة قشرتها الجميلة تكاد لا تظهر للعين .

ان أولى تلك الاسباب - على ما يخيل إلى - يرجع إلى العهد الذى نسبت فيه الى الكاهن تشبعه بروح النقد المخيفة وهى القوة المحطمة للأمل التى فرقت بينى وبين أمى منذ طفولتى . واستمررت فى فحص خبايا ضميرى ، واستمر الأب مارتل في عدم ملاحظة تأثير العذاب الذى كان يمزق نياط نفسى : فكانت وساوسى فى نظره أموراً صبيانية ، وإنها لكذلك فى الواقع ،

ولكنها كانت صادرة عن طفل ناضج الشعور ولا يمكن ترويضها إلا اذا شعر هذا الطفل بأن ما يفعله لايتعدى طور العقل والفهم . ولقد وصلت فى محادثاتى مع هذا الكاهن الخشن الفطرى الى الاحساس بشعور مخالف ، وهو عدم الادراك ، وما كان ذلك ليحول بينى وبين القيام بفروضى الدينية ولكنه كان كافيا ليمحو تأثير هذا الرائد الدينى على نفسى وتسلطه على فكرتى . وثانى الأسباب التى فرقت بينى وبين الكنيسة هو اننى لاحظت ، على من كنت انظر إليهم نظرتى إلى عظماء الرجال ، قلة الاكتراث وعدم الأخذ بالأساليب الدينية التى كنت ألاحظها على أبى فى طفولتى . كنت أعلم ان المدرسين ، من الشبان الذين يفدون علينا من باريس ويملأ الزهو نفوسهم لتخرجهم من مدرسة المعلمين العليا ، كانوا جميعاً من المتشككين الملحدين . ولقد كنت أصغى إلى الأب مارتل وهو يتحدث إلى أمى عند زيارته لها وأسمعه وهو ينطق بهذه الكلمات باحتقار مكتوم وهذا ما كان يحملنى على التفكير ، عند مرافقتى لأمى إلى الكنيسة ، في تلك العقلية الضئيلة التى تبدو على المتعبدات اللائى يسرعن إلى القداس فى صبيحة

يوم الأحد ويتمتمن صلواتهن الصامتة بين سكون الاحتفال الديني وقعقعة المقاعد . فتلك الجباه التي كانت تنحني عند الكلام الجوهري بحرارة وخضوع ، لم تكن في يوم من الأيام مليئة بفكرة واضحة جلية . لم أكن أتبين في ذلك الوقت هذا التناقض بمثل هذا الوضوح ولكنني كنت ، بالرغم مني وعلى سبيل المقارنة ، أتمثل صورة أولئك المدرسين وهم خارجون من الليسيه بخطوات خفيفة يجـادلون بعضهم في شتى العلوم فكنت أشبه حديثهم في مخيلتي بمثل ما كان يتحدث به أبي إلى فيما مضى - وهذا ما كان يعزز الشك عندي في قيمة العقائد الكاثوليكية . وقوى تأثير هذا الشك عندي بنوع من الطموح البرىء الذي كان يساورني فيجعلني أعلل نفسي بأن أصل يوماً إلى ذكاء العباقرة العظماء فلا أتخبط بين أفراد الطبقة المتوسطة منهم . وانني أعترف اليوم ان تلك الرغبة لم تخل من الأنانية ولكنني لا أخجل من هذه الانانية فهي لا تخرج عن النطاق العلمي وهي بعيدة كل البعد عن المظاهر الخارجيـة ، غريبة عن المطامع الدنيوية . وغير ذلك فانني إذا كنت لم أزل قائماً على قدمي الآن في وسط هذه المأساة التي

كتبت لى على لوحة القدر ، فاننى مدين بذلك إلى تلك الانانية . فهى التى تمكننى الآن من اطلاعك على ماضى حياتى بذلك الجلاء الهادىء بدلا من الالتجاء إلى ظروف هذه المأساة وتعليلها كما يفعل المتهم العادى الوضيع . فأنا أرى ان أول مواقف هذه الفاجعة قد نبتت فى مخيلة طالب الأمس الشاحب اللون الذى كان يخفى فى صدره فتى اليوم !

« وثالث الأسباب التى ساعدت على تحطيم ايمانى المسيحى هو اكتشاف الأدب الحديث الذى يرجع تاريخه إذ كنت في الرابعة عشرة من عمرى . لقد حدثتك عن أمى وكيف حالت بينى وبين بعض الكتب عقب وفاة أبى . ولم تتحول عن تلك القسوة مع مرور الزمن وظل مفتاح المكتبة معلقاً فى حلقة مفاتيحها بين مفتاح المطبخ ومفتاح القبو . فكانت نتيجة هذا الحظر جلية واضحة فقد ازداد شوقى وشغفى بهذه الكتب وعاودتنى ذكريات الساعات التى كنت أقضيها بصحبة هذه المجلدات أقلب صفحاتها وبالنذر الذى فهمته وعلق بذهنى من مآسى شكسبير وقصص جورج ساند . وكنت قد انتقلت في دراساتى إلى الفصل الثالث . وشاءت الصدفة

أن أجد فى كتاب الأدبيات بعض مختارات من الشعر لكثير من الكتاب المحدثين كلامارتين وهوجو وموسيه وبعض مقتطفات لسانت بوف وكونت دى ليل تقع فى نحو مائتى صفحة فتمكنت بفضلها من تقدير الفارق العظيم فى الالهام الذى كان يمتاز به الأساتذة القدماء على الكتاب المعاصرين بتلك السهولة التى يستطيع بها معصوب العينين أن يميز بين النكهة المنبعثة من باقة ورود وتلك التى تنبعث من باقة الزنبق. وذلك الفارق ، الذى كنت أحذره بدافع من غريزة لا تعقل ، كان ناشئاً بأكمله عن ان الكتاب ، إلى عهد الثورة ، لم يتناولوا الشعور فى كتاباتهم ولم يتخذوا الاحساس مادة أساسية لوضع مؤلفاتهم. على ان الأمر قد تغير منذ سنة ٨٩ فترتب على ذلك انه يوجد عند المحدثين شىء مقتضب مؤلم وبحث مضطرد متمرد وراء الانفعالات الاخلاقية والطبيعية إلى حد المرض. فاستمالنى هذا النوع من البحث فى الحال واستغوانى اليه بشعور قوى لا يقهر . فسحرت بما تبينته فى قصيدتى «البحيرة» و «المصلوب» من احساس صوفى فياض وبما فى كثير من «الشرقيات» من عظمة وهاجة ساطعة.

ولقد شغفت بوجـه خاص بما كان يتناثر خلال مقطوعة « الأمل بالله » و « التعازى » من عوامل التشكك والارتياب المستترة خلف بلاغة المعنى وجمال التعبير حتى لقد كنت أشعر عند مطالعتها بنيران الحمى تتوقد فى رأسى . ولطالما تبينت من وراء المقتطفات والمقطوعات المختارة فى الكتب الدراسية تلك الخطيئة التى حدثتك عنها بما فيها من تعقيد واضطراب وبدأت أنظر الى مؤلفات هؤلاء الكتاب الذين اكتشفتهم بفضول غريب ومخيلة قوية تكاد تكون جنونية كالتى يمتاز بها الأطفال إذا مابلغوا سن المراهقة . لقد كنا على حافة الحياة نصغى اليها ولانتبينها كما نصغى الى تساقط المياه وراء غيضة من الأشجار فنثمل بنشوة أنغامها حتى نظفر برؤياها ! ...

وكانت تربطنى وأحد زملائى الطلبة رابطة صداقة متينة لاسيما وأنه كان يقيم فى الدور الأول من البيت الذى أسكنه فكان ذلك سبباً في أثارة فضولى . وكان هـذا الصديق - الذى قدر لى أن أفقده يافعاً - يدعى أميل . وكان مثلى مغرماً بالقراءة ولـكنه كان أسعد حظاً منى لأنه بعيد عن كل مراقبة . فأبواه كانا مسنين يعيشان من ريع لهما ويقضيان ساعات أيامهما الطوال الى جانب

النافذة المطلة على شارع البليار يلعبان « لعبة الزواج » بورق قديم اشترياه من المقهى ولم تزل رائحة التبغ عالقة به . وهكذا كان يستطيع أميل أن يستسلم الى مزايا المطالعة وأهوائها . كنا ندرس فى فصل واحد فنذهب الى المدرسة معاً ونعود منهـا سوياً ولذلك كانت أمى تسمح لى بارتياح بتمضية الساعات الطوال عند هـذا الفتى اللطيف . وسرعان ماجعلته يشاطرنى ميلى الى الشعر الذى كنت أعجب به ورغبتى في دراسة المؤلفين دراسة عميقة وافيـة وكنا نقطع الأحياء الضيقة في طريقنا الى المدرسة فنمر بحانوت بائع كتب قديمة كنا قد اشترينا منه بعض الكتب الدراسية المستعملة . وإننى أترك لك أن تتصور ما أتانا من الانفعـال عندما اكتشفنا فى احدى خانات الكتب مجلدين من أشعار موسيه ، لا يزيد ثمنها عن نصف فرنك ، كانا فى حالة يرثى لها وصفحاتهما مفككة متناثرة ! . . . فبدأنا نتصفحهما . ثم وجدنا أنه لابد لنا أن نحصل عليهما . فادخرنا مصروفنا الأسبوعى وتمكنا بذلك من الحصول عليهما ـ وهناك فى حجرة أميل الصغيرة ، جلسنا ، هو على سريره وأنا على مقعد ، وقرأنا دون بايز ، وبورسيا ، وماردوخاى ، ورولا .

كنت أرتعد كما لو كنت قد ارتكبت جرماً فظيعاً .
وكنا نستسلم الى ذلك النظم ونثمل به كما لو كنا نثمل
برحيق النبيذ طويلا بهدوء وشهوة .

« وتمكنت منذ ذلك العهد من الحصول ـ سواء فى
حجرة أميل سواء فى حجرتى الخاصة وبفضل الحيل التى
كنت أستنبطها وهى أشبه بما يستنبطه العاشق في ساعة
الخطر ـ على كثير من المجلدات السرية المحظورة . ولشد
ماشغفت بها . فقرأت «جلد الشجن » لبلزاك و« ازهار
الشر » لبودلير . ناهيك عن منظومات لهنرى هين وقصص
لستندهال . واعترف بأننى لم أشعر أبداً بما يشبه الانفعال
الذى انتابنى عندما التقيت لأول مرة بعبقرية مؤلف
« زولا » . لم أكن فناناً ولا مؤرخا . ولذلك فان قيمة
هذه الأشعار ومكانتها من الأدب ومعناها وماترمى اليه
كانت لاتهمنى . فكنت لا أنظر اليها إلا من ناحيـــة
مؤلفها فقد كان لى بمثابة الأخ الأكبر الذى آل على
نفسه أن يكشف لى ، أنا الكائن الضعيف الذى يجهل
الحياة ، عما يوجد فى عالم الشعور والاختبارات النفسية
من الخطر . حينئذ تبين لى فى وضع غريب واضح جديد
ما كنت أشعر به الى الآن فى كثير من الغموض . ومافى

الشفقة من الانحطاط العقلى بالنسبة للكفر . وتضاءلت فى نظرى جميع الفضائل التى وعظونى بها في حداثتى وبدت لى مسكينة وضيعة هزيلة الى جانب جلال وعظمة وجنون بعض الهفوات والاخطاء ... فما الايمان البسيط إلا هاته السيدات التقيات صديقات أمى المتشنجات المسنات . وما الكفر إلا ذلك الفتى الجميل الذى يشعر بدنو الأجل فيرفع نظره في صيحة ليلته الأخيرة ويحدق فى الشفق الدامى فيكتشف فى لمحة البرق كل ما في أفق التاريخ والخرافات ، ثم يثوب الى نفسه ويسند رأسه الى صدر فتاة جميلة كأجمل أحلامه فتحبه ولكن بعد أن يكون قد سبق السيف العذل . وأما العفة وأما الزواج فكلاهما ممثل خير تمثيل فيمن أعرفهم من أولئك البسطاء من أفراد الطبقة المتوسطة الذين يذهبون لسماع الموسيقى فى حديقة النباتات فى كل خميس واحد ، يمشون مشيتهم الهادئة المنتظمة وإذ لا يجدون مايقولونه لبعضهم فانهم يكررون ماسبق لهم قوله بنفس العبارات واللهجة . وكانت مخيلتى تصور لناظرى ، بكل مافى الشعر الملتهب من خيال قوى وألوان وضاحة زاهية ، وجوه المتهتكين اللادينيين والأئمة الزانين فى « قصص عن اسبانيا » ومايليها من

المقطوعات . كنت أتصور دالتى قاتلا زوج بورشيا ثم
شارداً مع خليلته على مياه البحيرة الراكدة بين درج
وخرائب القصور العتيقة . ثم بايز قاتلا چوانا إذ كان
يضمها الى صدره ويقبلها قبلة حارة وحشية بتأثير أكسير
الغرام . ثم فرنك وحبيبته بلكولور . وحسن ومعبودته
ميمونة . والأب كاسيو وعشيقته سيزون . لقد كنت
عاجزاً عن انتقاد مافى هذه المناظر من خيال كاذب أو أن
أحدد أين تبدأ الأجزاء الحقيقية الوقعية والاجزاء
الوصفية الخيالية في هذه المقطوعات الشعرية البليغة .
فقد كنت أتبين خلال السطور ماطبعت عليه النفس
من خسة ودناءة وانحطاط عميق. فكان ذلك يغريني ويحمل
الى نفسى فضول البحث عن الاحساسات والمشاعر
الجديدة وعاطفة التحليل التى كانت كامنة فى صدرى
متحفزة للوثوب والظهور. والكتب الاخرى التى سردت
لك أسمائها منذ لحظة كانت حججاً لتجربة كهذه وإن تكن
أقل وطأة منها . وأزاء آلام القلب البشرى وجراحاته التى
يعرضها البعض للانظار في كثير من الارتياح ، كنت ،
وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ، أشبه قديسي القرون
الوسطى الذين كانوا يذهلون ويقفون مسحورين عند

مشاهدة جروح المخلص . لقد كانت قوة ايمانهم وصلاحهم تظهر على أيديهم آثار الجروح العجيبة . أما أنا فان اعجابى وحماسى قد كشف لى عن مخبئات النفس وأنا في سن الجهالة والطهر ، وأظهر لى آثار القروح الأخلاقية التى تألم منها كبار المرضى العصريين . أجل فى تلك السنوات - التى كنت لم أزل فيها طالباً صديقاً لاميل الصغير فاختبىء عن أمى فى سبيل القراءة - كنت أتمثل بالفكر جميع الانفعالات النفسية التى كانت تعاليم أساتذتى المضطربة تصورها لى كأفظع الجرائم . وقد امتزج خيالى بأفظع سموم الحياة فى حين اننى ظللت ، بفضل تكوين شخصيتى المزدوجة ، أمثل إلى أبعد مدى دور الطفل الهادىء المواظب على واجباته المطيع لأمه .
ولكن لا . ومهما بدا لك الأمر غريباً مدهشاً فاننى لم أمثل هذا الشخص . وإنما كنت أحياه أيضاً عفواً واختياراً مع ما فيه من التناقض ، بل ربما كان هذا التناقض الاختيارى هو الذى هدانى إلى سبيل الاشتغال بعلم النفس الذى أوقفت عليه جهودى الأولى . وكيف كان يتسنى لى ، عند ما صادفت فى كتابك عن الارادة تلك البيانات المغرية عن تعدد الشخصية ، الا أسلم بها

بعد أن مررت بتلك المراحل التي أصفها لك اليوم والتي تعددت فيها شخصيتي ؟

« واستمرت نوبة الاحساس التصويرى التى كانت تتتابى على مهاجمة العقيدة الدينية فى نفسى باغرائى على ارتكاب الخطيئة التافهة والعمل بمذهب التشكك المؤلم. وكادت نوبة الشهوة البدنية التى نتجت عن ذلك توقظ هذا الايمان في قلبي المعتل . وفقدت طهارتى فى سن السابعة عشر وفى ظروف تافهة محزنة كتلك التى نشاهدها في وقتنا هذا . فقد زارتنا بعدظهر أحد الأيام عاملة . وكانت هذه العاملة فى الثلاثين من عمرها محتفظة بنضرة العمر وطلاوة البشرة . وكانت كثيرة التردد على أمى . وتصادف ان كنت فى ذلك اليوم بمفردى فانتهزت هذه الفرصة لتجذبنى إلى جانبها وتقبلنى قبلات أفقدتنى صوابى . وطلبت منى أن أزورها فى بيتها . وكانت مداعبات هذه المرأة قد أضرمت النار فى رأسى وأثرت على حواسى ، أضف إلى ذلك فضولى الذى كان يدفعنى إلى الوقوف على خفايا اللذة وأسرار البدن التى امتلأت بها مخيلتى بفضل مطالعاتى . فحملنى ذلك كله إلى تلبيـة دعوتها . وهناك في حجرة الصدفة

وعلى سرير مفروش بالتيل الخشن فقدت بكارتى بين ذراعى هذه الفتاة التى كانت تشتعل نظراتها بنيران الشهوة البهيمية تذكيها رغبة وحشية فى الاستمتاع بطهارة جسمى إلى حد شعرت بالخوف ينساب إلى نفسى . وما كدت أنتهى من فعلتى حتى هربت من تلك الحجرة يملأنى اشمئزاز لا يوصف . كان يخيل إلى أن يدى وفمى وكل جسمى قد تدنست بأدران لا تغسلها أية مياه . وأول فكرة طرأت على كانت أن أذهب وأعترف بخطيئتى وأتوسل إلى الله ، الذى كنت لم أزل أعتقد به ، أن يهبنى القوة من لدنه لكى لا أكرر فعلتى . واستمر هذا الاشمئزاز بضعة أيام ثم لاحظت في شيء من الذعر الممتزج بالشهوة ان الرغبة كانت تنساب إلى نفسى شيئاً فشيئاً . وفى تلك اللحظة تمكنت من ملاحظة تلك الناحية من خلق ، وهى التى أشرت إليك عنها فى حديثى عن أبى : عجزى عن استعمال عقلى فى إدارة شؤونى وكبح جماح نفسى . ولكى أقاوم خجل كبوة جديدة فى حمأة حواسى ، حاولت عبثاً أن أستعين بعقائدى الدينية ، وكانت لم تزل سليمة ، وبقوة مخيلتى التى طالما غذيتها بمطالعاتى . وأن أردد لنفسى ان هذا العمل دنىء

سافل وانني أصبح شبيهاً بالزملاء الذين كنت واميل نحتقرهم إلى حد الازدراء ، شبيهاً بأولئك الذين يقضون عطلة أيام الخميس على المقاهى أو عند بنات الهوى .
ولكننى ، بالرغم من ذلك كله ، تركت البيت فى نحو الساعة الثامنة مساء بحجة ألم أشعر به فى رأسى — أجل كان ذلك فى أحد أمسية الصيف وانني ما زلت أستنشق رائحة التراب المبلل الذى كان يعبق الجو فى ميدان دى جود . وسرت نحو حى سانت الير حيث تقيم ماريان . وهو اسم تلك المخلوقة ، وأنا أتألم خشية الا أجدها . ووجدتها فى حجرتها الوضيعة وفى تلك المرة الثانية استسلمت بكليتى ولأول مرة إلى جنون الشهوة البهيمية وإن كنت سأصبح بعد ذلك فريسة لمثل ما شعرت به لأول مرة من الاشمئزاز القاتل . فمنذ ذلك الحين، وإلى جانب الشخصين اللذين كانا يتنازعان نفسى ويتضاربان فى ذلك المراهق الخيالى ، تولد شخص ثالث وشب وهو شخصى الشهوانى الذى تأكله أحط وأحقر الشهوات البهيمية . ومع ذلك كله فان الحياة العقلية ما زالت تنتابنى بقوة . فكنت إلى جانب ما أقاسيه من الألم بسبب تلك الحالة الغريبة أشعر بنوع من العظمة

والزهو ، لملاحظتي لتلك الحالة ودراستها . وأغرب من ذلك كله هو أنني لم أستسلم لذلك الاستعداد الأخير بارتياح وصفاء ذهن أكثر من استسلامي للثلاثة الأخر . وبقيت خلال هذه الانفعالات النفسية مراهقاً كما كنت أي كائناً متردداً ناقص التكوين تكاد لا تتبين فيه أول بوادر نفسه وحياته المستقبلة . وكنت لم أتخصص ولم أقرر لنفسي اتجاهاً معيناً ، لا من ناحية تصوفي لأنني كنت في الواقع وفي قرارة نفسي أخجل من الايمان كما أخجل من شيء وضيع ، ولا من ناحية مخيلتي وقوتي الخيالية ما دمت أعتبرها أساليب لغوية ومحسنات لفظية ، ولا من ناحية ملذاتي الشهوانية ما دمت أشعر بالاشمئزاز والتقزز عند خروجي من حجرة ماريان . ومن جهة أخرى لم تكن لدي الجرأة ولا الفضول العملي لمواجهة نتائج هفواتي وأخطائي .

كان ذلك في صيف العام الذي كنت أدرس فيه علوم البيان . وكانت وطأة المرض قد اشتدت على اميل ، الذي قدر له أن يموت في الشتاء التالي متأثراً من مرض في صدره ، فحالت دون مغادرته حجرته ، كان يصغي الى ما أسره إليه بشغف ووجل فكان ذلك يخدعني ويثير

من عزة نفسى ويحملنى على الاعتداد بتلك النفس ووضعها فى مكانة رفيعة ممتازة . ومع ذلك فان اعتدادى بنفسى لم يحل بينى وبين الخوف . فقد كنت أشعر به قوياً كما كنت أشعر به ليلة اليوم الذى تقدمت فيه من الهيكل لتناول أول قربانه ، وكما كنت أشعر به كلما التقت نظراتى بنظرات الأب مارتل كلما صادفنى . ولم أشك فى أنه صارح أمى ـ بقدر مايسمح له سر الاعتراف بذلك ـ بما انطوت عليه نفسى لأنها أخذت تراقب ساعات خروجى من البيت وتشدد فى سؤالى عن السبب وإن لم تستطع أن تحول دون ذلك تماماً . لاسيما وانها ـ بفضل ما كنت أبديه من الرياء والزلفى ـ لم ترم فى تفكيرها إلى أبعد من الظن بأن مغادرتى للبيت قد تؤدى بى إلى السقوط فى التجارب لا اننى قد سقطت فعلا فى الهاوية . وكان مرض أحب أصدقائى ، ومراقبة أمى ، وما تحمله نظرات الكاهن من الرعب إلى نفسى ، قد أثرت فى أعصابى وزادت فى هياجى . وإلى جانب ذلك فقد كان يخيل إلى ان حرارة الصيف فى هذا البلد البركانى كانت تبعث من جوف الأرض بخاراً حاداً مثيراً للحواس . حتى لقد عصفت بى فى تلك الأيام

ساعات جنونية تتخللها المتناقضات والأفكار الغريبة . فكنت أستيقظ خلالها أكثر ما يمكن أن أكون مسيحياً متدينا فأتلو بعض النبذ من كتاب « التأمل » وأصلى ثم أذهب إلى المدرسة وقد اعتزمت أن أكون منتظما حكيما . ولكننى لا أكاد أؤوب حتى أتمم فروضى وأقصد إلى زيارة صديق اميل . وهناك ، حيث نكون فى مأمن من الرقباء ، ننكب على مطالعة الكتب المثيرة والمؤلفات المقلقة . ومما هو جدير بالذكر ان أباه وأمه يئسا من شفائه فكانا ينظران إليه وهو يحتضر رويداً رويداً وهذا ما جعلهما يلبيان رغباته ويواليانه بما يريده من الكتب فساعدنا ذلك على قراءة الكتاب المعاصرين المجددين وسهل علينا الوقوف على أفكارهم فملأنا بها فراغ مخيلتنا ورؤوسنا . وكانت هذه الأفكار تلازمنى طوال يومى فاذا ما عدت إلى المدرسة بعد الظهر فلا يصرفنى عنها الدرس ولا حر النهار ولا أصوات المدرسين وهم يحاضرون الطلبة فى فصولهم البعيدة . وتتمثل أمامى صورة ماريان كالخيال ثم تنجلى شيئاً فشيئاً ثم تزداد وضوحاً وجلاء ، وتملأ قلبى إغراء ورأسى شهوة . فأقاوم ما استطعت وأنا مقتنع

تمام الاقتناع بأنى لا ألبث أن أخذل كأن مقاومتى لرغبتى الجامحة المظلمة لم تكن إلا لتزيدنى شعوراً بقوتها وحدتها . وأرجع الى البيت ، فتلاحقنى تلك الصورة القذرة وتلازمنى بأفكارها الرجسة . وأسرع الى فروضى وأنجزها بقريحة وقادة حادة مستعيناً بما تخلقه أفكارى المضطربة وأعصابى الثائرة من الذكاء . وأتناول طعام الغداء وفمى أشد ما يكون ظمأ تحت تأثير الشهوة التى كانت تلذعنى وتلهب حواسى بنيرانها المحرقة . وأترك البيت بحجة أننى سأعود « اميل » ، وأندفع جرياً نحو الشارع الذى تقيم فيه ماريان فأجد بالقرب منها تلك الشهوة البهيمية اللاذعة المحرقة وما يعقبها من اشمئزاز وتقزز . وكثيراً ما كان يحدث لى - على أثر عودتى - أن أقف الساعات الطوال الى جانب نافذتى شاخصاً الى الكواكب فى فسحة الليل العميق ذاكراً أبى وموته وما كان يحدثنى فيما مضى عن هذه العوالم النائية . حينئذ كان ينتابنى احساس خفى وأشعر بتأثير الطبيعة الخفى كما أشعر بتأثير المجهول على نفسى ، نفسى أنا ، تلك النفس التى تحيا وتتخبط فى وسط هذه الطبيعة ولا أدرى بماذا كنت أعجب . أبأعماق هذه السماء

المكفهرة ، أم بظلمات تلك الهوة السحيقة التى هويت اليها بعد ماارتكبته فى يومى وا كتنفت فؤادى وخيمت على عقلى .

« تلك كانت أفكارى ، يا أستاذى العزيز ، وذلك كان استعدادى الداخلى وشعورى عند ما انتقلت فى دراستى الى الفصل الذى سيضع حداً فاصلا فى حياتى وتكوين عقلى وعقيدتى وهو الفلسفة . فلم تمض الأسابيع الأولى حتى بدأت أشعر بالغبطة والذهول مع ما كانت عليه دروس علم النفس التى تلق علينا من النقص ! ولكننى لم أعبأ بما كانت عليه هذه الدروس من تشويه ونقص وشغفت بهذا العلم الى حد الشهوة . فتلك الطريقة المتبعة والتفكير الشخصى والتحليل الذاتى - الى جانب الغرض المقصود من دراسة هذا العلم ، وتحليل النفس البشرية بجميع مزاياها وشهواتها ، وإدراك الغاية المرغوبة ، وذلك الجهاد الفكرى الذى يمكن من تلخيص شتى الظواهر العظيمة فى قليل من الأوضاع الموجزة - كل ذلك وكثير غيره من شتى العوامل كانت تجعل هذا العلم الحديث ملائماً لنوع تفكيرى متناسباً مع عقليتى التى ورثتها عن أبى ومهدت لها تربيتى .

وهذبتها ميولى . فنسيت مطالعـــاتى المختارة المحبوبة واندفعت بكل قواى فى تيار هذه الأعمال الجديدة المجهولة واندمجت فيها بشغف وجنون لا سيما على أثر موت اميل صديق الوحيد . فقد حمل موته الى عقلى فكرة « القسمة » التى كنت أشعر بعجزى عن حلها عن طريق عقيدتى الأولى . وزاد شغفى وتحمسى لهذا العلم الى حد أننى لم أعد أكتفى بمتابعة دروسى ، وأخذت أبحث الى جانب هذه الدروس عن مؤلفات أتمكن بواسطتها من إتمام تعاليم الأستاذ . فتوصلت بهذه الطريقة الى كتاب « نفسية الله » فأثر فى نفسى تأثيرا عميقاً الى حد أننى تناولت فى الحال « نظرية الشهوات » و « تشريح الارادة » فكان تأثير هذه الكتب ، على عالم الأفكار الطاهرة ، كتأثير مؤلفات موسيه على عالم المشاعر الحساسة . وسقط القناع وأضاءت ظلمات العالم الظاهر والعالم الخفى . كنت بذلك قد وجدت الطريق الذى سأسلكه . . . كنت قد أصبحت تلميذك .

« ولكى أشرح لك بطريقة واضحة جلية كيف تملكت فكرتك أفكارى ، فاسمح لى بأن أنتقل فى الحال إلى نتائج هذه القراءة والتأملات التى أعقبتها . ولسوف ترى

كيف استطعت أن أستخلص من مؤلفاتك منطقاً كاملا قائماً على التفكير والعقل جمع بين شتات العناصر المتناثرة في نفسي ونظمها بطريقة بديعة مدهشة . فقد صادفت فى بادىء الأمر فى أول مؤلفاتك الثلاثة « نفسية الله » تهدئة كاملة نهائية لذلك القلق والكرب الدينى الذى ما فتئت أعيش فيه على الرغم من شكوكى . إن الاعتراضات ضد العقائد لم تنقص فعلا مذ ساعدتنى المصادفة على قراءة كثير من الكتب فقد وجدت فى كثير منها خروجاً جريئاً صارخاً على الدين وخصوصاً عندما شعرت بميل يجتذبنى إلى مذهب التشكك ، كما قلت لك ، لأننى وجدت فيه ميزتين بينتين : ميزة السمو فى العقل والتفكير وميزة التجديد في الشعور والعاطفة . وكنت قد تأثرت ، فيمن تأثرت بهم ، بمؤلف « حياة يسوع » فان السحر المنبعث من أسلوبه وعظمته الفنية وذوقه السليم وقوته فى الألحاد كانت قد حركت أعماق نفسى . على أننى لم أكن عبثاً نجل عالم هندسى ولذلك لم ارتح لما كان يظهر على كتابات هذا الفنان الفذ من التردد وعدم الجزم والتشكك . وإننى لأعترف بأن أفكارى لم تخضع ولم تتأثر إلا بما يتخلل كتابك من

الشدة والحزم . فقد برهنت لى، فى منطق سليم لا يقاوم، أن فرض وجود سبب للأشياء يعد خروجا على المعنى، وأن مجرد التفكير فى هذا السبب يعد حمقاً وغباوة. وان كان وجود هذا الخروج على المعنى وهذا الحمق من مميزات عقلنا ومستلزماته ولا بد من التسليم بهما كما أن من مستلزمات النظر أن تكون هناك شمس تدور حول الأرض وإن كنا نعلم أن هذه الشمس جامدة ثابتة وأن الأرض هى التى تتحرك وتدور . ولقد سحرت بقوة هذه الحجة وبراعة هذا التدليل فأخذت أضرب على منوالك وأجاريك فى خطتك وأفكارك فأدت بى الحال إلى النظر إلى هذا العالم نظرة واضحة جلية . وشاهدت الكون على حقيقته ناشراً أضواءه وناشراً ظواهره فى جميع الأنحاء ومختلف الأرجاء بغير ما بداية ولا غاية . ولقد كانت عنايتك فى تقديم البيانات وتدعيمها بالأدلة والبراهين القاطعة وإعادة المسببات إلى حقيقة أسبابها وإسنادها إلى وقائع علمية تطابق الطريقة التى كان يتبعها أبى فى عهد طفولتى البعيد لإنارة عقلى بتعاليمه وصقل ذكائى بأفكاره. فتأثرت من هذا الشبه وسحرت من تلك الطريقة التى تجلت لى من جديد بعد أن طوتها عوامل الأيام وتتابع السنين.

فكنت أقرأ صفحاتك وأعيد قراءتها وألخصها وأعلق
عليها وأبذل جهد المهتدى الحديث لانتشى بنشوتها وأثمل
برحيقها وعصارتها . إن الأنانية التى طالما شعرت بها
منذ طفولتى ودفعتنى إليها عقليتى وتفكيرى قد تجلت
فى الشاب الذى كان يدرس عليك ويقتدى بك ويأخذ
عنك انكار الذات فى سبيل الاستمتاع بلذة الأصلاح
والتقويم . آه ! كيف يتسنى لى أن أقص عليك تلك
الثورات المحمومة التى شعرت بها عند وقوفي على أسرارك
واشتراكى وإياك فيها . فقد كانت أشبه بالحب الأول
وما فيه من متعة وهناءة وحماسة وحمية ! . . . لقد كنت
أشعر بلذة عميقة طبيعية في تحطيم صرح العقائد القديمة
التى نشأت بين جدرانها وأنا أحمل كتبك فى يدى . أجل
تلك هى الغبطة الرجولية التى تغنى بها لوكريس ، غبطة
الأنكار المحرر من القيود وهى تختلف تماماً عن سويداء
رجل كجوفروا المحتقرة . أما دعوتك إلى العلم التى تتجلى
فى كتاباتك وتؤلف كل صفحة من كتبك فقد كنت
أصغى إليها بأشد وأقوى مايكون من الذهول ، خصوصاً
وأن ملكة التحليل ، وهى أولى الأسباب فى تدينى وورعى ،
كانت بفضلك تجد مجالا للتدريب أعظم وأوسع من

كرسى الاعتراف ، وأن مؤلفيك العظيمين قد أنارا عقلى وهديانى إلى حقيقة كيانى الذاتى فى نفس الوقت الذى هـدانى كتابك « نفسية الله » إلى حقيقة الكون الخارجى وأضـاءه لى بنور يظل ، حتى هذا اليوم ، آخر أنوارى كالقبس الذى يضيئنى بلا انقطـاع فى وسط العاصفة .

« لشدما أحسن تفسيرك لجميع اضطرابات طفولتى وما تخللها من الظلمات ! تلك العزلة الأخلاقية التى طالما تألمت منها إلى جانب أمى ، وإلى جانب الأب مارتل ، وإلى جانب رفاقى وزملائى ، وإلى جانب الجميع حتى أميل - ألا أننى لأفهمها الآن . أو لم تبرهن فى كتابك « نظرية الشهوات » أننا عاجزون عن التخلص من الذات ، وأن كل علاقة بين كائنين ترتكز على الوهم كبقية الأشياء ؟ أما خور الحواس الذى طالما عانيت بسببه تأنيب الضمير المر وعذاباته الفظيعة فان كتابك « تشريح الارادة » قد كشف لى عن أسبابه ومنطقه المحتوم . وكذلك الارتباكات التى عزوتها إلى نفسى باعتبار أنها إخلال بواجب الصراحة فقد أريتنى فيها شريعة الوجود التى تحتمها الوراثة على شخصنا . ولقد أدركت بفضلك أننى

بالبحث فى مؤلفات قصصى وشعراء هـذا الجيل عن حالات النفس المجرمة المريضة ، قد اتبعت بغير ما شك أو تعمـد ، إلهاماً خليقاً بعلماء النفس . أو لست أنت الذى كتب : « يجب أن يراعى العالم جميع النفوس « كتجارب أوجدتها الطبيعة . فبين التجارب ماهو مفيد « للمجتمع فيطلق عليها حينئذ اسم فضائل . والبعض مضر « فيطلق عليها اسم رذيلة أو جرم . ومع ذلك فأن هذه « التجارب الأخيرة أهم وأبلغ وإنه لينقص علم النفس « عنصر أساسى لو لم يوجد نيرون ، مثلا ، أو أى طاغية « إيطالى من القرن الخامس عشر . . . » وإننى أرانى فى هذه الأيام الصيفية الحارة ، متوجهاً إلى النزهة ، وفى جيبى أحد هـذه الـكتب ، حتى إذا ماأصبحت وحـدى فى الحقول قرأت بعض هذه السطور وتحمست للتأمل فى معناها . وكنت أطبق على المناظر المحيطة بى ذلك التعبير الفلسفى الذى اتفق على تسميته شراً . لاشـك فى أن ثورات البراكين التى قامت على أنقاضها سلسلة جبال الدوم التى كنت أحوم عند سفحها قد خربت بحممها الملتهب السهل المجاور وأفنت الكائنات . ومع ذلك فتلك الثورات قد ولدت ذلك المنظر الرائع الذى كان

يتجلى فى الأفق ويسحرنى بعظمته وأبهته كلما وقعت أنظارى على قمة باريو وكثيب الدوم وجميع سلسلة هذه الجبال الكريمة. وكانت شجيرات المغربية تمتد على طول الطريق فتكسوها بخضرتها الناضرة فكنت أكسر أعوادها لأشاهد السم يقطر منها أبيض كاللبن. ولكن هذه الأزهار السامة كانت تغذى الدودة الجميلة الخضراء. والفراشة التى ستتولد منها على هيئة أبى الهول بأجنحته الملونة بأدق الألوان وأجملها. وأحيانا كانت تنساب إحدى الأفاعى بين الأحجار المنثورة على هذه الطرقات المغبرة فكنت أنظر إليها وهى تزحف فوق هذا التراب البركانى الاحمر بلونها الرمادى ورأسها المبطط ورشاقة جسمها المبرقش. وكانت هذه الدابة الخطرة تظهر لى كأنها برهان قاطع على عدم اكتراث تلك الطبيعة، التى لا هم لها إلا اكثار النسل النافع أو الفتاك باسراف لا حد له . وكنت أشعر إذ ذاك، فى شدة تفوق حد الوصف، أنه ينبعث من هذه الأشياء نفس الدرس الذى ينبعث من مؤلفاتك، وهو أننا لا نملك شيئاً إلا أنفسنا، وأنه ما من شىء حقيق إلا الذات الشخصية، وأن تلك الطبيعة تجهلنا كما يجهلنا الرجال، وأنه ليس لنا ما نطلبه منهم كما أنه ليس لنا

ما نطلبه منها إلا اعذارا لتعزيز الشعور أو التفكير.
وتبين لى أن اعتقاداتى القديمة بوجود الله الآب والحكم
لم تكن إلا أحلام طفل مريض. فكنت أتطاول بنظرى
إلى أقصى حدود القرية الواسعة والى أعمق أعماق السماء
الشاسعة الجوفاء وأنا أفكر فى أننى، أنا الكائن الهزيل، طالما
تأملت لأفهم من هذه الدنيا ما لا يفهمه أبداً أحد هؤلاء
القرويين الذين كنت أراهم يمرون أمامى. كانوا آتين
من الجبل يقودون مركباتهم الضخمة تجرها الأبقار
الهادئة الوديعة ويحيون الصلبان بورع وتقوى. لشد
ما كنت أحتقرهم فى صميم فؤادى على اعتقاداتهم الباطلة
وتخريفهم، هم والآب مارتل وأمى، وإن كنت لم أقرر
المجاهرة بالحادى متوقعاً فظاعة ما سيحدثه اعترافى من
المواقف المؤلمة.

على أننى ما كنت لأهتم كثيرا بهذه المواقف،
وسأبدأ الآن بسرد مأساة لولا ماقدمته لك عنها ولولا
ما كشفته لك عن خبيئة فكرتى ونشأتها وتكوينها
لعدت مأساة تافهة لا معنى لها.

طور الانتقال

— ٣ —

وأجهدت نفسى مدى عام فى دراسة متواصلة مرهقة أصبت على أثرها بمرض أرغمنى على الكف عن الاستعداد لمدرسة المعلمين . وما إن شفيت حتى أعدت دراسة الفلسفة مع اتباع جزء من حصص البيان . وتقدمت الى امتحان المدرسة فى نحو ذلك التاريخ وهو نفس التاريخ الذى تشرفت فيه بمقابلتك فى دارك . وأنت تعرف الحوادث التى تلت ذلك . فقد أخفقت فى الامتحان فبحوثى كانت تنقص تلك الطلاوة الأدبية التى لا تكتسب

إلا فى مدارس الليسيه فى باريس . وفى نوفمبر سنة ١٨٨٥
رضيت أن ألتحق بوظيفة رائد عند أسرة جوسا راندون
وقد كتبت لك فى ذلك الحين أننى أضحى بحريتى
الشخصية لأوفر على أمى عناء مصروفات جديدة . أضف
الى هذا السبب ما كنت أمنى به نفسى من أن ما سوف
أدخره من تلك الوظيفة سيسمح لى ، متى انتهيت من
الحصول على أجازة الليسانس ، بأن أتأهب لنيل اجازة
التدريس فى باريس . ان العيش فى هذه المدينة كان
يجذبنى ويغرينى يا أستاذى العزيز لا سيما واننى كنت
قد اعتزمت ، وهذا ما أستطيع أن أعترف لك به اليوم ،
أن أسكن بجوار شارع جى دلابروس . فقد خلفت
زيارتى لك فى صومعتك تأثيراً بعيد الغور فى نفسى حتى
لقد ظهرت لى شبيهاً بسبنوزا الجيل الحاضر فان ما تبين
لى منك كان مطابقاً تمام المطابقة لما جاء في مؤلفاتك
لاسيما تلك الحياة النبيلة التى وقفتها ، من جميع نواحيها ،
على الفكرة ! كنت أعلل نفسى سلفاً بحياة سعيدة
لمجرد الوقوف على ساعات نزهتك . واننى سأتعود
الالتقاء بك فى حديقة النباتات الأثرية التى تمتد تحت
شرفات دارك . وانك سترضى بأن تكون لى مرشداً

فسدد خطاى . وأننى سأستطيع بفضل هدايتك ومعونتك أن أتبوأ أنا أيضاً مكانتى فى ميدان العلم . ومجمل القول أنك كنت تمثل فى نظرى اليقين الحى المتجسم والرائد الأمين وما كانه فوست بالنسبة لفاجنر فى أنشودة جيتا النفسية . ثم إن الظروف التى عرضت فيها هذه الوظيفة كانت ظروفاً طيبة لطيفة فالغاية المقصودة كانت ملازمة صبى فى الثانية عشرة من عمره هو الابن الثانى للماركيز دى جوسا . وقد عرفت منذ ذلك الحين كيف آلت الحال بهذه الأسرة إلى الالتجاء شتاء إلى هذا القصر بالقرب من بحيرة عايدات حيث تعودوا قضاء شهور الخريف فقط . كان المسيو جوسا من مقاطعة الأوفرنى وقد شغل فى عهد الامبراطور منصب سفير .

وساءت حالته المالية ، حتى كانت على شفا الأفلاس بفضل خسائر جسيمة فى المضاربات . وكانت عقاراته مرهونة ونقص إيراده نقصاً كبيراً . وتمكن من إيجاد مستأجر لمنزله فى الشانزليزيه بما فيه من أثاث بأجر كبير . ولجأ إلى مزارعه فى دى جوسا مبكراً عن ميعاده وفي عزمه أن ينتقل منها إلى داره في كان مباشرة .

ولاحت له فرصة رابحة لتأجير هـذه الدار . وسحرته رغبة التخلص من ديونه وانقاذ ميزانيته من الأفلاس خصوصاً وأن مرض السويداء الذى كان مصاباً به قد حبب اليه العزلة وقضاء عام باكمله بعيداً عن الضوضاء والحركة . وفوجىء فى تلك اللحظة برحيل رائدابنه لوسيان فجأة ، لأنه لم يرتح الى وأد نفسه بضعة شهور ، فقصد الماركيز الى مدينة كليرمون حيث تلقى دروسه الرياضية منذ نيف وخمسة وثلاثين عاماً على المسيو ليماسيه المدرس القديم وصديق أبى . وكان قد فكر فى سؤال أستاذه القديم فى شاب متعلم ذكى يستطيع هداية لوسيان فى دراساته طوال هـذه السنة . وكان يعرض خمسة آلاف فرنك فكان طبيعياً أن يفكر المسيو ليماسيه فى ، ووافقت من جانبى ، للاسباب التى أبديتها لك ، على أن أتقـدم المركيز كمرشح لتلك الوظيفـة . وفى حجرة أحد الفنادق المطلة على سـاحة دى جود وقفت برجل طويل القـامة أصـلع الرأس براق العينين أحمر الوجه ، فلم يعبأ بفحصى وتكلم في الحال وطوال الوقت ، فكان يخلط فى حديثه بين تفاصيل عن صحته ـ فقد كان مريضا بالوهم ـ وبين أشد الانتقادات التى كان يوجهها

إلى التعليم العصرى . وما زلت أسمع صوته وهو يمزج
بين العبارات التى تكشف عن مختلف نواحى خلقه :

ـ « هيا ياصـــديق ليماسيه المسكين متى تصعد
لزيارتنا ؟ . . . ان الهواء بديع هناك . هذا ما يلائمنى .
لم أكن أتنفس في باريس كما يجب . ان المرء لا يتنفس
أبداً كما يجب . . . . » ثم يلتفت نحوى : « اتعشم ياسيدى
أنك لست من أتباع النظم الحديثة فى التعليم . العلم .
دائما العلم ! والله أيها السادة العلماء ! ماذا تفعلون به ؟... »
ثم يعود إلى المسيو ليماسيه : « فى وقتى ، أريد أن أقول
فى وقتنا ، كان الشعور بالنظام والمكانة والواجب مازال
قائما فما كانوا يهملون التربية كلية فى سبيل التعليم . هلا
تذكر كاهننا الأب هابرت وكيف كان يحسن الحديث ؟ . .
لشد ما كان عليه من صحة جيدة ! فقد كان يسير بك
غير هياب ولا وجل ! . . . ولكن أنت ياليماسيه كم
عمرك ؟ . . . سبعون عاما . أليس كذلك ؟ سبعون عاما
ولم تشتك ألما واحدا ؟ ولا واحد ؟ . . . أما انك ترانى
أحسن حالا مذ بدأت أعيش فى الجبل ؟ . . . . اننى
لا أشعر بمرض تام ولكن هناك أشياء صغيرة . . .
صدقنى اننى أفضل أن أكون مريضا فعلا ، فأقل

ما يكون أستطيع أن أعالج نفسى ....

« إذا كنت أنقل اليك هذه الأقوال المتناثرة المضطربة كما تمر الآن بذاكرتى يا أستاذى العزيز فلكى أبين لك أولا قيمة ذكاء وعقلية هذا الرجل الذى أعلم عن طريق أمى أنه سمح لنفسه بأن يشرك اسمك المحترم إلى قضيتى. ثم لكى تفهم أيضا ما كنت عليه من الاستعداد عند ما وصلت، بعد أربعة أيام من هذا الحديث، إلى ذلك القصر الذى صدمت فيه بمثل هذه المصادفات المخيفة. كان الماركيز قد قبلنى منذ هذه الزيارة الأولى وألح على أن يصحبنى في مركبته، وفى غضون الطريق بين كليرمون وعايدات تلهى بسرد تاريخ أسرته. وشرح لى تباعاً، وبتلك الثرثرة المتغلبة عليه، أن زوجته وابنته لا يحبان الاختلاط بالعالم كثيرا وانهما كانتا على أحسن ما تكون عليه ربات البيت ، وأن بكر أولاده الكونت أندريه كان فى ضيافته لمدة خمسة عشر يوما وأنه لا يجب على ان استاء من خشونته لأنها تنطوى على أرق القلوب وأطيبها، وأن ابنه الآخر لوسيان كان متألما للغاية، وأن أهم المسائل هى اعادة الصحة اليه. ثم على ذكر كلمة الصحة أطلق للسانه العنان، وبعد أن قضى ساعة يتحدث إلى عن دواره وعسر

هضمه ونومه وآلامه الحالية والمستقبلة شعر ولا شك بالتعب من حدة الهواء وكثرة الحديث فاستسلم للنوم فى ركن العربة . وانني ما زلت احتفظ جيداً بذكرى الخطط التى كنت أرسمها فى رأسى بعد أن استرحت من هذا الثرثار الذى أصبح محط احتقارى . وبينما كنت أنظر إلى القرية الجميلة التى كنا نقطعها بين جبال تخرقها الوديان وغابات قد اصفرت أغصان أشجارها فى فصل الخريف مع كثيب البقر يمتد عند الأفق وهو ما زال فاغراً فوهته التى مزقتها الانفجارات السالفة وما زالت تحافظ على حمرة تراب البراكين ! إن ما شاهدته فى الماركيز وما كانت أحاديثه قد هيأتنى إلى معرفته عن منزله كان كافيا - لو لم أهيء نفسى لتلك الفكرة سلفا - لاقتنع بأننى سوف أنوى بين أولئك الذين كنت أسميهم برابرة . لقد كنت أطلق هذا الاسم - منذ أعوام - على الأشخاص الذين كنت أحكم بأنهم بعيدون عن الحياة الفكرية .

« ولم تخيفنى فكرة النفى الذى كان ينتظرنى ؟ فقد كان المذهب الذى كان يجب أن أنظم عليه معيشتى واضحاً جلياً فى رأسى ! فقد كنت عازما ألا أعيش إلا بذاتى ولا أسكن إلا ذاتى وأن أدافع عن هذه الذات

ضد كل دخيل خارجي . فذلك القصر الذى كنت أتوجه اليه ، وهؤلاء الناس الذين يضمهم بين جدرانه ، ليسوا فى نظرى إلا مادة للاستغلال فى سبيل فكرتى ومنفعتها الكبرى . كنت قد أعددت برنامجى : خلال الاثنى عشر أو الاربعة عشر شهرا التى سوف أقضيها هناك سأستخدم ساعات فراغى لا تعلم الألمانية واتصفح مجلدى « بونيس » فى علم تركيب الأعضاء اللذين كانا يملآن حقيبتى الصغيرة في ظهر العربة مع مؤلفاتك يا أستاذى العزيز ومع كتاب « الاخلاق » وعدة مؤلفات للمسيو ريبو والمسيو تين وهربرت سبنسر وبعض قصص تحليل والكتب اللازمة لاعداد أجازة الليسانس . كنت اؤمل أن أتقدم لهذا الامتحان فى شهر يوليه . وحملت معى كراسة بيضاء أعددتها لتدوين المذكرات التى كنت أمنى نفسى بكتابتها عن مضيفى . كنت قد عاهدت نفسى على تحليلهم نقطة نقطة واشتريت خصيصا لذلك قبل رحيلى كتابا حرصت على اخفائه ودونت على أول صفحة فيه تلك الجملة المنقولة عن « تشريح الارادة » : « ان سبينوزا كان يفاخر بدراسته العواطف البشرية كما يدرس الرياضى أشكاله الهندسية ، أما العالم النفسى العصرى فيتحتم عليه

أن يدرسها كما تدرس العناصر الكيميائية الممتزجة فى وعاء التقطير ومما يؤسف له أن هذا الوعاء ليس شفافاً ولا هين الاستعمال كأوعية المعامل الكيميائية . . . ، وانى لأقص عليك هذه الأمور الصبيانية لأبرهن لك على صميم اخلاصى وإلى أى حد كنت - والمركبة تقطع الطريق إلى عايدات - قليل الشبه بذلك الشاب الطامع الفقير الذى امتلأت شتى الأقاصيص بوصفه . وأذكر أننى بفضل ميلى الطبيعى إلى الازدواج - شعرت منذ تلك اللحظة بهذا الفرق فى كثير من الأنانية . فتذكرت جوليان سورل - فى قصة الأحمر والأبيض - داخلا على المسيورينال - وغوايات روبامبريه فى بلزاك أمام منزل بارجتون وبضع صفحات كذلك من فنتجراس لفاليس . كنت أحلل الشعور الذى يستتر وراء مطامع أو ثورات مختلف أولئك الأبطال . فكنت أجد فيها كلها دهشة الانتقال من عالم إلى آخر .

ولم أجد في نفسى أى أثر لدهشة الطمع الجاشع أو الحقد فكنت أنظر إلى الماركيز وهو يغط فى نومه بعد ظهر ذلك اليوم البارد من شهر نوفمبر وهو متدثر فى فراء كانت رقبته تكاد تستر وجهه . وفوق ركبتيه غطاء

من الصوف اللين القاتم ليق ساقيه وفى يديه القابضتين على الغطاء قفاز من الجلد الأشهب المطرز بالسواد ، وعلى رأسه قبعة من جوخ أقرب فى نعومته إلى الحرير تنزل حتى عينيه . إن هذه التفاصيل كافية للدلالة على نوع من المعيشة يختلف تماماً عن معيشتنا ويتنافى مع فقر وضآلة اقتصاد داخليتنا التى كانت رعاية أمى ونظافتها الدقيقة وحدها تنقذها من الشقاء . كنت أسر لعدم شعورى بأدنى رغبة أو ذرة حسد ازاء هذه المظاهر التى تدل على الثروة العظيمة ـ لا حسد ولا تواضع . كنت قابضاً على زمام نفسى مالكا لقيادها ومدرعاً ضد الميول الدنيئة بفضل مذهبى ، وهو مذهبك ، وبفضل عظمة أفكارى وسموها . وانى لأرسمن لك صورة وافية لنفسى فى تلك اللحظة لو أضفت إلى ما تقدم أننى قطعت على نفسى عهداً أن أحذف الحب من برنامج حياتى . كنت قد وقعت فى مغامرة صغيرة عقب مغامرتى مع ماريان ، ولم أذكرها لك ، مع زوجة مدرس فى الليسيه غبية إلى أبعد مدى ، ومع ذلك فانها كانت دعية إلى حد أننى قطعت علاقتى بها وأنا أكثر ما أكون تشبثاً فى احتقارى لجهل السيدة ، كما كنت أقول تشبها بشوبنهاور ، وكذلك فى

اشمئزازى من الشهوة البدنية . إننى أنسب النفور نحو البدن، ذلك النفور الذى احتل عندى مكانة القصائد الروحية، إلى التأثير العميق الذى تخلفه النظم الكاثوليكية العميقة ولقد كنت أعلم جيدا ، لسابق اختبارى ذلك مراراً ، أن هذا النفور غير كاف ليحول دون سقوطى فى حمأة الشهوة . ولكننى كنت أعلم إلى جانب ذلك أن تلك الرغبة تتولد فى ، كما كانت الحال فى عهد اختلاطى بماريان مثلا ، لاعتقادى بسهولة اشباع تلك الرغبة متى شئت . ولذلك وطدت عزمى على استغلال عزلتى فى القصر لأتحرر من جميع النزعات وأطبق مثل الحكيم القديم : « يجب أن يدمج الجنس بالدماغ » من جميع وجوهه وبكل ما فيه من قوة . آه ! التعبد لدماغى ولشخصى المفكر ! لشد ما شعرت بهذا الميل قوياً حتى لقد فكرت فى دراسة قوانين الصوامع لأطبقها على تربية هذه الفكرة . أجل . لقد اعتزمت أن أخصص فى كل يوم ردحاً من الزمن كما يفعل النساك للتأمل فى بعض مواد ايمانى وعقيدتى الفلسفية ، وأحتفل فى كل يوم ، كما يفعل النساك، بعيد أحد قديسي أنا ، كسبينوز وهوبس وستندهال وستوارت ميل وأنت يا أستاذى !

العزيز فأتمثل صورة ومبادىء الملهم وأتشبع بمبادئه ومذاهبه وأنسج على منواله . إننى لأفهم جيداً أن كل هذه الأشـــياء ناتجة عن مخيلة يافعـة ساذجة أو قل ما يكون أفهم منها ، كما ترى أنت ، أننى لست ذلك السوقى الذى تصمه تلك الأسرة اليوم بوصمة العار ، ولا ذلك الدساس الذى يحلم بزواج رفيع الشـأن . وإذا كانت فكرة اغراء الآنسة دى جوسا قد تطرقت إلى ذهنى فانها لم تتطرق على حد ما يقال إلا عن طريق التطور والالهام بدافع الظروف .

« وانني لا أكتب اليك لأصف لك نفسى فى وضع خيالى . ولا أرى لماذا أخفى عنك القول بأن أهم تلك الظروف وأولاها التى دفعتنى إلى عملية الغواية — وقد كانت بعيدة عن مخيلتى عند وصولى — هو التأثير الذى أحدثه فى نفسى الكونت أندريه شقيق تلك المائتة المسكينة التى تمثل ذكراها الآن إلى ذهنى حية فتعذبنى خصوصا وقد قربت فى حديثى هـذا من سرد تفاصيل هـذه المأساة . ولكن ، فلنرجع إلى عهد وصولى ...

كانت الساعة تقرب من الخامسـة . وازدادت سرعة المركبة . واستيقظ الماركيز فاشـار إلى لوحة الماء

المضطربة فى بحيرة عايدات التى اصطبغت بلون وردى تحت تأثير الشمس وقد مالت إلى الغروب وراء الأغصان اليابسة وأشجار الزان والسنديان . وهناك كان يقوم القصر ، وهو عبارة عن بناء كبير على الطراز الحديث أبيض اللون تعلوه أبراج تناطح الفضاء وأسطحة مثلثة الأركان مدببة الأطراف ، وكان منظره يتجلى بوضوح كلما اقتربنا منه ثم قبة جرس كنيسة البلدة - وكان احرى أن تسمى ضيعة - وهى تشرف على أعالى المنازل القليلة الوضيعة المتناثرة . واجتزنا القبة وسرنا فى طريق الأشجار المؤدية إلى القصر ولم نلبث أن أدركنا الدرج الخارجى ومنه إلى ردهة فسيحة بداخل القصر دلفنا منها إلى حجرة الاستقبال . لشد ما كانت عليه تلك الحجرة من الهدوء والسكينة تضيئها مصابيح كبيرة إلى جانب الضوء المنبعث من النار المضطرمة فى المدفأة .

ووقع نظرى على الماركيزة دى جوسا وهى تطرز مع ابنتها بعض أشغال التخريم تعدانها للفقراء . وكان الفتى الذى سيكون تلميذى يتصفح كتاباً مصوراً الى جانب البيانو المفتوح وقد نشرت عليه قطعة موسيقية . وانتحت وصيفة الآنسة شارلوت مع راهبة مكاناً قصياً

فى الحجرة وهما تحيكان . وكان الكونت أندريه يتصفح جريدة وضعها من يده عند دخولنا . أجل . لقد كانت الحجرة آمنة هادئة . ومن كان ليتوهم أن دخولى اليها سيكون فاتحة زوال هـذا الأمن والهدوء عن هؤلاء الأشخاص الذين أتخيل الآن صورتهم واضحة جلية على لوحة ذكرياتى البعيدة ؟ إنى لأتمثل وجه الماركيزة، تلك المرأة العظيمة القوية التى تختلف تماماً بتقاطيع وجهها عما كانت تتخيله ذاكرتى في أمثال هذه السيدة من البيوتات الكبيرة . حقاً لقد كانت مثال ربة الدار التى حدثنى عنها الماركيز ، ولكنها كانت ربة دار وافرة التربية غزيرة التعليم حتى إنها ، وإن كانت بدأتنى الحديث العادى عن الطقس الجميل الذى صادفنا في رحلتنا ، أشعرتنى بتلك العظمة التى أزالت عنى ما كان تملكنى من الارتباك وأتمثل كذلك ملامح وجه الآنسة أليزا لارجيكس الوصيفة وماقرأته عليه من ابتسامة الفتيات المسنات اللواتى لاعمل لهن إلا الموافقة على مايقال ومايراد واللواتى يمثلن طابع الخدمة الهنيئة والحياة الهادئة بما فيهما من استسلام وخنوع . وأتمثل الراهبة أناكلت بعينيها القرويتين وفمها النحيل وقد كانت ملازمة للقصر للعناية

بشؤون المار كيز وتمريضه إذا ماانتابته النوبات . وأتمثل لوسيان الصغير ووجنتيه المنتفختين كوجنات الكسالى من الأطفال . وأتمثل تلك التى لم تعد من سكان هذه الأرض بقوامها النحيل، يشف عنه ثوبها الناصع، وعينيها الصافيتين الوديعتين وشعرها الكستنائى وتقاطيع وجهها المستطيلة وتلك الحركة التى كانت تأتيها بيدها إذا ما تقدمت الى أبيها بقدح من الشاى ليقيه برد الطريق.
نني أسمع صوتها تخاطب المار كيز :

— « أبتاه . هل رأيت كيف كانت البحيرة وردية فى هذا المساء ؟ . . . »

وأسمع صوت المسيودى جوسا وهو يجيبها بين جرعتين من الشراب :

— إنما رأيت ضباباً فى المزارع « وروماتزم » فى الهواء . . . » إننى أسمع صوت الكونت أندريه يقول :

— « أجل . لشد ما أحب ضرب النار غداً . . . » — ثم التفت إلى قائلا : « هل تصطاد يامسيو جرسلو ؟ . . . »

— فأجبته : « كلا ياسيدى »

— وسألنى أيضاً : « وهل تركب الخيل ؟ »

— « ولا هذا أيضاً . »

— فأجاب ضاحكا : « إننى أسف لك . إنهما لاحب الملذات التى أعرفها . »

« إن هذا الحوار القليل ليدلك لماذا جعلتنى هذه الجمل البسيطة أنظر الى أندريه دى جوسا بمثابة مخلوق يختلف تماماً عمن عرفتهم الى ذلك العهد ، ولماذا ، عندما صعدت الى حجرتى حيث بدأ أحد الخدم فى أعداد حوائجى ، أخذت أفكر فيه أكثر مما فكرت فى أخته اللطيفة الناعمة ، ولا لماذا لم أحصر فكرى وملاحظتى إلا فيه على مائدة العشاء وطوال السهرة . على أن دهشتى الساذجة حيال الفتى الفتى المتكبر كانت نتيجة واقعة بسيطة جدا . كنت قد نشأت حتى تلك اللحظة فى بيئة من المفكرين حيث لا تقدير ولا اعتبار لغير مايوصى به العقل والتفكير . وعاشرت أخداناً هم من النابهين البارزين فى الدراسة فكانوا كلهم يمتازون بضعف البنية مثلى . ولم أعبأ البتة بسواهم ممن برعوا في الرياضة البدنية ومن كانوا يجدون فيها وسيلة لاشباع غريزتهم البهيمية . أن جميع من كنت أميزهم من أساتذتى وبعض أصدقاء أبى كانوا ، هم أيضاً ، من المفكرين . فكنت كلما رغبت فى تصوير أبطال القصص من وراء مطالعتى ، تخيلتهم

في شكل أداة عقلية لاتخلو من التعقيد ولم أتخيل تكوينهم الجثماني بتاتاً . ومجمل القول إننى اذا كنت قد فكرت فى العظمة التى تطفر من جمال النشاط الحيوانى وقوة البنية فى الرجل ، فان تفكيرى كان قاصرا على الناحية المجردة ، ولكننى لم أشعر بها . وكان الكونت أندريه ، وقد جاوز الثلاثين من عمره ، يمثل صورة صادقة بديعة لتلك العظمة . فتصور رجلا ربع القامة مفتول الساعدين كأنه مصارع ، عريض المنكبين مع قوام نحيل وأشارات تنم عن القوة والمرونة كتلك الاشارات التى تدل على أن الحركة تتوزع بدقة متناهية ، ويدين وساقين تتجلى فيها العصبية وتدل على أرومته وسلالته . والى جانب ذلك كله فقد كانت ملامح وجهه تنبىء عن العزيمة والحزم . ولون بشرته الضارب الى السمرة القاتمة يطفح منه الدم لما يسيل فيه من المواد الحديدية والكرويات الدموية . وكانت جبهته عريضة تعلوها هالة من الشعر الأسود الحالك . وعيناه صافيتان متقاربتان من أنف أقنى مما يكسب وجهه مسحة من خلق الطيور الجوارح . وفى النهاية كانت له ذقن في وسطها طابع يفصل جانبيها فتبدو على ملامح هذا الوجه دلائل الارادة القوية التى لا تتزعزع

ولا تقهر . فكأن الارادة قد تجسمت فى هذا الشخص حتى ليظهر أنه لا يوجد فى هذا الضابط، المتدرب على جميع التمرينات البدنية المتحفز للوثوب تلبية لداعى الشجاعة والأقدام، أية بادرة للتوازن بين التفكير والعمل ، وأن شخصيته تندمج بأكملها فى أقل حركة من حركاته وتطفر منها . ولقد رأيته ، منذ المساء الأول ، يمتطى صهوة جواده فخيل إلى أننى أرى أحد أشخاص قصة سنتور الخرافية. وشاهدته وهو يصوب فوهة مسدسه الى ورقة من أوراق اللعب جعلت هدفا على مدى ثلاثين خطوة فلا تخطىء رصاصة واحدة من العشرة التى يطلقها. ثم وهو يقفز فوق الحفرات ليلهو أثناء النزهة برشاقة الرياضى المحترف . وعلمت أنه تطوع فى الحرب ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وأنه خاض غمارها من بدئها حتى نهايتها ، وأنه عانى أشد المتاعب وأفظعها، وأنه كان يثير همم الجنود القدماء ويشدد عزيمتهم . كان يكفى ، لكيما أدرسه ، أن أنظر اليه فى تلك الليلة الأولى، وهو جالس الى المائدة يتناول طعام العشاء بتؤدة ومرح يملآن حب الحياة العميق . وكان قليل الكلام ، إذا تحدث سمعت لصوته رنة قوية ولهجة آمرة فأشعر بأننى

خيال مخلوق يختلف عنى تماما . فهو كامل فى تكوينه ونوعه .

« يخيل إلى وأنا أكتب اليك أن هذا المشهد قد وقع بالأمس وإننى أجلس اليهم وأنظر الى الماركيز وقد بدأ يلعب «البزيج» مع ابنته بعد العشاء. وأتحدث الى الماركيزة وأنا أختلس النظرات الى الكونت أندريه وهو يلعب «البليار» بمفرده . كنت أراه ، خلال فتحة فى الباب ، رشيقاً قوياً بلباس السهرة الخفيف الذى يرتديه والى طرف فمه سيجار أسود ، وهو يدفع الكرة بعصاته بدقة تتمثل فيها الرشاقة الى حدانى ، أنا تلميذك ، أنا المعجب الفخور بعظمة فكرتى ، كنت أتتبع مشدوها أقل حركات هذا الشاب الذى يلهو بذلك الضرب العادى من ضروب الرياضة ، وأشعر بنفس ذلك الاعجاب والحسد الذى يشعر بهما راهب فى القرون الوسطى ، متعلم ولكنه غير ماهر بألعاب العضلات القوية ، اذا مر به فارس وهو يختال فى ثيابه الحديدية .

« وإنى إذ أنطق بكلمة الحسد ، أتوسل إليك أن تحسن فهمى ولا تعزو إلى شيئاً من الخسة والدناءة ليست فى خلق ، فانى لم أحسد الكونت أندريه ، لا فى

تلك الليلة ولا في غضون الأيام التي تلتها ، على اسمه أو ثروته أو جاهه أو أية ميزة من المزايا الاجتماعية التي كان يتمتع بها وأنا خلو منها . ولم أشعر كذلك بذلك الحقد الغريب الذي يشعر به الذكر نحو الذكر ، والذي وصفته أنت أبدع وصف في صفحاتك عن الحب .

« كثيرا ما كان الضعف يظهر على أمي عند ما كانت تقول لي ، في طفولتي ، إنني طفل جميل . وقد كررت لي ذلك القول ماريان وخليلتي الأخرى . وقد تأكدت ، في غير حق ، إنه لا يوجد في ما ينفر ، لا في وجهي ولا في قوامي . وإنني لا أذكر ذلك على سبيل الغرور والزهو الباطل وإنما لأبرهن لك على أن الزهو الباطل لم يشترك بذرة ضئيلة في ذلك التنافس الفجائي الذي جعل مني ، منذ الساعات الأولى ، نداً يكاد يكون عدواً للكونت أندريه بدون أن يشك لحظة في ذلك . وإنني أكرر لك القول أن تلك الخصومة كانت تحوى من الإعجاب مقدار ما كانت تحويه من الكراهية . وقد أدى بي التفكير إلى أن أجد ، في الشعور الذي أحاول أن أشرحه لك أثراً لما قد آل إلى عن طريق الوراثة .

« ولقد سألت الماركيز فيما بعد ، وكنت فى ذلك أتملق إلى أنانيته ، عن نسب أسرة جوسا راندون . وأظننى كنت أعلم إنهم من سلالة الفاتحين الظافرين في حين أن مايسيل من الدم في عروق سليل المزارعين اللوريين الذى يكتب اليك هذه السطور ، هو من دماء أقوام مغلوبين مقهورين ، دماء الأجداد الارقاء المستعبدين لخدمة الأرض منذ أجيال عدة .

« حقا إنه ليوجد بين دماغى ودماغ الكونت أندريه من الفرق ما يوجد بين دماغى ودماغك يا أستاذى العزيز بل أكثر من ذلك لأننى أستطيع أنا ، أن أفهمك ، وإننى أتحداه أن يفهم واحداً من الأسباب التى أدلل بها ، حتى تلك التى أوردها لك الآن للتدليل على علاقاتنا ومدى تأثيرها . ولا أخشى أن أصارحك القول إننى رجل متمدين وإنه ليس إلا همجياً مستوحشاً على أننى أحسست فى الحال أن مابى من نعومة كان أقل نبلا مما يبدو عليه من وحشية وخشونة . ولقد أدركت فى أعماق غريزة الحياة التى تنساب اليها الفكرة فى كثير من المشقة والعناء ، حقيقة السر فى وجود الأولوية فى العنصر والجنس ، تلك الأولوية التى يؤيدها العلم الحديث

بوضوح . وما دامت تلك الاولوية صحيحة من حيث علاقتها بالطبيعة ، فيجب أن تكون كذلك من حيث علاقتها بالجنس البشرى .

«ولكن لماذا أنطق بكلمة الحسد الخاطئة فى التحدث عن الخصومات غير المعقولة كتلك التى أثارها الكونت فى نفسى ؟ ولماذا لا تكون تلك الخصومة موروثة هى أيضاً ككل شىء سواها ؟ إن اكتساب الجنس البشرى لما يتطلبه كيانه من الخلق ونشاط العزيمة يفرض قيام عدد لا يحصى من ذوى الارادة والعزم بتجارب عدة خلال أجيال متعاقبة . ومع ذلك فان اكتساب فكرة قوية يدل على تعاقب أناس أرادوا أقل مما فكروا وعملوا أقل مما تعقلوا . فنشأ بين الناس ، خلال هذه السنين الطوال وتعاقبها المستمر ، نوع من البغض والكراهية ، كان فى بعض الاحيان واضحا وفى البعض الآخر غامضا . وهذا ما جعل أفراد الفئة الأولى من الناس ينظرون بعين الكراهية والبغض إلى أفراد الفئة الثانية . فاذا التقى ممثلا فعل الاجيال ، وكان كل منهما بارزاً فى نوعه كما كنا نحن الاثنين ، الكونت وأنا ، فكيف يمكن الا ينتصب كل منهما فى وجه صاحبه كما

يفعل حيوانان من جنسين مختلفين ؟ أن الجواد الذى لم يقرب السباع البتة ليضطرب مذعوراً إذا ملىء مزوده بقش يكون قد افترشه أحد هذه الحيوانات الكاسرة . فالخوف إذن من العوامل الوراثية التى تنقل من السلف إلى الخلف . وهلا كان الخوف دائما مظهر من مظاهر الحقد ؟ فلماذا لا يكون الحقد من الامور التى تورث ؟ إن الحسد فى شتى الظروف يعبر عما فى نفوسنا من الاحقاد التى شعر بها أسلافنا وما زال أوارها مضطرما فى حنايا القلوب وإن كانت نيرانها قد أضرمت منذ آلاف السنين .

وهناك مثل سائر يقول أن الكراهية متبادلة . فاذا سلمنا بنظريتى عن أصل الكراهيات وانحدارها منذ أجيال ، فظاهرة التبادل تصبح أمراً بسيطا جداً . على انه يحدث أن تلك الكراهية لا تظهر على الطرفين فى وقت واحد كما هى الحال عند ما يترفع أحد الشخصين عن النظر الى الآخر أو أن الطرف الآخر يتنكر له . وانى لا أعتقد أن الكونت أندريه كان يشعر ، ساعة أن التقينا ، بما يشعر به الآن من كراهية واشمئزاز لو أنه سبر غور نفسى وقرأ ما يخالجها . وانه قليل الاهتمام

بذلك السوقى الوافد من كليرمون على القصر ليشغل فيه منصب رائد . ثم إنى تعمدت التنكر وإخفاء حقيقة ذاتى ما دامت سجينة عند هؤلاء الغرباء . ولم يكن اهتمامى بأظهار نفورى من ذلك الرياء والخبث أكثر من اهتمام بستانى أسرة جوسا بأشجار الحديقة ووقايتها من الثلج والبرد المتساقط للاحتفاظ بثمارها رطبة يانعة . ولقد كان الكذب فى التظاهر ، والموقف الذى طالما حملنى عليه ميلى إلى الازدواج منذ طفولتى ، يتناسبان تماما مع أنانيتى ومداركى العقلية لكى لا أستسلم لهما وأطبقهما بلذة وشغف . أما الكونت فلم يكن لديه ثمة ما يدعو لأن يخفى عنى شيئاً من خلقه . ولذلك فانه رجانى ، فى ذات الليلة التى وصلت فيها إلى القصر أن أوافيه فى مكتبه للتحدث قليلا قبل أن ألجأ إلى مخدعى . لم يعرنى اهتماما كبيراً وهو يخاطبنى فأدركت فى الحال أن غايته لم تكن لتوطيد الألفة بيننا وإنما ليزودنى بأفكاره فيما يراه هو فى دورى كرائد . كان يشغل فى القصر جناحا صغيراً مؤلفاً من ثلاثة حجر : مخدع للنوم وبهو للزينة وحجرة للتدخين حيث جلسنا ، وكان أثاث تلك الحجرة يتألف من إيوان كبير وبضعة

مقاعد ومكتب عريض . وكانت الجدران محلاة بمختلف
أنواع الأسلحة : بنادق مراكشية جيء بها من طنجة ،
وسيوف ، وبنادق من عهد الأمبراطورية الأولى ، وخوذة
جندي بروسي لفت الكونت نظري اليها عقب دخولنا
مباشرة . وأشعل غليوناً قصيراً من خشب الخلنج وملأ
قدحين من «الزبيب» أضاف اليه قليلا من ماء معدني ثم
تناول المصباح بيده وأضاء الخوذة النحاسية وهو
يقول لي :

« أما هذا فأنا على يقين من إنني جندلته بيدي .
لا يمكن أن تقدر ذلك الأحساس الذي يتملك المرء إذا
سدد بندقيته إلى عدوه ورماه برصاصة ورآه يسقط ثم
يخاطب نفسه : نقص العدد واحدا . . . حدث ذلك
في قرية لا تبعد عن أورليان . كنت قائماً بالحراسة
عند مطلع الفجر على زاوية المقبرة . وإذا بي أرى
رأساً تطل من أعلى الحائط وتنظر . وأعقب الرأس
كتفان . . . كان ذلك الفضولي الذي جاء ليرى ما ذا
كنا نفعل . ولكنه لم يرجع ليقص ما رأى . »

وأعاد المصباح وبعد أن ضحك لهذه الذكرى
عالياً تملك نفسه وعاودته رزانته . ورأيت أن اللياقة

تطلب مني أن أبلل شفتي بمزيج الكحول والماء المعدنى وإن كانت تنفر منه نفسى . واستطرد الكونت :

ــ « لقد تعمدت أن أتحدث اليك في هذا المساء لكي أوقفك على خلق لوسيان وارسم لك الخطة التى يجب اتباعها فى تدريسه . إن الرائد الذى جئت لتخلفه كان رجلا كاملا ولكنه كان ضعيف الأرادة جدا كما إنه كان متراخيا . وقد أيدت ترشيحك لأنك شاب حديث السن ، والشباب أصلح ما يكون للقيام بتلك المهمة مع لوسيان . . . إن التعليم فى نظرى ، يا سيدى لا يعد شيئاً بل هو أحيانا أقل من لاشيء إذا نتج عنه اضطراب الفكر وفساد الأخلاق . . . إن أعظم شيء فى الحياة ، وكان يجب أن أقول : « الشيء الوحيد » هو الاخلاق . . . »

« وكف عن الحديث قليلا كما لو كان يريد أن يستطلع رأيى . فأجبته بعبارة بسيطة عادية تعزز وجهة نظره . واستطرد الكونت :

ــ « حسناً جدا . لسوف نتفاهم . فى وقتنا هذا لا توجد فى فرنسا ، لمن كان يحمل اسما كأسمنا . مهنة يشغلها إلا مهنة واحدة : جنديا . . . وما دام زمام هذا

لد يد السفلة الطغام فيحكمونها في الداخل، وما دامت ألمانيا ترقبنا فى الخارج لتحاربنا ، فالمكان الوحيد اللائق بنا هو : الجيش . . . وأحمد الله على أن أبى وأمى يشاطرانى هذه الأفكار . لسوف يكون لوسيان جنديا وهو اذن لا يحتاج الى كثير من المعارف مهما تشدق به رجال اليوم فى ثرثرتهم . . . الشرف ، ورباطة الجأش ، وقوة الساعدين إذا توفرت فى الشاب مع حبه لفرنسا كانت كافية . لقد عانيت الأمرين لأنال شهادتى الدراسية . . . ومجمل القول ان السنة التى سنقضيها فى الريف يجب أن يقضيها لوسيان فى الهواء الطلق وحياة شاقة . أما الدروس فتقتصر على المناظرات والمحادثات . وألفت نظرك إلى الاهتمام بموضوع محادثاتك اهتماماً كبيراً . فتوقف همك على ما فيها من الناحية العلمية وعلى النظر إلى الأمور من ناحيتها الايجابية الصحيحة والعناية التامة بالمبادىء . ان أخى لا يخلو من بعض المعائب التى يجب أن تقوم من الآن . انه طيب القلب ولكنه بليد فيجب أن يعود نفسه على احتمال كل شىء كما يجب أن تحتم عليه الخروج إلى الهواء الطلق مهما كانت حالة الجو وان ترغمه

على السير ساعتين أو ثلاث ساعات فى كل يوم . انه لا يحافظ على موعد ويهمنى كثيراً أن يصبح دقيقاً كمقياس الزمن . ثم ان به ميلا إلى الكذب وهذا فى نظرى أفظع الرذائل . انى لاغتفر كل شىء للرجل . أجل أغتفر له كثيراً من الهفوات الجنونية . فقد كنت أول من ارتكبها ولكننى لن أغتفر فرية واحدة أبداً أبداً . . . لقد زودنا استاذ أبى الشيخ بمعلومات جديرة بالاعجاب عنك وعن طريقة معيشتك مع السيدة والدتك وعن كرامتك واستقامتك . وإنا لنعتمد كثيراً على تأثيرك ونفوذك . إن سنك يسمح لك بأن تكون من لوسيان بمثابة رفيق له بقدر ما أنت رائده . . . وأنت تعلم أن القدوة الحسنة خير مايدرس من العلوم . فاذا أنت قلت للجندى إن الشرف والجمال هما فى السير إلى خط النار فانه يصغى إليك دون أن يفهمك ولكنك إذا سرت أمامه بجسارة وأقدام فانه يكون أكثر أقداماً وجرأة منك . . . أما أنا فاننى لا ألبث أن الحق بفرقتى بعد بضعة أيام . على أنك ، سواء أكنت أنا غائباً أم حاضراً ، تستطيع أن تركن إلى وتعتمد على معونتى إذا دعت الحال إلى اتخاذ مايكون ناجعاً ليصبح

هذا الطفل رجلا ليخدم بلاده بشجاعة ، وإذا شاءالله ، يخدم مليكه . . . »

« ولم يكن فى هذا الحديث ، الذى أظننى نقلت اليك جميع عباراته بدقة وإخلاص ، مايحملنى على الدهشة . فقد كان من الطبيعى أن يحتل الابن الأرشد محل الرئاسة ، وأن يتحدث إلى الرائد يوم مجيئه بمثل هذا الحديث إذا كان رب البيت شيخا مختل الشعور والأم ربة بيت عادية والأخت فتاة حديثة السن شديدة الحياء . وانه لمن الطبيعى أيضاً أن يخاطبنى جندى من بيت عريق مشبع بأفكار بيئته ومهنته بلهجة الجندى الشريف . أما أنت ياأستاذى العزيز فلا يصعب عليك ، مع ماأنت عليه من تفوق في تفهم الطبائع البشرية ، ومقدرة على استخلاص الرابطة الحقيقية التى تربط الأمزجة والبيئة إلى الأفكار ، أن ترى فى الكونت أندريه حالة نفسية معنوية خاصة . . . وأما أنا ، فلماذا أعددت سجلى المقفل ان لم يكن لجمع مثل هذا النوع من الوثائق عن الطبيعة البشرية ؟ وهلا يعد جديداً كل مارأيته فى شخص هذا الضابط الفذ الساذج الذى يكشف عن طريقة في التفكير تماثل طريقته فى الحياة والتنفس والتنقل والتدخين

والأكل ؟ إننى لاعترف بأن فلسفتى لم تكن لى بمثابة الدم فى الشرايين أو النخاع فى العظام . لأن هذه الخطبة وما انطوت عليه من العقائد لم ترق لى بما تضمنته من المنطق النادر فحسب ولكنها قد ألهبت فى نفسى جروح الكراهية وأدمتها فجأة . وربما أثرت فى عزة نفسى لأننى ، فى الواقع ، كنت أمثل الضعيف الهزيل حيال القوى . على أننى واثق تمام الثقة من تأثيرها فى دقائق شعورى واحساسى . لم أقم عياراً لأية فكرة من الأفكار التى بسطها لى الكونت ، فقد كانت فى نظرى مجرد اعتبارات حمقاء . وهاندا أرانى لا أحتقر هذه الحماقات كما كنت أفعل فى أية مناسبة أخرى وانما أمقتها وهو يتشدق بها أمامى .

« مهنة الجندى ؟ لقد طالما نظرت إليها نظرة احتقار لما تنطوى عليه من العلاقات الوحشية وما فيها من ضياع الوقت . واننى لأبتهج لكونى ابن أرملة فقد نجوت بفضل ذلك من وحشية المعسكرات ومتاعب النظام .

« الحقد على المانيا ؟ لقد عملت جهدى على تحطيم هذا الشعور فى نفسى كما لو كنت أحطم أفظع الأوهام . وقد حملنى على ذلك اشمئزازى من رفاق البلهاء الذين

كنت أراهم يتحمسون فى وطنية عمياء كما حملنى عليه إعجابى وعبادتى للشعب الذى يدين له علم النفس بوجود أمثال « كانت » و « شوبنهاور » و « ولوتز » و « فشنر » و « هلمهولتز » و « ندت » .

« العقيدة السياسية ؟ لقد طالما جهرت بالازدراء من الافتراضات التى تنادى بحكم البلاد طبقاً لمبدأ معلوم تحت ستار الملكية أو الجمهورية أو الامبراطورية . ولقد طالما عللت نفسى مع مؤلف « الحوار الفلسفى » بحكومة يتولاها طائفة من العلماء . بحكومة مستبدة يؤلفها فريق من علماء النفس والاقتصاد وعلماء وظائف الأعضاء والتاريخ .

« الحياة العملية ؟ الا انها لضرب من الحياة المشوهة الناقصة لمن هو مثلى لا ينظر إلى الحياة الظاهرية إلا باعتبار انها ساحة فسيحة للاختبارات تستطيع النفس المحررة من القيود أن تغامر فيها مقداراً من الوقت يكفى لتجنى ما يصادفها من اضطراب وقلق .

« وفى النهاية . ان ما كان يجهر به محدثى من احتقاره للمين كان يلذعنى كأفظع الاهانات وأحطها . وكذلك نقمته العمياء في خلق كانت تضايقنى وتجرحنى وتؤلمنى

لأنها كانت قائمة على صورة منافية لصورتى الحقيقية.
حقاً لقد كان التناقض بيناً شيقاً . فقد كنت أتظاهر بتلك الشخصية التى صورنى بها صديق أبى القديم. وكان يلذ لى من بعض الوجوه ان ينظر إلى على هذا الاعتبار . ولقد تملكت نفسى ثورة من الغضب لأن الكونت لم يشعر بشيء من الريبة نحوى . وإلى جانب ذلك توجد ناحية في القلب كانت تفسد على تحليلى . فأى معنى لذلك كله سوى اننا لا نفهم أبداً حقيقة أنفسنا تماماً ؟ لقد عبرت ، أنت يا أستاذى ، عن ذلك فى كثير من الجزل والعظمة حيث قلت : « ان حالات ضميرنا شبيهة بمحيط من الظلمات يخفى ما فى طواياه . وإنه لمن واجب المشتغل بعلم النفس أن يحذر - بعد البحث والتنقيب الدقيق - أين تقع الأرض التى تقوم عليها الجزر وتعد لها بمثابة القمم الظاهرة من سلسلة تلك الجبال المتصلة ببعضها تحت خضم المياه المتحركة » .

« لئن افضت فى الحديث عن تلك الليلة التى اعقبت وصولى الى القصر فليس لان عواقبها قد تجلت فى الحال . فقد انصرفت من لدن الكونت اندريه بعد ان أكدت له موافقتى على وجهة نظره فى توجيه أخيه الصغير .

وما ان صعدت إلى مخدعى حتى دونت أقواله فى سجل مذكراتى وعقبت عليها بما ينم عن الاحتقار . ولكنك ستدرك ، من ذلك الشعور الذى أصابنى ، تأثير الانفعالات النفسية التى تلته ، والثوبة الفجائية التى نتجت عنها وان كانت طبيعية . فتلك تمثل إحدى السلاسل المستترة تحت سطح الماء التى تتحدث عنها . وإ . لأجد اليوم تفصيلها وافيا جلياً بعد ان جست فى اعماق نفسي باحثا منقباً . لقد تأثرت بكتبك يا أستاذى العزيز ، كما تأثرت أيضا بما ضربته من الأمثال فى حياتك ، تأثيراً كبيراً بعيد المدى . فاندمجت فى الأعمال التى تتطلب أحكام العقل والتفكير ، وانقطعت اليها ، حتى لقد ايقنت ، كما اسلفت لك القول ، انى قهرت ميولى الشهوانية وعففت عنها وزهدت فيها تماما اذ كنت أجد لذة عنيفة لاذعة فى مطالعاتى الاثيمة بل وفيما كان يعتورنى من القرف من علاقاتى الشهوانية بما ريان . اننا لاشك نحتفظ فى دخيلتنا ببعض نواحى النفس التى توهمنا بانها تلاشت واندرست فى حين أنها منكمشة ناعسة متحفزة للوثوب . وسرعان ما تجلت لى تلك الحقيقة فلم ينقض خمسة عشر يوما على اختلاطى بهذا

الرجل الذى يكبرنى بتسعة أو عشرة أعوام ويمثل أمامى الحقيقة والنشاط حتى تجلت لى حياة التسليم بالنظريات التى طالما تاقت اليها نفسى فيما مضى وبدت لى فى صورة، بماذا عسانى أن أسميها ؟ . . . صورة دنيئة ؟ أوه ! كلا . فما كنت لأرضى بأن أكون مكان الكونت أندريه وأتمتع بلقبه وثروته وميزاته الجسمانية وأفكاره ولو أعطيت فى سبيل ذلك ملكا بأسره ! . . . أم صورة مشوهة ، ذابلة ؟ . . . ولا ذلك أيضاً . فقد كان يكفينى أن أتخيل الرؤيا الوحيدة التى أحتفظ بها منك وهى تمثلك واقفاً عند شرفة مكتبك وأمامك منظر تلك القرية الباريسية الشاسعة الحزينة لكى تعاودنى لذة الاستمتاع بالخيال الشعرى . يخيل إلى أن كلمة « ناقصة » هى الكلمة الوحيدة التى تعبر عن الاستنكار الغريب الذى أحدثه فى عقائدى الخاصة ، ذلك التشبيه الفجائى بين الكونت وبينى . ولا أخفيك أن المبدأ الذى أغرانى وصيرنى فريسة له كان ملازما لشعورى بهذا النقص . وليس ثمة ما يدعو إلى الغرابة ، على ما أظن ، فى تلك الحالة النفسية عند رجل عنى إلى أبعد مدى بتربية قواه العقلية والفكرية إذا هو التقى برجل آخر عنى من جانبه بتربية

قوته الجسمية بنفس تلك العناية ، وشعر ، عقب تلك المقابلة ، بحنين إلى تلك القوة الجسمية وان كان مع ذلك يحتقرها . ان جوته استلهم الوحى الذى كتب به فوست من ذلك الحنين . أما أنا فلم أكن فوست ، ولم أجرع كالطبيب الشيخ كؤوس العلم حتى آخر نبغة . ومع ذلك يجب التسليم بأن دراساتى فى السنين الأخيرة ـ وقد تحمست بها بشكل خاص ـ قد تركت فى نفسى قوة لم تستغل . وأن هذه قد اختلجت إذ شعرت بدنو عنصر آخر منها ومزاحمته لها . ولقد كنت خلال الأيام التى تلت . أعجب به وأغبطه وأحتقره فى آن واحد . ومع ذلك فاننى لم أستطع أن أمنع رأسى من التفكير فيه وأحول دون اتجاه أفكارى اليه . فكنت أفكر قائلا : إن الرجل الذى يجمع في شخصه بين ما يمتاز به هذا الشاب من الجرأة والاقدام وما أمتاز به أنا من التفكير لهو فى الحقيقة الرجل الفذ الذى طالما تمنيت أن أكونه . »

ولكن هل يتحد العمل والفكرة وهلا ينفى أحدهما الآخر ؟ أما فى عصر النهضة الأدبية فان العمل والفكرة لم يتنافيا . وكذلك كانت الحال فى عصر أقرب الينا . لم يتنافيا عند جوته الذى جمع في نفسه شخصية بطله

فوست المزدوجة فهو تارة فيلسوف ومتملق وطور شاعر ووزير . وكذلك عند ستندهال فقد كان قصصياً وضابطاً فى فرقة الدراغون . ولا عند كونستان فهو مؤلف «أدولف» وخطيب مفوه نارى، ثم إنه كان، إلى جانب ذلك، مبارزاً مقامراً مخادعا . فهل كان يمكن أن تفلح تربيتى لشخصيتى الذاتية التى اعتبرتها النتيجة النهائية والغاية السامية لقصائدى لولا تلاعب تلك القوى ولولا موازنة الحياة التى عشناها على الحياة التى قضيناها فى التفكير ؟ قد تكون الأنانية هى التى جعلتنى أشعر لأول مرة بالأسف على حرمانى من عالم بأسره هو عالم الوقائع . ولكن الشعور عندى يتحول سريعاً، وبفضل طبيعتى الفلسفية، إلى أفكار . وأقل الحوادث تحملنى على التفكير فى مسائل عامة ، كما أن كل حادثة مهما كانت بسيطة كانت تقودنى إلى البحث فى نظريات عن الحظ والقسمة فكنت أسائل نفسى عما إذا كنت لم أخطىء فى تقديرى لشريعة التكوين والنمو بدلا من أن أجارى غيرى وأفكر كما يفكر أى شاب آخر حيث يقول لنفسه : «من الأسف ان الحظ لم يسمح لى الا بنوع واحد من النمو» وانى، منذ حررت

نفسى وحطمت قيود الوساوس الدينية التافهة بفضل
مطالعتى لكتبك البديعة ، لم احتفظ الا بواحدة من
عاداتى الدينية وهى فحص ضميرى فى كل يوم ، فأدونه
فى شكل مذكرات يومية وأؤدى من آن لآخر ، ما كنت
أسميه فريضة الصلاة . كنت اشعر بمتعة غريبة ، كما قلت
لك ، عندما كنت اطبق الالفاظ الدينية على احساسى
الشخصى . كنت اطلق على هذا العمل اسم « نظام شخصيتى
الذاتية » . وانى لأذكر أنه حدث لى فى مساء يوم من
الاسبوع الثانى الذى قضيته فى قصر دى جوسا ، انى
قضيت بضع ساعات في تدوين اعتراف شامل ، اعنى
انى اخذت ارسم صورة كاملة لمختلف غرائزى منذ ابعد
عهد تيقظ فيه ضميرى . ووصلت فى بحثى الى الاستنتاج
بان أهم نقطة تمتاز بها طبيعتى ، وأهم ما يمتاز به كيانى ،
كان دائما قوة الازدواج كما اسلفت لك فى بدء هذه
المذكرة ، وهذا يدل على انه يوجد لدى استعداد واتجاه
ثابت الى ان أكون شهوانيا ومفكراً معاً ، وان أتمتع
بالحياة وفى نفس الوقت انظر إلى نفسى وهى تتمتع
بالحياة . ولكننى ما دمت قد قيدت نفسى ووقفتها على
التفكير الطاهر كما اردت ، وما دمت قد اهملت التمتع

بالحياة لكى لا أكون إلا عينا شاخصة تنظر الى الحياة، فهلا اكون بعملى هذا قد عرضت بنفسى لان اصبح أشبه بذلك المسكين « اميل » الذى نشرت مذكراته حديثا ، وان يجف معين تفكيرى لافراطى واسترسالى فى التحليل بلا جدوى ؟ عبثا كانت صورتك تتمثل امام مخيلتى ، ياستاذى العزيز ، لتشدد من عزيمتى وتساعدنى على الحياة حياة مجردة . كنت اتذكر أقوالك عن الحب فى كتابك « نظرية الشهوات » ، فكنت أقول لنفسى : « لم يكن في جميع ادوار حياته ما هو عليه الآن ، ولابد أن سرا جنائيا قد أثر على طفولته » فكنت اتخيلك يافعاً فى سنى مستسلماً الى اجراء التجارب الآثمة كتلك التى كانت تساور افكارى المضطربة المظلمة وتغربنى . »

وإنى لا أدرى إذا كنت ستجد هذا التحليل واضحاً لما فيه من التعقيد على الرغم مما انطوى عليه من الصراحة والاخلاص . لأن العمل الذى يوجد فينـــا التأثر والانفعال ، ثم يستحيل إلى فكرة يظل مبهماً إلى حد ان هذه الفكرة قد تعبر غالباً على عكس ما يقصده منها العقل البسيط ! فهلا كان من الطبعى مثلا أن تؤدى الكراهية ،

التي نشأت عندي من اعجابي بالكونت عند مقابلتي له ، إلى الاشمئزاز الصارخ أو إلى الاعجاب الكلي ؟ ففي الحالة الأولى كان يجب على أن أندفع نحو العلم أكثر مما فعلت . وفي الحالة الثانية ، كان يجب أن أنمى لنفسي خلقاً عاملا ورجولة أظهر في أعمالي ؟ أجل كان يجب على ذلك . ولما كان طبع الفرد يمثل طبيعته ، فان طبيعتي كانت تحتم على أن تتحول الكراهية الناشئة عن اعجابي بالكونت إلى مبدأ نقد نحو نفسي ، وان هذا النقد أوجد عندي نظرية في الحياة لا تخلو من جديد ، وان تلك النظرية أيقظت ميلي الطبيعي إلى الفضول الشهواني، وان كل ذلك قد استحال إلى حنين للاختبارات الغرامية . وشاءت الصدفة أن تعترضني ، في تلك اللحظة وأنا في عزلتي مع نفسي، فتاة ، كان مجرد وجودها كافياً ليثير ، في أي فتى في سني ، رغبة العمل على نيل اعجابها . بيد انني كنت فتى عملياً متعقلا . فكان لا يمكن لتلك الرغبة أن تتولد في قلبي بدون أن تخترق رأسي ، أو قل ما يكون إذا كنت قد تأثرت بسحر هذه الفتاة ورقة شعورها وهي لما تبلغ العشرين ، فانني قد تأثرت بهما وأنا أعتقد انني أعقل ذلك . »

« تمر بى ساعات كنت أسائل نفسى خلالها عما إذا كان ذلك صحيحاً وعما إذا كانت قصتى ليست من الأمور العادية التافهة ، وأقول لنفسى : « أما اننى أحببت شارلوت فلأنها كانت جميلة رقيقة الشعور وديعة الخلق ولأننى كنت فتياً يافعاً . ثم أنتحل أعذاراً أعزوها إلى الدماغ لأننى كنت من المتعصبين الأنانيين المتحيزين لتأثير الفكر ، وأرفض أن أكون قد أحببت كما يحب أى فرد آخر » - لشد ما كان تعليلى هذا يفرج عنى ! واننى لأستطيع أن أرثى لنفسى لا أن أنفر منها مذعوراً كما يحدث لى عند ما أتذكر ما فكرت فيه إذ ذاك ، وما داعبت به نفسى وأصررت على تنفيـذه بعد أن اختمر فى ذهنى ، إلى غير ذلك مما دونته فى كراستى وعدلته الحوادث . ذلك الاصرار على إغراء تلك الطفلة ، دون أن أحبها ، ولمجرد اشباع فضول باحث نفسانى ولمجرد لذة ارتكاب مثل هـذا العمل والعبث بنفس تمثل معنى الحياة كاملة ومشـاهدة سير ذلك الجهاز الشهوانى وتأثيره عملياً بعد دراسته نظرياً ، ذلك الاصرار إذن لم يكن إلا لارضاء أنانيتى وزهوى وإثراء ذهنى ومخيلتى باضافة اختبار جديد . أجل هذا ما قصدت إليه

وأردته وكان لا يمكننى إلا أن أقصد إليه وأريده نظراً للبيئة التى نشأت فيها وما ورثته عنها والتربية التى شرحتها لك وذلك الانتقال إلى بيئة جديدة قذفت بى فيها يد المصادفة وما أصابنى فى تلك البيئة من الانفعالات المثيرة وروح الخصومة العنيفة الوحشية التى شعرت بها نحو هذا الند السفيه البطر .

« ومع ذلك . كم كان جديرا بهذه الفتاة الطاهرة السليمة النية أن تلتق بآخر سواى لا يكون أداة عقلية أو آلة حسابية صماء ! لشد ما يتألم فؤادى ويدمى لمجرد التفكير في ذلك على الرغم من اننى طالما وددت أن أكون فظاً دقيقاً أشبه بتقرير يدلى به الطبيب عقب تشخيص الداء .

« أما هى فلم أعن بها مذ التقينا فى الليلة الأولى فلم يكن فى طلعتها وملامح وجهها ولون بشرتها ما يدل على الدقة ولا العظمة التى تستوقف النظر لأول وهلة ، وتحمل على الاعتراف للمرأة بأنها رائعة جميلة . ومع ذلك فكل شىء فى محياها كان دليلا على الرقة والحياء ، وكل شىء فى تكوين جسمها الغض ، حتى لون شعرها الأشقر وحاجبيها المقوستين فى وسط هذا الوجه الوردى

الشاحب ، كان يمثل النبل وكرم المحتد . وإنه لا يسع من يدرس ، فى شىء من الدقة والعناية ، ملامح هذا الوجه وهذين الساعدين النحيلتين والساقين المشوقتين اللتين يرتكز عليهما ذلك الجسم الفتى ، حتى يعترف بما انطوت عليه من دقة ووداعة . وهى وان كانت صغيرة يافعة إلا أنها كانت تبدو كبيرة نظرا لما يتجلى فيها من الانفة والخيلاء . .

« فاذا كان الكونت أندريه يمثل أحد أولئك الاجداد الذين ينحدر منهم تمثيلا صادقا بما آل اليه منهم من طريق الوراثة ، فقد كانت هى تشبه أباها إلى حد أنه كان لا يمكن التسليم بهذا الشبه إذا غاب أحدهما عن الآخر . ومع ذلك فقد كان من السهل أن يلاحظ عليها تأثير الحالات العصبية التى كانت تنتاب أباها وتخلق عنده مرض السويداء . وكانت شارلوت رقيقة الشعور شديدة التأثر والانفعال حتى تكاد تكون مريضة . فكانت تنتابها فى بعض الأحيان هزة خفيفة في يديها وتتناول شفتيها الملتويتين المغريتين بما تنطويان عليه من رقة تكاد تكون إلهية . وكانت ذقنها قوية تدل على إرادة شديدة وعزيمة ثابتة فى هذا الهيكل النحيف . وأنى لأدرك اليوم

أن تلك النظرات العميقة الجامدة كانت تنم عن اتجاه مشئوم نحو فكرة ثابتة . كيف كان يتسنى لى أن أميز هذا الأمر إذ ذاك ؟ ان أول مااسترعى نظرى فيها - وكان ذلك فى الأسبوع الثانى من وصولى - هو حلمها البالغ وكان ذلك بفضل لوسيان الصغير، فكثيراً مابلغنى هذا الطفل أنها رجته أن يقف منى عما إذا كان يعوزنى شيء فى مخدعى . ان هذا السؤال، وإن كان تافها وبسيطاً فى حد ذاته ، إلا أنه أثر فى لأننى كنت أشعر بالوحشة فى هذا البيت الكبير حيث لم يهتم أحد بى منذ وصولى . فكان الماركيز لايظهر إلا فى ميعاد الطعام وهو ملتف بمعطفه ولايتكلم إلا ليئن من صحته ومن السياسة . والماركيزة لاتهتم لشؤون القصر ومايتطلبه من أساليب الراحة فتقضى ساعات طوال في محاضرة صانع جيء به من كليرمون . والكونت أندريه يمتطى صهوة جواده فى الصباح المبكر ويصطاد بعد الظهر ، وفى المساء يدخن سيجاره دون أن يوجه إلى كلمة . والوصيفة والراهبة تتناظران وترمقاننى بنظرات خفية تثلجنى فى مكانى . وتلميذى كان صبيا كسولا وثقيلا لايتمتع إلا بفضيلة واحدة وهى السذاجة والاستسلام إلى . فكنت

استوضحه ما أريد الوقوف عليه عنه وعن ذويه .
فعرفت ، بفضل ذلك ، ان أقامة الأسرة فى الريف فى هذا العام كانت بايعاز من الكونت اندريه ، وهذا لم يدهشنى، لأننى استوثقت ، مما شاهدت ، من أنه كان رب تلك الأسرة الحقيق . وعرفت أنه فى العام السابق رغب فى أن يزوج اخته من أحد رفاقه المسيو دى بلان ، وأن أخته قد رفضت ، فسافر هذا الرفيق إلى تونكين .
وعرفت ... ولكن ماذا يهم هذا التفصيل ؟ وفى حصتى التدريس اليوميتين ـ صباحاً من الساعة الثامنة إلى منتصف الساعة العاشرة وبعد الظهر من الساعة الثالثة إلى منتصف الساعة الخامسة ـ كنت ألاقى عناء شديداً فى حمل هذا الصغير الكسول على الانتباه . فكان يجلس على مقعده فى مواجهتى من الناحية الأخرى للمكتب ويلف لسانه إلى ناحية خده ، ويملأ الصفحة بخطه الغليظ السمج وهو يرمقنى بطرف عينه . كان يستطلع على وجهى أدنى بادرة تنم على الغفلة أو الذهول ولم يلبث أن أدرك بتلك الغريزة الحيوانية التى يمتاز بها الأطفال ، اننى أبطىء فى العودة به إلى مجال الدرس كلما حدثنى عن أخيه أو أخته . وهكذا عرفت ، من هذا

الطفل البرى ، انه يوجد فى هذا المنزل الغريب شخص يهتم لراحتى ويفكر فى . كنت أحن شوقاً إلى أمى ، وطالما تفقدتها ، على أننى لم أستسلم لشعورى . وهذا الشىء التافه ، وهو لا يدل فى الواقع إلا على المجاملة البسيطة ، كان السبب الذى استرعى اهتمامى إلى الآنسة دى جوسا

والنقطة الثانية التى اكتشفتها فيها ، إلى جانب طيبة قلبها ، هى ميلها إلى الخيال . ولم يكن ذلك نتيجة اطلاعها على كثير من القصص وانما كان ، كما أسلفت لك ، نتيجة احساسها الملتهب الفياض . وهذا الاحساس هو الذى أوحى اليها بنوع من شعور الخوف من الحقيقة . فكانت من هذه الناحية وعلى غير علم منها ، تختلف تمام الاختلاف عن أبيها وأمها وأخويها . كانت لا تستطيع الظهور أمامهم بطبيعتها الحقيقية ولا تراهم فى حقيقة طبيعتهم . ولذلك فانها لم تكن تظهر أمامهم ولا تغالب نفسها على رؤيتهم . وكانت قد كونت لنفسها فيمن تحبهم رأياً يلائم قلبها ولكنه كان يتعارض مع الحقيقة تماما حتى لتظهر لأعين الناقد السىء النية خداعة أو متملقة . فكانت تقول لأمها ذات النفس العادية والميول المادية : « ما أرق شعورك يا أماه . . . » وإلى أبيها الأنانى المتغطرس

« لكم أنت طيب القلب يا أبتى . . . » وإلى أخيها وهو الشاب المطلق الحرية المستقبل بذاته : « أنت يامن تفهم كل شيء . . . » ثم انها كانت تعتقد بما تقول . ولكن هذا الوهم الذى كانت تتخبط فى أسره تلك المخلوقة الوديعه الرقيقة الشعور كان يجعلها فريسة لاشدحالات العزلة الأدبية بعيدة ، إلى حد خطر ، عن كل ارتباط في الأخلاق . فكانت تجهل نفسها كما تجهل سواها . حتى أن نفسها كانت تتوق ، على غير علم منها إلى مصادقة من يتفق وإياها فى الشعور والاحساس . وقد عنيت بملاحظتها مذ خرجنا للنزهة معاً . فقدرلى أن ألاحظ أنها الوحيدة التى تنعم بلذة الاستمتاع بجمال تلك القرية التى أوجدتها الطبيعة بين تلك البحيرة الصغيرة والغابات المحيطة بها والبراكين البعيدة وسماء الربيع ، التى تكون أجمل من سماء الصيف لما يوجد فيها من التباين بين صفاء زرقتها وبين صفرة الأغصان الذهبية مع ما قد يتخللها أحيانا من الغيوم البعيدة المتبخرة . فكانت تغرق فى لجة الصمت ، وليس فيما حولها ما يدعوها إلى ذلك الا ما يوجد فى هذه المناظر من سحر وما فيها من تأثير على نفسها الحساسة

وشعورها الملتهب الرقيق . وقد كانت تتمتع بتلك المزية التى يمتاز بها كبار الشعراء والعشيقات الى حد يقرب من الغريزة المظلمة وشعور التهور . فكانت تتناسى نفسها وتتناثر وتغوص إلى أبعد مدى فيما يؤثر على فؤادها سواء أكان هذا التأثير ناشئا عن أفق تكسوه الغيوم ، أم عن غابة هادئة اصفرت أغصانها ، أم عن قطعة موسيقية تعزفها وصيفتها على « البيانو » أم عن قصة جذابة تسرد أمامها .

لم أمل ، منذ بدء تعارفنا ، من ملاحظة ما يوجد من التباين بين حيوان الحرب الذى يتجسم فى الكونت وبين تلك المخلوقة التى تمثل الرقة والظرف والتى كانت تنزل على درج سلم القصر الحجرى بخطوات خفيفة رشيقة حتى لا تكاد تلمس الأرض وهى تبتسم ابتسامة تطفر منها عوامل الترحيب والحياء ! انى لأجسر على الافضاء بكل شىء ما دمت لا أكتب هذا الاعتراف لأرسم لنفسى صورة جميلة ولكن صورة صحيحة ناطقة . ولن أؤكد أن ما شعرت به من ميل الى حمل هذه الفتاة على حبى ، فى ذلك الجو الذى بدأت أرتاح اليه ، لم يكن منشؤه ذلك التباين بينها وبين أخيها . وربما أصبحت روح هذه الفتاة ، تلك الروح التى طالما تبينتها مليئة

بما تنطوى عليه روح أخيها ، ميدان قتال لتلك الكراهية الخفية المكفهرة التى لم تلبث أن تحولت الى حقد دفين . أجل . ربما كانت رغبتى في اغراء هذه الفتاة تخفى عوامل الشهوة القاسية التى كانت تدفعنى الى اذلال هذا الجندى الشريف المؤمن وايذائه فى أعز وأثمن شىء لديه . انى عالم بشناعة ما أفضى به اليك ، يا أستاذى العزيز ، ولكننى لن أكون تلميذك ان لم أحمل اليك تلك الوثيقة التى تتضمن ما تنطوى عليه خبيئة قلبى . ومع ذلك فأنا أسلم بأن تلك الصورة البشعة التى رسمتها لك لمختلف الانفعالات التى ألمت بى ليست الا ظاهرة ضرورية كغيرها . كسحر شارلوت الخيالى وعزيمة أخيها وما في شخصيتى من التعقيدات التى ظلت غامضة بعيدة حتى عن ادراكى وفهمى !

الأزمة الأولى

— ٤ —

« وإنى لأذكر بوضوح وجلاء ذلك اليوم الذى نبتت فيه عندي فكرة اغراء أخت الكونت أندريه وتجلت لى ، لا كما يتجلى موضوع قصة خيالية ، ولكن كما تتجلى الحقيقة الراهنة التى لا تلبث أن تقع . وبعد أن قضيت فى القصر شهرين متعاقبين قصدت إلى زيارة أمى لقضاء أعياد يناير ولم أرجع إلى كلرمون إلا منذ أسبوع . وكان الثلج قد تساقط ثمانى وأربعين ساعة بلا انقطاع . وكان الشتاء فى جبالنا زمهريراً قارصاً

وليس ما يبرر البقاء في تلك البقعة التي لا تكف العواصف الثلجية عن اجتياحها إلا اختلال شعور المسيو دي جوسا . ويجدر بالذكر أن المركيزة كانت تسهر على ما يتطلبه البيت من أساليب الراحه بشتى الوسائل على أن « عايدات » وان كانت في عزلة تامة فان المواصلات مع كلرمون عن طريق سان ساتورنان وسان أمان تالاند كانت ميسورة حتى في أشد حالات هذا الفصل اضطراباً . على أن هذا الفصل ، وان كان في الواقع شديد الوطأة ، إلا أنه لا يخلو من أوقات صحو صباحية يتجلى فيها جمال القرية وربوعها الغناء ويعقب الصبح المكفهر مساء وضاح ساحر . تلك كانت الحال في ذلك اليوم الذي أحاول أن أتبينه في هذه اللحظة والذي تحددت فيـــه عندي فكرة الاغراء المشئومة وتجسمت . واني ما زلت أرى البحيرة تغطي صفحتها طبقة رقيقة من الجليد تهتز المياه تحتها وتضطرب ، وأرى انحدار مياه الشير بيضاء كالثلج تتخللها بقع قاتمة وكذلك سلسلة جبال الدوم فالفاش فنفشاتل فالرود فالمون رودون تناطح السماء وتستر قممها طبقات من الثلوج الناصعة البيضاء وعند سفحها تنساب غابة رويا بأشجارها

الباسقة . ارى ذكريات منوعة تمر أمام عيني وتحيا .
ومثل تلك الذكريات الضئيلة تظل مختبئة في أعمق أعماق
النفس حتى تستفزها الذاكرة . وأرى غيضة عذراء
وقد بدأت أغصانها تورد وتزهر واسمع صوت عقعق
فى وسط الطريق فيخفف من وحشة هذا الفضاء . وأرى
قطيعاً من الخراف الشقراء يدفعها راع متدثر بجلباب
أزرق وعلى رأسه قبعة عريضة مستديرة واطئة ويتبعه
كلب أصهب مشعر له عينان براقتان متدانيتان . اجل ارى
كل شيء فى هذه القرية والأشخاص الأربعة الذين
يتريضون على الطريق الصاعدة الى مونفريد وهم :
الآنسة لارجكس والآنسة دى جوسا وتلميذى وأنا
وكانت شارلوت ترتدى ثوبا يضم قامتها الممشوقة وعلى
كتفيها فراء من جلد الأفعى يستر عنقها فلا يظهر منه
الا رأسها الصغير تحت قبعة من نفس قماش ثوبها . وكان
الهواء اللاذع يطربها فتثمل بنشوته بعد تلك الساعات
التى تقضيها سجينة بداخل القصر وتورد وجنتاها بدماء
الحياة وحمرة الصبا . وتغوص قدماها النحيلتان بشجاعة
فى وسط الثلج وتترك خلفها اثارها الخفيفة وتشع عيناها
عند رؤية الطبيعة وسحرها ببريق الغبطة الذى تمتاز

به القلوب الساذجة البسيطة التى لا تكشف عما تخفيه إلا إذا هصرت النفس تحت وطأة التفكير والنظريات المجردة والمطالعة . وكنت أسير إلى جانبها وهى تعدو مسرعة فلم نلبث أن تخطينا الآنسة لارجيكس وهى تمشى ببطء فوق هذه الطريق . أما الصبى فكان تارة يمشى أمامنا وطوراً وراءنا وتارة يقف أو يعدو برشاقة الحيوان الصغير . وشعرت بأن نفسى تزداد كآبة وظلمة بين هاتين الفرحتين . فرحة لوسيان الصغير وفرحة شارلوت . فهل كان ذلك نتيجة الثورة العصبية التى تجعلنا ، فى بعض الأحيان ، نشعر بالحقد على مانشاهده حولنا من دواعى الغبطة ولا نستطيع أن نندمج فيها أو نستمتع بها ؟ أم هو من تأثير الخطة التى بدأت أرسم مبادئها فكنت أحاول أن أظهر أمام الفتاة بما يتنافى مع سرورها ويتعارض مع لذتها ؟ وكنت قد تعودت أن أتحدث اليها طويلا ولكننى فى هذه المرة تعمدت أن أقطع عليها جمل الأعجاب التى كانت تلقيها لتحملنى على مشاطرتها اغتباطها بألفاظ متقطعة شاردة ، ولا أفترعن مجابهتها باجابات غليظة صامتة حتى استوثقت الآنسة دى جوسا من حدة مزاجى ولاحظت على ذلك

بالرغم من تحمسها . ونظرت إلى دفعتين أو ثلاث وكأنها تريد أن تلقى على سؤالا ولكنها لم تجسر على الافضاء به ثم اكفهر وجهها . وتلاشى سرورها شيئاً فشيئاً حيال تجهمى واستطعت أن أتتبع على صفحة وجهها الناصعة سير الأنقلاب الذى اعتراها فكفت عن الاستمتاع بجمال الطبيعة لتصرف اهتمامها إلى كآبتى ومرت بها لحظة لم تعد تقوى معها على كتمان ما تحمله تلك الكآبة من التأثر وسألتنى بصوت واجف زاده الحياء اختناقا :

— « أو أنت متألم يا سيد جرسلو ؟ »

— فأجبتها « كلا يا آنسة » وكانت إجابتى لها بغلظة وخشونة آلمتها لأن صوتها كان متهدجا عندما استطردت بألحاح :

— « إذاً قد أساء اليك أحد ؟ فلست على جارى عادتك . . . »

فأجبتها وأنا أهز رأسى :

— « لم يسىء إلى أحد . »

ثم أضفت :

— ولكن هذا صحيح . بى أسباب تجعلنى اليوم مكتئباً جد الاكتئاب . . . فاليوم ذكرى حزن عميق أصابنى وليس فى مقدورى أن أبوح به . . . »

« فنظرت إلى من جديد . لم تكن تتستر أو تراقب نفسها واستمررت فى النظر إلى عينيها أتتبع تأثير الاضطراب الذى يعكر صفوهما كما لو كنت أتتبع آلات ساعة دقيقة خلف أطار من البلور . كنت قد لاحظت عليها القلق من حالتى إلى حد نسيت معه جمال القرية ومتعتها . ثم رأيتها وقد ارتاحت لاعترافى بأننى لا أضمر لها شيئا وتأثرت لكربتى ولو أنها كانت تود الوقوف على السبب . على إنها لم تجسر على استجوابى واكتفت بأن تقول لى :

— « معذرة إذا كنت قد سألتك . . . »

« ثم سكتت . وكانت هذه الدقائق القليلة كافية لتكشف لى عن المكانة التى احتلها في فكرتها . فكان يجب على ، حيال ذلك البرهان على هذا الاهتمام النبيل ، أن أخجل من فريتى . إذ اننى كذبت باختلاق ذكرى حزن عظيم . وإنها لفرية فجائية لا مبرر لها . ولشد

ما دهشت من نفسى منذ ذلك الحين على سرعة اختلاقها
أجل . ما الذى حدا بى الى اختلاق فكرة الحزن العميق
والتستر وراء وشاحها الشفاف الشعرى مع أن حياتى ،
مذ أن مات أبى ، مرت هادئة مع قليل من التضحية ؟
أو أكون قد استسلمت الى لذة الازدواج التى كانت
متحكمة فى متأصلة من نفسى ؟ أم أن هذا التصنع
الخيالى كان نذيراً بهيستريا الغرور والزهو التى كانت
تدفع بعض الأطفال إلى الكذب بلا مبرر وفى كثير
من الظروف المدهشة غير المنظورة ؟ أم أن
هناك عاملا خفياً من عوامل الادراك جعلنى أجد
فى تمثيل اليأس والكآبة خير الوسائل لاستمالة
أخت الكونت أندريه الى ومضاعفة اهتمامها بى ؟
انى لا أستطيع أن أتبين الآن حقيقة البواعث التى
تملكتنى فى هذه اللحظة من نزهتنا . ويقينا أننى لم استدرك
بالضبط كآبتى المصطنعة ولا تأثير مينى وإنما أذكر تماماً
أننى ما كدت ألحظ هذا التأثير حتى صحت عزيمتى على
السير فى خطتى حتى النهاية لأرى نتيجة التأثير الذى
سأحدثه فى تلك النفس باستمرارى على تمثيل المهزلة
التى دفعنى اليها إيحاء من غريزتى فبدأتها فى مساء يوم من

شهر يناير على مشهد من عظمة القرية خليق بأن يكون اطاراً لأحلام غير هذه .

وأما اليوم ، وقد وقع المحظور ، فاذا أنا عدت بذاكرتى إلى ذلك الماضى المؤلم فلأنه يقنعنى بأنى كنت قليل الادراك بقدر ما كنت مستوحشاً قاسياً . ولقد أدركت تماماً أنى كنت قد أوحيت إلى شارلوت بأصدق المشاعر وأرقها ، وان السياسة النفسية التى سلكتها ليست إلا عملا مضحكا شنيعا يقوم به طالب بدأ يدرس علم القلب . وإنى لأفهم جيداً اننى لم أحسن استنشاق الزهرات التى كانت تنبت لى فى هذه النفس . فما كان على إلا أن أستسلم لأشعر واستمتع بتلك الاختلاجات التى كنت فى ظمأ إلى ورودها وأحيا حياة الشعور الحى المجسم حتى تضارع حياتى الأدبية . ولكننى بدلا من ذلك أرانى قد شللت حركة فؤادى بانهماكى في الأفكار . فقد أردت أن أذل نفساً مستسلمة مقهورة وألعب دوراً دقيقاً فى حين ان البساطة كانت كافية فاذا بى اليوم لا أستطيع أن أتشدق بتلك الأنانية التى تجعلنى أعزى نفسى بأنى سيرت مأساة حظى طبقا لأهوائى وأغراضى واننى قد أحكمت وضع مشاهدها وأثرت مفاجآتها وحكت دسيستها . لقد كانت

المأساة تمثل بأكملها في خبيئة نفسها وبدون أن أفهم شيئاً وقام بتمثيل أدوارها الموت والحب ـ وهما من أوفى عوامل تلك الطبيعة الغاشمة ـ دون أن يأتمرا بأمرى وهما ساخران من تعقيدات تحاليلى . لقد أحبتنى شارلوت لأسباب تختلف تمام الاختلاف عن الأسباب التى كانت تهيئها لى وتوعزها إلى فلسفتى النفسية الساذجة .

« وقضت نحبها مدفوعة بعامل اليأس عقب حديث مؤلم دار بيننا وتبينت على ضوءه حقيقة أمرى ، وذعرت مما انطوت عليه نفسى وإنها ، بما أقدمت عليه ، قد قدمت لى الدليل القاطع على أن ما كنت أنفثه فيها من الآراء الكاذبة الخلابة لم تنل منها مأربا . كان قد خيل إلى أننى وصلت ، بفضل هذا الحب ، الى حل معضلة من خصائص العقل والفكر . واأسفاه ! كل مافي الامر أننى صادفت حنوا صادقا عميقا ولم انعم بسحره . فلماذا لم أتبين إذ ذاك ماأتبينه اليوم بمثل هذا الوضوح وذلك اليقين المؤلم القاسى ؟ ولقد كان من الطبيعى ، وقد ضللتها ميولها الخيالية ، أن تنخدع هذه الطفلة بمظاهرى الكاذبة . إن دراساتى الطويلة قد خلعت على مسحة من الكآبة وقناعاً من الألم مما يستفز غريزة الشفقة عند المرأة . كما أن عناية

أمى بتربيتى قد أكسبتنى رقة فى المعاشرة ورشاقة فى الحركات ونعومة فى الصوت ورعاية خاصة بمظهرى كانت تنقذنى من اخطاء تصرفاتى وجهلى . ان الأستاذ الشيخ الذى أوصى بى عند هذه الأسرة قدمنى لها كمثال للشاب النبيل خلقاً وأفكاراً ، فكان ذلك كافياً لكى تشملنى فتاة رقيقة الأحساس شديدة العزلة برعاية خاصة . ولذلك فاننى ما كدت اتلمس هذه الرعاية ، خلال النزهة التى تحدثت اليك عنها ، حتى فكرت فى استغلالها والتفريط فيها بدلا من الاستئناس بها والتأثر لها . ولقد كان يتعذر على من يرانى فى تلك الليلة وحيداً فى مخدعى جالساً الى مكتبى اكتب والى جانبي كتاب ضخم فى التحليل ، ان يتصور ان هذا الجالس شاب لما يتجاوز الثانية والعشرين وانه منهمك فى التفكير والتأمل فى الاحساس الذى يريد ان يثيره ويحاول الايحاء به الى فتاة لما تبلغ العشرين . . . ونام سكان القصر فلم أعد اسمع غير مرور الخادم فى السلم والردهات لاطفاء المصابيح . وكانت الريح تهب على هذا القصر الكبير من جميع نواحيه . وكانت تهدأ تارة وتصفر وتئن تارة أخرى . ان الريح الغربية مخيفة فوق

تلك المرتفعات الى حد أنها كانت احيانا تنتزع قرميد
الاسطحة لشدتها. وكان انين العاصفة يضاعف في شعور
العزلة والانكماش على نفسي. وكانت نيران المدفأة تضطرم
هادئه بينما كنت اودع صفحات الكراسة، التى احرقتها
قبل القبض على، تفاصيل ما حدث فى غضون يومى
وخطة الاختبار التى اعتزمت ان اجريها على الآنسة
دى جوسا . وكنت قد نسخت الفقرة الواردة فى كتابك
«نظرية الشهوات» عن الشفقة وانك لتذكرها يا أستاذى
العزيز فهى التى تبدأ هكذا : « يوجد فى ظاهرة الشفقة
عنصر طبيعى يؤدى الى الاضطراب الجنسى خصوصاً
عند النساء . . . » ولقد عزمت كذلك على التأثير على
شارلوت عن طريق الشفقة . وأردت أن أستفيد من
الفرية الأولى التى أثرت بها على فؤادها وأتبعها بسلسلة
من الأكاذيب المحكمة فأحملها على حبى عن طريق الاشفاق
على. يوجد فى استغلال أنبل العواطف الانسانية وأقدسها
فى سبيل أهوائى وفضولى شىء يتعارض تماما مع المبادىء
العامة ويثير أنانيتى الى حد اللذة . فبينما كنت أدون
خطة الغواية وأدعمها بالأدلة الفلسفية كنت أتخيل ماعسى
أن يتصوره الكونت أندريه لو أنه استطاع ، على حد

مايحكى فى الأساطير والخرافات ، أن يقرأ الكلمات التى سطرها قلبى . ثم أن مجرد التفكير فى أننى سأدير ، كيف شئت ، الآلات الدقيقة التى يتألف منها دماغ امرأة وأننى سأحرك آلات العقل والعاطفة مع ما فيها من تعقيد ، كان يحملنى على تشبيه نفسى بكلود برنار وباستور وتلاميذهما . كان هؤلاء العلماء يشرحون الحيوانات الحية فهل قدر لى ، أنا ، أن أقوم بتشريح تلك النفس طويلا ؟

« ولكى أستخلص الغاية المبتغاة من تلك الشفقة التى اكتشفت وجودها ولم أحركها كان لا بد لى من العمل على اطالة أمد الشعور بها . فعزمت على الاستمرار فى مهزلة الحزن التى ابتدعتها صدفة ، وفى نفس الوقت ، أخذت أعد العدة لما عسانى أن أقوله اذا مادقت ساعة التفاهم بيننا فبدأت أنسج خيوط قصة خيالية صغيرة تثير الشعور بما فيها من الوقائع المكذوبة . وفى غضون الأسبوع التالى لهذه النزهة عكفت على التظاهر بالحزن والاستغراق فيه . ولم يكن تظاهرى به أمام شارلوت فحسب ولكن خلال الساعات التى كنت أنفرد بها مع تلميذى لثقتى بأن هذا الطفل كان ينقل الى أخته ما يجول

فى خاطرنا من الانفعالات خلال عزلتنا . وأنك لتجدن فى ذلك يا أستاذى العزيز خير دليل على خدعتى الخبيثة التى كنت أجاهدفى سبيل تنفيذها . فهل كان هناك مايدعو الى اشراك هذا الصبى الموكل إلى فى تلك الدسيسة المحزنة واضافة تلك الخدعة الى غيرها فى حين أن الآنسة دى جوسا لم تفكر لحظة واحدة فى الأخذ من حسن نيتى أو وضعها موضع الشك ؟ على أننى كنت قدوقفت عزة نفسى ، بحيلة من أيحاء ضميرى ، على تعقيد الموقف ومضاعفة ارتباكات الشرك الذى نصبته . وكنت أدرس لوسيان فى حجرة فسيحة أطلق عليها اسم المكتبة لوجود بعض الرفوف فى ركن من جدرانها . وفى ناحية أخرى من الحجرة كان يوجد دولاب تكدست فيه أكوام من مختلف الكتب المغلفة بالجلد ومن بينها مجموعة من دائرة المعارف خلفها مؤسس القصر وهو من النبلاء والعلماء البارزين تربطه صلة القرابة والصداقة بالكاتب الكبير مونتلوزيه : وكان قدشيد هذا القصر فى وسط تلك الجبال لعزمه على تربية نجليه بين أحضان الطبيعة وطبقاً لتعاليم « أميل » — وكانت صورة هذا المفكر الحر معلقة فى ركن من الجدار الى جانب الباب . وهى صورة زيتية

رديئة الصنع ولكنها كانت تتمشى فى فنها وذوقها مع ذلك العصر فتمثله ملوثاً بالبارود وعلى فمه ابتسامة حائرة حساسة . وفى الجهة المقابلة علقت صورة زوجه بما كانت عليه من تيه ودلال . وبينما كنت أنظر الى تينك اللوحتين ولوسيان منهمك فى ترجمة قطعة عن أوفيد أو تيت ليف - أخذت أسائل نفسى عما كان يفعله أجدادى أنا فى غضون تلك السنوات من ذلك العصر الذى كان يعيش فيه هذان الشخصان الممثلان فى هاتين اللوحتين . لقد تخيلت أولئك القرويين الغلاظ الذين انحدر من سلالتهم يدفعون المحراث ويقلمون الكروم ويفلحون الأرض فى مزارع اللورين التى يعلوها الضباب فكانوا فى نظرى أشبه بهؤلاء القرويين الذين كنت أشاهدهم يمرون فى الطريق أمام أبواب القصر فى مختلف الأوقات وتقلبات عناصر الجو منتعلين أحذية طويلة تستر الساق حتى الركبة وفى يد كل منهم عصاة غليظة مدببة بالحديد مربوطة بمعصمه بسير من الجلد . وتجلى تأثير هذا الخيال فى نفسى بما خلعه على سحنتى من مسحة الانتقام المشروع - وماهو أدعى الى العجب إننى . وإن كنت أمقت من الوجهة النظرية مبادىء الثورة وما تخفيه من عدم الأخذ بمادية الروح -

كنت أراني سوقياً فى شعور الغبطة الذى تملكنى عندما فكرت فى أننى ، وأنا حفيد هؤلاء المزارعين ، قد أتمكن بقوة تفكيرى من التفرير بحفيدة هذا السيد العظيم وتلك السيدة العظيمة . وكنت أسند ذقنى الى راحتى وأسبل على جبينى وعينى غشاء من الكآبة علماً منى بأن لوسيان كان يراقب ملامح وجهى أملا منه في التخلف عن الدرس بحديث يتناوله معى . ولما لم يحظ منى بتلك الابتسامة اللطيفة ولا بتلك النظرات المشجعة التى تعودها منى في حصص الدروس السابقة حمل الصبى المسكين كآبتى على محمل الشدة فى معاملته وسكوتى استياء منه . وفى صبيحة يوم أقدم على سؤالى :

— « هل انت مستاء منى ياسيدجرسلو ؟ »

فاجبته وانا اداعب وجنته الناضرة بيدى :

— « كلا ياولدى . »

واسترسلت في التظاهر بهيئتى المفكرة وحزنى المصطنع وانا اتأمل فى الثلج وهو يتساقط فى الخارج ويرتطم بزجاج النافذة . ويتساقط الثلج صباح مساء بلا انقطاع فغمر القرية وسدل عليها ستاراً من السكينة والخمول . وكانت الحجرات بداخل القصر دافئة هادئة

ساكنة بعيدة عن غوغاء الجبل وكان الجليد يغطى زجاج
النوافذ من الخارج ويبعث بخاره الى الداخل فيضعف
من قوة الضوء ويخلع عليها وشاحاً رقيقاً كما لو كان يستر
مريضا . فكان هذا الجو يزيد فى تأثير هياة الكآبة التى
كنت اصنعها وارغم شارلوت على ملاحظتها خلال
الساعات التى كنت نلتقى فيها . وعندما كان جرس
الغذاء يجمع بيننا فى حجرة الطعام كنت اقرأ فى
نظراتها شعور الفضول والوجل الذى لاحظته عليها
خلال نزهتنا التى افتتحت بها مذكراتى بما سميته دخولى
الى المعمل . وكانت عيناها ترمقانى بنفس تلك النظرات
عند كنا نجتمع من جديد فى حجرة الاستقبال لتناول
الشاى تحت اضواء المصابيح ثم على مائدة العشاء الا
اذا كنت اعتذر عن البقاء بعمل اريد ان اؤديه فاغادرهم
الى مخدعى . ولم يكن فى هدوء تلك المعيشة وتشابهها
ما يساعدها على التخلص من ذلك التأثير الغريب الذى
كنت ارغمها على احتماله . اما المركيز فكان فريسة
المتناقضات اخلاقه الشبيهة بحالات الجنون . فكان يلعن
عزمه المشئوم على العيش فى تلك العزلة ويعلن عن
عزيمته على الرحيل عن هذا المكان عندما تهدأ ثائرة

الجو وهو يعلم ان هذا العزم لن ينفذ لما يتطلبه من المصاريف الباهظة والى جانب ذلك فاين عساه ان يذهب ؟ وكان يعلل نفسه بزيارة بعض الاصدقاء من سكان كلومون كانوا قد تناولوا الطعام على مائدته اذ كان قطع الطريق بين ايدات والمدنية ميسوراً يستغرق أربع ساعات وليس ثمانية كما هى الحال فى مثل هذا الجو الردىء . ثم يجلس الى مائدة اللعب وتنهمك الماركيزة والوصيفة والراهبة فى أشغالهن اليدوية التى لا تنتهى . وكنت أقوم بملاحظة لوسيان وهو يقلب صفحات مجلد ملىء بالصور أو يلهو ببعض الألعاب اليدوية : فأختار لجلستى موضعاً بحيث كان من المحتم على الفتاة أن تقع عيناها على اذا رفعت رأسها عن النظر الى الورق الذى تحمله بيدها وهى تلعب مع أبيها. وكنت قد عنيت بدراسة التنويم المغنطيسى كما درست دراسة وافية دقيقة فى كتابك « تشريح الأرادة » الفصل الذى شرحت فيه تسلط الظاهرات الغريبة على الأخلاق وأطلقت عليها اسم : « انصاف ايماءات » . لقد تعمدت بهذه الطريقة أن أحتل هذه الدماغ الفارغة حتى اذا خانت هذه اللحظة المناسبة لأضرب الضربة الحاسمة

قصصت عليها قصة ابتدعتها عن نفسى لأبرهن بها على صدق أشجانى وأعلل بها عن تصرفاتى فأسيطر اذ ذاك على تلك المخيلة التى كنت أقدر انها فى أقصى حالات الاضطراب والانزعاج

واختلقت تفاصيل هذه القصة ووضعتها بحذق ومهارة طبقاً لمبدأين وضعت أساسهما أنت يا أستاذى العزيز ضمن الفصل الجميل الذى تناولت فيه الكلام عن الحب والفصل الخاص بالنظريات عن الشهوات في كتاب «الأخلاق» وما ورد في مؤلفات المسيو ريبو فقد أصبحت لى بمثابة السبحة التى أصليها فى كل يوم . واسمح لى أن أذكرك بهذين المبدأين ولو فى جوهرهما . ففى الأول تقول أن السواد الأعظم من الكائنات لاشعور لها إلا عن طريق التقليد . وانها ما دامت تحت رحمة الطبيعة ، فان الحب مثلا لا يكون فى نظرها الا ماهو عليه عند الحيوانات غريزة بهيمية لا تلبث أن تتبدد وتزول بمجرد الاستمتاع بها وأشباعها . وفي الثانى تقول ان الغيرة يمكن أن توجد قبل الحب كما انها تستطيع أحياناً أن تخلق الحب بل وإنها تخلقه . وقد تأثرت بصحة هاتين الملاحظتين الى حد اننى قلت لنفسى أن القصة التى سأسردها على مسامع الآنسة دى جوسا يجب أن

تهيج مخيلتها وتثير أنانيتها وزهوها . لقد نجحت في أن ألمس منها وتر الشفقة وأردت في نفس الوقت أن أحرك فيها شعور الغيرة وعزة النفس . ولذلك فانني راعيت في وضع قصتي تلك الفكرة : أن كل امرأة تهتم لرجل وتغتاظ وتتأثر في كبريائها اذا ظهر لها ان هذا الرجل ما زال، بكامل فكرته ، تحت سلطان امرأة أخرى . على انني أستطيع أن أكتب عشرين صفحة لأشرح لك كيف درست ، من جميع وجوهها ، مسألة القصة التي عزمت على اختراعها وهيأت لي فريستي الفرصة لالقاء تلك القصة ولما يمضى خمسة عشر يوما على تنفيذ الخطة التي رسمتها وكيف أفخر بتسميتها « اختباري » .

« وخطر ببال الماركيز انه يوجد ضمن مجموعة دائرة المعارف مجلد خاص بورق اللعب . فقد كان يرغب في البحث عن بعض الألعاب القديمة كالأمبريال والهومبر والمانيلا لتجربتها عسى أن يستطيع تطبيقها . وقد نبتت هذه الفكرة الجميلة في مخيلته بعد الغذاء فقد طلع في احدى الصحف على مقال تقريظ للعبة جديدة « البوكر » جاء محررها ضمنا على قائمة بأسماء بعض الألعاب المسلية التي قدم العهد عليها .

« عند ما تطرأ على رأس هذا المخبول فكرة ويستوعبها ، فانه لا يحتمل الانتظار لتنفيذها ولذلك فان ابنته اضطرت الى الصعود فى الحالى الى المكتبة حيث كنت منهمكا فى تدوين بعض المذكرات . كنت أتصفح كتاب هلفسيوس عن « العقل » وقدعثرت عليه ضمن بعض مؤلفات القرن الثامن عشر . فوضعت نفسى تحت تصرف الآنسة دى جوسا لاكتشف المجلد الذى تقصده . وعندما تناولته من يدى، بعد ان نزعت ماعلق عليه من التراب ، قالت لى بلطفها المعتاد :

— « اظن اننا سنكتشف هنا لعبة يمكنك ان تشاركنا فيها . . . نحن نخشى ان تكون قد سئمت الاقامة هنا فانت دائب الكتابة . . . »

ونطقت بهذه الالفاظ الاخيرة بلهجة من تطلب الصفح عن خشونة بدرت منها وهى نفس اللهجة التى طالما استظهرتها فيها خلال نزهتنا ، وان كانت قد حاولت ان تنزع عن حديثها لهجة الالفة بقولها « نحن » على اننى كنت عالما بانها كاذبة . وكان فى رنة صوتها نبرة رقيقة وادعة . وكنا خلال هذه الدقائق العشرة او الخمسة عشر وحيدين بمعزل عن العالم نخيل الى ان

اللحظة قد ازفت لاشرح لها السبب فى كآبتى المصطنعة واجبتها :

ـــ « اه ! يا آنسة . لو كنت تعرفين حياتى ! . . . »

« ولو لم تكن شارلوت ذلك المخلوق الساذج والفتاة الخيالية ، على الرغم من اختلاطها بضعة اعوام بالاوساط الباريسية ، لادركت من تلك المقدمة وما تلاها من العبارات المنمقة أننى اتلو عليها قصة اعددتها سلفاً . وأننى ما كدت انطق بهذه العبارات حتى شعرت بأنها متكلفة غير موزونة . وطفقت أقص عليها اننى كنت قد خطبت فتاة في كليرمون وتمت خطبتنا سراً . وخيل إلى أننى ألبس قصتى حلة من الخيال الشعرى اذا أنا الحت اليها بأن هذه الفتاة كانت غريبة ، روسية مثلا وأنها جاءت لزيارة أقربائها . وأضفت الى ذلك أن هذه الفتاة أذنت لى بالافصاح عن حبي وأنها اعترفت لى هى أيضاً بأنها تحبنى . وأننا تبادلنا العهود والمواثيق ثم غادرتنى . وتقدم لها خاطب ثرى فتزوجت منه فخانت عهدى فى سبيل المال . وحرصت على الافاضة فى وصف ما كنت عليه من الفقر ، وغاليت فيه الى حد أننى ذهبت الى التلميح بأن أمى كانت تعيش مما كنت أكسبه . واختلقت تلك الفرية الأخيرة فى الحال لأن

الرياء يزداد قوة عند الاسترسال فى الوصف والتعبير . وإنى لأعترف بأننى كنت أمثل ، بغير حذق أو مهارة ، مشهداً هزلياً صبيانياً مخجلا . إلا أن الأسباب التى كانت تحملنى على الكذب بتلك الصورة كانت ذات صبغة خاصة حتى أنها كانت تتطلب ، للوقوف على حقيقتها ، فراسة غريبة ومعرفة دقيقة لخصائص عقلى ، وتستلزم كذلك براعة ملاحظتك وعبقريتك يا أستاذى العزيز.
كان من السهل أن يعزى القلق الظاهر على الى لاضطراب الذى يلازم مثل هذه الذكريات . ولما كنت مالكا لشعورى وعواطفى عندما كنت أرتجل هذه القصة فقد أمكننى أن ألاحظ شارلوت . كانت تصغى إلى بغير ماقلق أو تأثر ظاهر شاخصة النظر الى الكتاب الضخم الذى كانت تستند اليه يدها . وما أن انتهيت حتى حملت الكتاب وأجابتنى بصوت أجوف لاينم عن شىء مما يشعر به المتكلم :
— « انى لا أفهم كيف أمكنك أن تثق بهذه الفتاة طالما كانت تصغى اليك فى خفية عن ذويها . . . »
« وانسحبت تحمل معها الكتاب السميك بعد انحناء بسيط من رأسها اللطيف . شدما كانت جميلة فاتنة فى

ثوأبها الزاهي الشفاف الذى يستر قامتها النحيلة وشدما روع تلك النظرات المنبثقة من هاتين العينين النجلاوتين المفكرتين في وسط هذا المحيا النبيل ! ما أعظم الشبه بينها وبين صورة العذراء التى نقشتها أنامل مملنج وسحرتنى بأسارير وجهها الفتان وما طبع عليه من سيماء الحزن الوادع عندما وقعت عليها عيناى يوماً فى كتاب «تأمل» عند الأب مارتل . فسر لى هذا السر الجديد من أسرار القلب ، أنت العالم النفسانى الكبير ، فاننى لم أشعر بتاتاً بما فى هـذا الكائن من سحر جذاب عذب أكثر مما شعرت به فى تلك اللحظة التى كنت أرهقها فيه بأقوالى وأكاذيبى وأمعن فى الكذب متذرعا بما أجابتنى به . أجل لقد اتخذت من جوابها سلاحا للاسترسال فى الاختلاق والمين وقد كان يجب على أن أرى فى اجابتها مايشجعنى على الأمل . لم أتصور كيف أن مجرد اصغاء مثل هذه الفتاة ، المحافظة المتكبرة التى تختلف عنى تمام الأختلاف في مشربها وبيئتها ، لذلك السر الشخصى ، يعد دليلا قوياً على العطف والميـــل الطبيعى . لم أتبين حقيقة الواقع ولم أدرك أن تلك العبارة التى بدرت منها ، فى شىء من القسوة ، جواباً على ما

أفضيت به اليها ، قد أملتها تلك الغيرة المكتومة ، التي كنت أجاهد في سبيل إيقاظها فى نفسها ، بدافع من تلك النفس التى كانت تقاوم للاحتفاظ بمبادئها الشخصية لتبرر على شدة تمسكها بى . وكما أنها لم تحسن اكتشاف الكذب من روايتى فانني لم أحسن الوقوف على الحقيقة من اجابتها . فمكثت واقفاً خلف الباب الموصد وأنا أشعر بتحطيم جميع الآمال التى شيدتها منذ خمسة عشر يوماً . كلا . لم أثر إهتمامها إلى حد أستطيع معه أن حول هذا الاهتمام إلى شهوة . ومع ذلك ماكان أغبانى إذ خلعت على أوهامى مظهر الحقائق الثابتة! وأخذت استعرض تفاصيل العلاقات التى بنيت عليها ظنى في امكان اغرائها. فأى برهان لدى على اهتمامها بى؟ أهو ماغمرتنى به من العناية المادية ؟ أن مثل هذا العمل من جانبها أمر عادى بسيط من مستلزمات فؤادها الطيب . أم هى رعايتها فى مراقبة هيأتى المكتئبة الحزينة ؟ لئن صح ذلك لكان نتيجة فضول ليس غير . أم هى رنة الحياء والوجل التى كانت تتجلى فى صوتها عند مخاطبتى ؟ لقد كنت غبياً إذ لم أفكر فيما طبعت عليه الفتاة الرقيقة الحساسة من الحياء . وهكذا تكون النتيجة إن المهزلة التى مثلتها

خلال أسبوعين ، وهيأتى الحزينة التى تصنعتها تشبها بشاترتون والأكاذيب التى اختلقتها لأحلى بها مأساتى الشخصية ، لم تكن إلا مناورات سخيفة لم أتقدم بواسطتها خطوة فى ميدان هذا القلب الذى أردت غزوه والتسلط عليه . وكفى بتلك العبارة القصيرة التى نطقت بها شارلوت فى شىء من الجفاء لاحكم على نفسى بذلك ، هنا ، فى الخمسة عشر دقيقة التى تلت حوارنا القصير وما ذلك إلا لأننى كنت عرضة لنوبات التحليل الفجائية التى كانت ، فى أقل لحظة ، تثلج نفسى وتحطمها كما يخمد تساقط الماء البارد فورة البخار الثائر .

« وعدت إلى انحنائى على كتاب « العقل » ، ولكننى كنت عاجزا عن حصر ذهنى واستيعاب ما يقصد اليه هلفسيوس من نصوصه المجردة . إننى أورد لك هـذه الأمور الصبيانية ، يا أستاذى العزيز ، لتدرك جيداً أى مزيج غريب من الطهر والدعارة كان يختمر إذ ذاك فى رأسى . وإلا فأى معنى لهذا اليأس الفجائى إن لم يكن ما تخيلته من استطاعتى التسلط على أفكار شارلوت بأن أطبق على هـذه الفتاة شرائع علم النفس المستعارة من الفلاسفة بنفس الطريقة التى كان يتسلط بها أخوها على

كرات البليار التى كان يعبث بها أين شاء فى ذلك المساء الذى أدهشتنى حركاته فوقفت أنظر اليها مشدوها؟ تلمس الكرة البيضاء الكرة الحمراء فى جانبها الأيسر وتندفع نحو حافة اللوحة ثم تعود أدراجها إلى الكرة البيضاء الثانية. مثل ذلك يرسم على الورق ومثل ذلك يفسر بقاعدة ومثل ذلك مما يمكن حصوله وتنفيذه عشر وعشرين ومائة وألف مرة. وإنى على الرغم من كثرة مطالعاتى كنت أنظر، وربما كانت هى السبب فى ذلك، إلى لعبة الشهوات بمثل ما أنظر به إلى صورة مصغرة فى منتهى البساطة، ولم أفهم، إلا فيا بعد. إلى أى حد كنت مخطئاً. أن من يريد أن يحدد ظاهرات القلب يجب عليه أن يستعير قياسه من عالم النباتات وليس من عالم الميكانيكا. ويحسن لأدارة، تلك الظاهرات وتسييرها، اتباع أنظمة علماء النباتات وإجراء اللقاح اللازم لها والانتظار طويلا وتربيتها تربية دقيقة وافية. ان الشعور يتولد ثم يشب ويكبر ثم يتفتح ثم يجف. فهو كالنبات تحت تأثير تطورات تكون أحياناً بطيئة وأحياناً سريعة عاجلة، ولكنها تظل دائما جاهلة لاتعقل ولا تشعر. أن لساس الشفقة والغيرة التى أودعتها

نفس شارلوت بحيلتى كانت تتطلب عدة أيام لتنمو وتحدث تأثيرها وتصبح فعالة لا تقاوم خصوصا وأن هذه الفتاة كانت تظننى مغرما بغيرها ولذلك فهى لم تفكر فى الدفاع عن نفسها منى . وكان لابد لمن يريد الوقوف على آثار هذا العمل وتحديد نتائجه أن يكون ، « كريبو » أو « وتين » أو « أدريان سيكست » عالما بدقائق النفوس لا أن يكون مثلى أنا شبيها بذلك المتنزه الذى يقطع حقلا وهو يجهل أن أرض هذا الحقل تخفى فى جوفها بزوراً وأن هذه البزور سوف تكون حصاد الصيف القريب . أن للمتنزه عذره فى هذا الجهل لأنه لم يشهد بنفسه غرس تلك البذور أما أنا فقد غرست بيدى تلك البزرة السريعة النمو وما كنت أجهل حصادها القريب !

« وكان اعتقادى بفشل محاولتى الاولى فى حمل شارلوت على حبى وحبوطها حبوطا تاماً تزداد خلال الايام التى تلت مسارتى الكاذبة . لانها لم توجه إلى الحديث الا نادراً . ولقد عرفت فيما بعد ، من اعترافها الشخصى ، انها كانت تخفى تحت ستار هذا الجفاء الظاهر قلقا ناميا واضطرابا متزايداً حتى حارت لامرها من

حدثه وقوته وعمقه. وكانت قبل ذلك تتظاهر بالانهماك بدراسة لعبة النرد، التى اكتشف الماركيز اساليبها وهو يقلب صفحات مجلد دائرة المعارف. وما ان تذكر الماركيز ان هذه اللعبة كانت احب متعة علق بها جده حتى كف عن البحث عن سواها من الالعاب المدرجة بالكتاب. وفى الحال قام احد نجارى كليرمون بارسال ما هو لازم لارضاء تلك الرغبة. وما ان اعدت هذه اللعبة فى حجرة الاستقبال حتى بدأت السهرات تمر بين الاب والابنة في القاء زهر النرد التى كانت تحدث صوتا وهى ترتطم فى الخشب وكانت الاصطلاحات الفنية المتبادلة بين اللاعبين تختلط بحديث الماركيزة مع رفيقتها. وفي بعض الاحيان كان يحضر كاهن عايدات، وهو قس هرم يدعى الاب بارتوموف، ويؤدى فريضة الصلاة فى كنيسة القصر فى ايام الاحاد الباردة. فيروح بوجوده عن نفس شارلوت لانه يحتل مكانها فى ملاعبة الماركيز. ولئن كان الماركيز قد عاملنى حتى الساعة بمنتهى الأدب واللباقة إلا إنه لم يسألنى بتاتا إذا كنت أشعر نحو هذه اللعبة باشمئزاز أم لا. ولذلك فان الفارق الذى أوجده فى المعاملة بين الأب بارتوموف وبينى،

قد أزرى بي وأذلني . ولو أن مثل ذلك الشعور يتناقض مع حقيقة ميولى ، لأننى بطبيعتى أفضل كثيراً أن أجلس فى مقعدى أتصفح كتاباً أو أستعرض فى مخيلتى أخلاق مختلف الأشخاص مما أقرأه على سيمائهم وسحنتهم ، ولكن هلا كانت تلك حال من يتواجد فى مكانة يرى بأنها أحط من مكانته ؟ إن التفريق وعدم المساواة في المعاملة ، مهما كانت ، تجرح العزة النفسية . وقد انتقمت لنفسى من هذا الموقف بأن أخذت ألاحظ سحنة الكاهن وما يتخللها من حركات مضحكة . لا سيما وإنه كان يضمر لأهل القصر عامة والماركيز خاصة اعجاباً يقرب من العبادة . وكان وجه الكاهن بطبيعته دامياً ولذلك فانه لا يكاد يجلس قبالة هذا الشيخ النبيل حتى تنتفخ أوداجه كمن أوشك على الاختناق وترتعش يده وهو يهز النرد ويلقيه مؤملا فى ربح الحجارة البيضاء والتغلب على الماركيز . ولم تكن تلك الملاحظة تشغلنى طويلا وكنت أعود بأنظارى الى مراقبة الفتاة التى ما كادت تفلت من أسرابيها حتى كانت تجلس لتطرز بجوار أمهـا . ان الألم الذى انتابنى مذ فشلت محاولتى ولم أنجح فى حمل هذه الفتاة على حب

كان يزداد ويضاعف شقوتى كلما ازددت تأملا فى ملامح
هذه الطفلة النبيلة . وبالاجمال فقد بدأت أشعر ، في دائرة
الجو الذى تعيش فيه ، باضطرابات هى أقرب إلى ما تثيره
الحواس منها إلى ما تحدثه دراسة النفس. إننى شاب وإلى
جانب ذلك فأنى أحمل فى بدنى ، وعلى الرغم مما عزمت
عليه بفلسفتى ، ذكرى الجنس وهى الذكرى التى حللتها
أنت تحليلا دقيقا شاملا وتناولت فى تحليلك شرح
ما تتضمنه من الحوادث المحتم وقوعها وثورتها التى
لا تهدأ ولا تقهر . وإنى لا أجد خيرا من استعارة أحد
تشابيهك للتعبير عما يخالجنى فأقول لك ، إن البهيمة الرجس
التى تكمن فى خبيئة نفسى والتى لقح بلقاحها الحيوان
المفكر الذى يتردد بين جوانحى ، كانت تثور بعنف تحت
ضغط اختباراتى الشهوانية وتأثيرها عند أقل احتكاك
بثوب هذا العذراء . إن جسمها المرن ورشاقة حركاتها
وطرف قدمها البارز من تحت ثوبها ومنكبيها النحيلين
اللذين كنت أتبينهما تحت ثوبها الشفاف وعنقها البض
وجدائلها المعقودة بشريط في أعلا رأسها والعلامة
الخفيفة الشقراء البادية ، عند التحام الشفتين ، على هذا الفم
الناضر ، وجميع ما كان يبدو للعين من دقائق هذا البدن ،

كل تلك العوامل كانت تثير في رغبة مؤلمة وميلا حساساً . كنت قد أعددت العدة لغوايتها وإغرائها ، فاذا أنا الذى يسقط فى حبائل هذا الشرك ، وإذا أنا الذى يشعر بتأثير الغواية والأغراء . وهذا ما كان يجعلنى اثور ثورة مكتومة لايفهمها غيرك لما افضيت به اليك عن انانيتى ومطامعى وغايتى في التسلط على زمام نفسى وقيادة هذه النفس وحدى ! اما وقد شرحت شرحا ضافيا مادة الضغينة التى تستتر وراءها الشهوة الجنسية فانت تفهم ان احتدام الرغبة الوهمى عندى كان يعقبه في بعض الاحايين نوع من الغضب الشديد على هذا الوجه اللطيف الذى كان يحمل الانزعاج والاضطراب الى نفسى مع تظاهره بعدم رؤيته او ملاحظته .

كم مر من الزمن على هذا الجمود المتأجج بتأثير الشهوة ، الخامل تحت ضغط اليأس ؟ لا ادرى . كل ما كنت اعلمه اننى ، والآنسة دى جوسا ، كنا فى حالة خاصة وإننا كنا مدفوعين احدنا نحو الآخر ، هى بعامل ذلك الحب الوليد الذى كانت حتى الساعة تجهله ، وانا بدافع العوامل والاسباب الغامضة التى حللتها لك وكنت

اهتم لها اكثر من التفاتى اليها . واننا وان كنا على اتصال ببعضنا ونلتقى عدة مرات فى مختلف ساعات النهار ، فلم يكن احدنا يشك فيما يشعر به الآخر نحوه . ففى مثل هذه الظروف لا يمكن ان يلاحظ اذا كانت الحوادث التى تحدد نوبة جديدة هى فى الواقع نتائج او مسببات واذا كانت اهميتها قائمة فى ذاتها او هى تساعدنا فقط على اظهار حالات نفسنا الخفية . ولكن هلا يمكن القاء هذا السؤال فيما يتعلق بالحظ اذا نظر اليه فى مجموعة . فكم من مرة ، مذ اصبحت اشغل جميع اوقاتى ، فى هذه الزنزانة التى تحمل رقم ٥ ، كم من مرة ، وانا بين جدران هذه الحجرة المدهونة بالجير الابيض حيث لا ارى الا السماء الغاضبة من الكوات الاربع المفتوحة عند حافة السقف ، كنت افحص وانقب فى خبايا قصتى القصيرة ، اجل كم من مرة ساءلت نفسى اذا كان حظنا يخلق لنا فكرتنا او ان الامر على عكس ذلك ، وان فكرتنا هى التى تخلق لنا حظنا ، حتى ما كان ظاهراً منه . . ؟ يقينا كان يجب علينا ، شارلوت وانا ، ان نتهز اول فرصة تعرض لنا ، فتستسلم هى لشعور عظيم الخطورة لانه لم يكن واضحاً وضوحا تاما ، واعود انا

الى متابعة اختبارى الذى كنت قد توقفت عن اتمامه .
وهاك كيف سنحت الفرصة . حدث فى ذات مساء بينما
كان الماركيز متكئاً امام نار المدفأة متدثرا بمعطفه
الذى كان يجر بين ثناياة مرضه الوهمى ، ان اخذ
يتحدث طويلا الى زوجته عن مقال ، ظهر فى احدى
صحف الصباح ، ويصف حفلة اقامها بعض من
معارفهم . وكنت في تلك اللحظة احمل تلك الصحيفة
ولما تبينها المسيو دى جوسا فى يدى قال لى بغتة :

— « هل لك ان تقرأ علينا هذا المقال ياسيد
جرسلو ؟ » ...

« وأعجبت فى نفسى ، مرة أخرى ، من تفنن هذا السيد
العظيم فى التهكم في طلباته مهما كانت ضئيلة . ولذلك فان
لهجته وحدها كانت كافية لتغيظنى . على أننى أذعنت لطلبه
وبدأت أقرأ هذا النبأ ، وما تخلله من تصوير ووصف
للحفلة الراقصة . وكان المقال مكتوباً بعبارة بليغة متينة
وأسلوب أدق وأرق مما تكتب به عادة مثل هذه المقالات
حتى يمكن أن تشبه بأسلوب أخوى جونكور . وكان الماركيز
ينظر إلى مشدوها إذ كنت أقرأ . ويجدر بى أن أخبرك ،
يااستاذى العزيز ، إننى خلال الآيام التى صاحبت فيها أميل

كنت قد اكتسبت خبرة واسعة في فن الألقاء . فلم يكن أحب إلى صديق الصغير أثناء مرضه من الأصغاء إلى وأنا أقرأ عليه المقطوعات الطويلة المختارة من الكتاب الذين كنا نفضلهم على غيرهم فاكتسب صوتى بتلك الطريقة رنة واضحة رقيقة وزالت عنه خشونته .

« وما ان انتهيت من القراءة حتى صاح بى السيد دى جوسا:

— ولكنك تجيد القراءة . تجيدها إلى درجة كبيرة ! . . . »

« وجرحتنى دهشته، وهو يمتدحنى، جرحاً جديداً فى عزة نفسى . فقد أظهر ، فى شىء من الخشونة فى التعبير ، إلى أى حد لم يكن يتوقع أن يجد ، أى خبرة ، عند شاب من كلير مون حديث السن صموت وديع جاء إلى القصر بناء على توصية الشيخ ليماسيه ليكون خادما لتحرير الخطابات . ثم استطرد مدفوعاً بنزعته جرياً على عادته :

— حقاً إنها لفكرة . . . لسوف تقرأ لنا قليلا فى المساء ، ولسوف نلهو بذلك أكثر من هذا النرد ، فتلك الاصطلاحات التى تعاد وتتكرر . ثم أن صوت النرد يضايقنى . . . يالهذا البلد الملعون ! . . . سوف لانمكث فيه ثمانية أيام إذا عاد الثلج إلى الهطول . أنت

تضحكين ياشارلوت وتسخرين من أبيك الشيخ ! ليس أكثر من ثمانية أيام . . . وأى كتاب عساك أن تختاره لنبدأ به ؟ . . .

وهكذا وجدتنى مدفوعاً إلى تأدية مهمة جديدة بدون أن يتسنى لى أن أتبين إذا كان ذلك يتفق أم لا مع دراساتى لأننى كثيراً ما كنت أحمل معى ، فى ساعات السهرة ، بعض كتب الليسانس لأطالعها مع استمرارى على ملاحظة لوسيان . ولكننى لم أفكر بتاتاً فى التخلص من هذه السخرة حتى ولا ان اتألم منها . فلم تكد ترن لهجة الماركيز الخشنة حتى رمقتنى الفتاة بنظرة ملؤها الاستعطاف والرجاء كتلك النظرات التى تستنجد بها المرأة إذا ما رغبت فى طلب العفو ، بلغة صامتة ، عن هفوة شخص تحبه . ثم طرأت على مخيلتى فى الحال خطة جديدة فهلا أستطيع أن أستغل سخرة المطالعة فى خدمة خطة الأغراء التى بدأت بتنفيذها ، ثم أهملتها ، فبعثتها الآنسة دى جوسا من لحدها ؟ ولذلك فما كاد الماركيز يسأل عن اختيار الكتاب حتى أجبته بأننى سأبحث عنه : والواقع إننى كنت أبحث ولكن عن كتاب يساعدنى على الاقتراب من

الفريسة التى كنت أحوم حولها كما كان يفعل باشق رأيته يحوم حول عصفور جميل عند تل الدوم .
أو لم يكن هذا الظرف جديراً بتجديد المحاولة التى عالجتها بفريتى المختلقة وعللت نفسى بنجاحها ولم تفلح ؟ إنا مدينون لك يا أستاذى العزيز بأبدع وأمتن ما صوره العقل وخطه يراع كاتب فيما تسميه بحق « الروح الأدبية » وفى تقلبات قلبنا بما يشبه تقلبات الشهوات على حد تصوير الشعراء . وتبينت لى وسيلة جديدة للتأثير على شارلوت وعاتبت نفسى لأننى لم أفكر فيها إلى الآن . ولكن أين السبيل إلى العثور على قصة مثيرة لأبعث القلق إلى نفسها على أن تكون فى ظاهرها طاهرة بحيث يمكن قراءتها على مسمع من أفراد الأسرة مجتمعين .
ونقبت فى جميع أنحاء المكتبة فكان ما عثرت عليه فيها ينم على ما طبع عليه هؤلاء الأسياد من المتناقضات والمصادفات . فقد جمعت المكتبة مؤلفات القرن الثامن عشر التى حدثتك عنها ثم انقطعت سلسلة المؤلفات ردحاً طويلا لأن القصر ظل خالياً طوال مدة المهاجرة ثم تلتها مجموعة من القصص الخيالية لكتاب العهد الرومانتيكى وهى تدل على ما كان عليه والد الماركيز

ـ الذى أعلم بأنه كان صديق لا مارتين ـ من الميول الأدبية ، ثم مجموعة من أحط القصص العصرية كتلك التى تشترى فى محطات السكك الحديدية وتلق، ولما تقرأ بأكملها، فبعض مؤلفات فى الاقتصادالسياسى كان السيد دى جوسا قد أهملها بعد أن شغف بها . ثم عثرت فى النهاية بين هذه الأكداس المكدسة على «أوجينى جرانديه» ورأيت أنها تتمشى مع الغاية التى أسعى اليها ، فليس أفعل، في مخيلة يافعة ، من تلك المواقف الغرامية البريئة المثيرة حيث الطهر يستر الشهوة بوشاح شفاف من الشعر والخيال . ولكن الماركيز كان لاشك عليما بهذه القصة وتفاصيلها عن ظهر قلبه ولذلك كنت أخشى أن يرفض سماعها .

وعلى إننى ما كدت أعرض عليه فكرتى حتى بدا منه عكس ما توهمته إذ أجابنى : ـ «أحسنت ! فهو إحدى الكتب التى تقرأ مرة واحدة ويتناولها الحديث دائماً وتنسى تماما . . . لقد اجتمعت بمؤلفها بلزاك مرة فى باريس عند أسرة كاسترى . . . مضى على ذلك نيف وأربعون عاما فقد كنت إذ ذاك غلاماً . . . ولكننى مع ذلك اذكره جيداً فقد كان ضخم الجثة بديناً قصير

القامة مهزاراً كثير الحديث حاد النظرات ... »

« ولكننى ما كدت أقرأ الصفحات الأولى حتى أخذ الماركيز يغط فى النوم بينما كانت الماركيزة والآنسة لارجيكس والراهبة منهمكات فى أشغالهن اليدوية دون أن يبدو عليهن ما يخالجهن من الأفكار وبينما كان لوسيان مجداً فى تلوين صور مجلد ضخم بألوان كان قد اقتناها منذ بضعة أيام. أما أنا فكنت منصرفا إلى ملاحظة شارلوت خـــلال قراءتى ولم أجد عناء فى الاستنتاج بأننى قد لمست فى هذه المرة الوتر الحساس من نفسها وإنها تهتز تحت تأثير عبارات القصـــة كما تهتز أوتار القيثارة بين أصابع العازف الفنان. كل شيء فيها كان يؤهلها لمثل هـذا التأثير من مشاعرها المضطربة حتى أعصابها المتوترة بتأثير من مزاجها الطبيعى فليس من السهل قضاء أسابيع فى جو رطب خناق كجو هذا القصر بغير ما ضرر أو تأثير، فمرض السويداء المصاب به الماركيز كان يستدعى ايقاد النار فى المدفأة نهاراً وليلا. ولم أفكر إذ ذاك فى أن مثل هذا العامل كان خير معين لى على التأثير عليها وان ضميرى كباحث نفسانى ليفخر اليوم ويجد لذة فى التنويه

بذلك . فمنذ تلك الليلة رأيت هذه الطفلة معلقة بشفتى ،
تلتقط العبارات التى أنطق بها عن غرام أوجينى الساذج
وابن عمها شارل وتطوره فى مراحله المؤثرة . وقد
حملتنى تلك الغريزة التى ألهمتنى اليها القصة التى اختلقتها
على أن أحلى كل عبارة بما يناسبها من اللهجة لأزيدها
وقعاً وأضاعف في تأثيرها . لاشك فى اننى أتذوق هذا
الكتاب الصغير، وان كنت أفضل عليه عشرات القصص
من مؤلفات بلزاك «ككاهن تور» مثلا فهى درر أدبية وكل
جملة منها تحوى من الفلسفة أكثر مما في تفسير سبنيوزا،
ومع ذلك فقد تظاهرت بأن نياط قلبى تكاد تتمزق مما
تعانيه ابنة البخيل من بؤس وشقاء ، فكان صوتى يئن
ويتألم لسجينة سومير الرقيقة ثم ينقلب حاقدا على ابن
العم الغادر الخائن . على اننى ، فى هذا الموقف أيضاً، كنت
أجهد نفسى بما لا فائدة منه اذ لم يكن فى حاجة إلى مثل
هذا الفن المعقد فأية قصة غرام كانت عاملا خطراً على
شارلوت فى حالة الشعور والاحساس الخيالى التى كانت
عليها . فلو أن كلا الأب والأم كانا يتمتعان بذرة من
دقة الملاحظة التى يجب أن يتمتع بها الآباء لصيانة
بناتهم ، لكان فى مقدورهما أن يتبينا ذلك الخطر من

مجرد التطلع إلى محيا ابنتهما التى كانت تزداد شغفاً واسترسالا خلال الليالى الثلاثة التى استغرقتها قراءة الكتاب . ولم تفعل الماركيزة أكثر من التعليق على أن أخلاقا بمثل أخلاق الأب جرانديه المكفهرة وأخلاق ابن العم الفاسدة لا توجد . أما الماركيز فقد طالما تقلب فى مناهج الحياة وتقلبات العيش فلم يبد آراء بمثل هذه السذاجة وعبر عن أسباب سأمه خـــلال القراءة بقوله :

— يقينا ان هذا الكتاب آية من آيات الأدب . فتلك الأوصاف التى لا تنتهى وتلك التحاليل والحسابات والأرقام . . . كل ذلك جميل . وانى لا اعترض عليه ولكننى عند ما أقرأ قصته ، فانما أفعل ذلك لا لهو ... »

« واستنتج بأن يجب تكليف الكتبى في كليرمون لأرسال هزليات لا بيش . فتألمت إلى حد اليأس من ذلك العبث الجديد لانى لا ألبث أن أصبح فى موقف العاجز عن التأثير على مخيلة الفتاة فى الوقت الذى قدرت فيه امكان النجاح، كما أن فى مثل هذا التصرف من الماركيز ما يدل على جهل لما تتوق اليه هذه النفس الملهمة والحاجة التى تشعر بها، على غير علم منها، وهى التقرب منى، ومحاولة

بهى وحملى على فهمها والعيش على اتصال متواصل مع فكرتى .

« وفى اليوم التالى لليوم الذى أصدر فيه الماركيز قراره ضد القصص التحليلية أقبلت الآنسة دى جوسا على المكتبة بينما كنت أشتغل مع أخيها . جاءت لتعيد مجلد دائرة المعارف الى مكانه فلم تعد من حاجة الى بقائه خارجاً ثم ابتسمت ابتسامة مرتبكة مترددة وقالت لى فى شىء من الحياء :

— « وددت لو أسألك خدمة . اننى أتمتع بكثير من ساعات الفراغ ولا أدرى كيف أشغلها ... أريد أن أستنير بآرائك فيما يجب على أن أقرأه .. ان الكتاب الذى تخيرته منذ بضعة أيام قد حمل السرور الى نفسى ... »

ثم استطردت :

— « ان القصص تضايقنى عادة . أما تلك فقد أثرت فى نفسى وأثارت اهتمامى ... »

« وشعرت وهى تتحدث الى هكذا ، بنفس السرور الذى استمتع الكونت أندريه بلذته عندما رأى الجندى العدو ، الذى قتله ، إبان الحرب ، يعلو برأسه فوق الحائط .

فقد خيل الى، أنا أيضا، انى أقبض على فريستى البشرية عند فوهة بندقيتى . أو لم تضع شارلوت نفسها فى قبضة يدى طائعة مختارة اذ اناطت بى أمر مطالعاتها ؟ وبدا لى ان الجواب على هذا السؤال دقيق الى حد انى تظاهرت بارتباك عظيم وشكرتها على حسن ثقتها بى وأخبرتها بأنها تعهد الى بمهمة دقيقة أشعر بأنى عاجز عن أدائها . ويجمل القول انى تظاهرت أمامها بالتخلى عن تلك الثقة التى وضعتها في وأغبط نفسى على نوالها . فألحت . وانتهى بى الأمر ان وعدتها بأن أقدم لها فى اليوم التالى بيانا بهذه الكتب . وكان يجب على ألا أخطىء فى هــذا الاختيار لأنه شاق ويختلف تمــاماً عن اختيارى « أوجينى جرانديه » . وقضيت السهرة وهزيعاً من الليل وأن أردد في مخيلتى بضع مئات من المؤلفات . كيف عسانى أن أحدد تلك التى تحرك مخيلتها دون أن تزعجها، وتقلقها دون أن يثيرها ؟ وفى النهاية خاطبت نفسى بصوت مرتفع مقلداً لهجة أبى ومرددا عبارته المختارة « فلنبدأ بنظام » . وطبقت هذه المسألة على المسألة الآتية: كيف استطاعت الكتب أن تؤثر على مخيلتى، أنا، فى حداثة سنى . وما هى تلك الكتب ؟ وتحققت ـــ كما

دللت لك على ذلك فى هذا الاعتراف الدقيق — من انني اندفعت فى تيار الآداب متأثراً بعامل السعى لاكتشاف المجهول فى الشعور والعواطف كما سحرتنى الرغبة فى الشعور باختلاجات جديدة لم يشعر بمثلها أحد . واستنتجت ان هذه العوامل هى القاعدة العامة للتسمم الأدبى . فكان على إذن أن أختار للفتاة كتباً توقظ فيها مثل تلك الرغبة مع مراعاة الفارق بين أخلاقنا . وكنت قد أحببت من الكتاب من هم معقدون شهوانيون لأن هاتين الميزتين كانتا الميزتين العميقتين اللتين تتكون منهما طبيعتى . وكانت شارلوت رقيقة طاهرة وديعة . فكان من المناسب أن يلقى بها فى طريق الفضول الخيالى بواسطة تصوير المشاعر والأحساسات المماثلة لما يشعر به فؤادها . وقدرت بعد التحليل الأخير ان « دومنيك » لفرومنتان و « البرنسيس دى كليف » و «فاليرى» و «جوليادى تريكور» و «الزنبقة فى الوادى» و « القصص القروية» لجورج ساند ، وبعض هزليات دى موسيه لا سيما « لامزاح فى الحب » ، و «المنظومات الأولى» لسولى بريدوم وفينى ، خير ما تخدم أغراضى . وحملت نفسى عناء تدوين هذه القائمة وعقبت على كل

منها بتعليقات مغرية أشرت فيها الى لون الكتاب وانسجام العبارة عند كل من هؤلاء الكتاب . تلك القائمة هى الرسالة التى احتفظت بها هذه الطفلة المسكينة وقال عنها المحققون انها تعتبر مبادىء مغازلة . آه ! يالتلك المغازلة الغريبة التى تختلف تمام الاختلاف عن ذلك الطمع السافل فى الزواج الذى يتهمنى به اصحاب هذه العقول المأفونة الخشنة ! ولئن لم يكن لدى غير هذا السبب الذى سأورده فى نهاية مذكرتى ، لأرفض الدفاع عن نفسى إرضاء لأنانيتى ، لاكتفيت بما أشعر به من الاشمئزاز نحو تلك العقول ألاسنة الوضيعة التى لايوجد بينها فرد يستطيع أن يدرك قيمة عمل أملته الأفكار البريئة .

كان يجب أن يؤلف قضاتى منك ، يا أستاذى العزيز ، ومن غيرك من أمراء الفكرة الحديثة ، إذن لاستطعت أن أتكلم كما أتحدث اليك الآن ولكنك تعلم ، أنت ، اننى كنت مرصوداً لتلك الساعة الحاسمة كما أنا مرصود للساعة التى اكتب لك فيها . وأن جماعة الكذابين والمرائين يفضلون العيش بعيداً عن العلم - ذلك العلم الذى أوقفت نفسى على خدمته فقط .

« وجاءت الكتب التى اخترتها من كليرمون فلم

يعترض عليها الماركيز ولم يبد أية ملاحظة بشانها .
وإنه ليجب أن يكون المرء متمتعاً بعقلية غير التى يتمتع بها هذا الرجل المسكين ، ليدرك انه لاتوجد كتب سيئة وإنما توجد ساعات سيئة لمطالعة أعظم الكتب وأحسنها . وقد جئت أنت ، يا أستاذى العزيز ، بتشبيه صحيح فى الفصل الذى كتبته عن الروح الأدبية ، إذ شبهت ذلك الجرح الدامى الذى يحدث في بعض المخيلات من جراء المطالعات، بتلك الظاهرة المعروفة التى تبدو على الأبدان المتسممة بداء السكر فأقل وخز فيها يتناوله التسمم ويحدث تعفنا .

« ولئن كان لابد من دليل عل نظرية الأستعداد الشخصى لوجدته فيما ذهبت اليه الآنسة دى جوسا من البحث فى هذه الكتب المختلفة المتباينة من معلومات تتعلق بشخصى وطريقة شعورى وتفكيرى وإدراكى لمعنى الحياة والأخلاق . فكانت تجد في كل فصل وكل صفحة من هذه المؤلفات الخطيرة فرصة لتمعن فى سؤالى بسذاجة وشهوة .

« أجل . إنى لعلى يقين من انها كانت سليمة النية وانها لم تتصور انها تأتى أمراً إداً فريا إذ كانت تتردد

على لتحادثنى وتسألنى عما يراد من هذه العبارة أو تلك عن دومنيك أو عن جوليا أو فليكس دى فاندنس أو عن برديكان . وإنى لأذكر للآن عظم الكراهية التى أحست بها نحو هذا الشاب ، وهو أقدر أبطال موسيه على الأغراء وأبعدهم جرما ، كما أذكر الحرارة التى رددت بها صدى تلك العاطفة التى حملته على الوقيعة بين كاميل وروزيت . مع إنه لم يوجد شخص فى أى كتاب أحب إلى من هذا العاشق الذى جمع بين الخيانة والأخلاص وبين المخادعة والرقة وبين السذاجة وسقط الأخلاق . والذى ينفذ، هو أيضاً كما يريد ، اختباره فى تشريح الشعور على ابنة عمه الجميلة النبيلة . إنى أوردلك هذا المثل ، ضمن عشرين غيره ، لا قدم لك فكرة عن المحادثات التى أخذت تدور بيننا، بغير ما انقطاع ، فى ذلك القصر الذى كنا فيه فى عزلة تامة غريبة . فلم يكن فى الواقع من يراقبنا. وأمعنت فى التظاهر بالمظهر الذى تقنعت به يوم حضورى . كما إن الماركيز كانا قد صورانى فى مخيلتهما بصورة تختلف تمام الأختلاف عن طبيعتى الحقيقية . فلم يحملا نفسيهما عناء الاستقصاء ولم يبحثا للوقوف عما إذا كان التأثير الأول

لذى أحدثته فيا كان صادقا أم كاذباً . وكانت الآنسة لارجيكس من جانبها سليمة النية في تطفلها إلى حد إنها لم تشك بتاتاً فى الأفكار المفسدة التى كنت أحيكها في رأسى وأنفثها عن طريق الأدب والعلم . ولم يكن للأب بارتوموف والأخت أناكليه ، مع تنافرهما المستتر واتفاقهما الظاهر تحت ستار الثوب الكهنوتى الذى يرتديانه ، هم سوى العمل على اكتساب رضاء أسياد القصر ، أما الكاهن فعن كنيسته وأما الراهبة فعن رهبانيتها . وكان لوسيان طفلا . أما الخدم فاننى لم أكن قد اكتشفت الخيانة التى انطوت عليها نفوسهم والغدر الذى يتأجج وراء وجوههم الحليقة الجامدة وأزيائهم الرمادية تحليها الأزرار المعدنيـة .

ولقد كنا إذن ، شارلوت وانا ، ننعم بحرية تامة فنتحدث إلى بعضنا بمـا نشاء طوال يومنا . فكانت تظهر لأول مرة في الصباح فى حجرة الطعام حيث كنا نتناول الشاى ، تلميذى وأنا ، وهناك ، عند ركن المائدة وبحجة تناول طعام الأفطار ، كنا نتسارر ، فاستنشق أريج تلك النكهة الذكية المنبعثة من جدائل شعرها والتهم بنظراتى المحرقة ثنايا هذا البدن المرن الغض البارز تحت

ثنايا ثوبها الشفاف الناصع . ثم التقي بها في المكتبة حيث كانت تجد أعذاراً تنتحلها دائماً للتردد عليها وهناك تنقلب وتتغير وتظهر بما كانت عليه فتبدو لى فى ثوب الصباح هيفاء ممشوقة القامة فى مشدها . ثم نلتقي في حجرة الاستقبال قبل موعد الغداء وبعده فكانت تبذل كل ما فيها من لطف ودلال لتعنى بخدمتنا جميعاً وتسرع في تقديم القهوة ليتسنى لها البقاء طويلا إلى جانبي والتحدث إلى فى عزلة عند ركن النافذة . وعند ما كان الجو ملائماً كنا نخرج بعد الظهر نحن الأربعة غالباً ، الوصيفة وشارلوت وتلميذى وأنا . ونظل في نزهتنا حتى تجمعنا ببعضنا ساعة تناول الشاى ثم طعام العشاء حيث كنت أجلس إلى جانبها ثم خلال السهرة . وهكذا كانت محادثاتنا مستمرة غير متقطعة إلا فى أويقات قصيرة لا تؤثر على انسجامها وارتباطها ، وإنى لأشبه . تشبيهاً عقلياً ، تلك الظاهرة التى كانت تبدو على هذه الفتاة بالظاهرة التى لاحظتها مراراً عند اشتغالى بترويض الحيوانات . حملنى الفضول يوماً على كتابة بعض فصول عن النفسية الحيوانية . ولئن كانت أمى تحمل اليك بعد موتى ، كما طلبت منها ذلك ، ما تعيده اليها النيابة من

أوراق ، فانك تجد بينها مذكرات عن تلك العلاقات بين الحيوان والرجل . ولدى ما يحملنى على الاعتقاد بأنه لم يسبق نشر مثل هذه المذكرات وانها ستلق منك رعاية كبيرة . وقد اتخذت من إحدى نظريات سبنيوزا نقطة أساسية شدت عليها بحثى وإنى لا أذكر الآن نصها ولكن هناك معناها : «إن مجرد تصور أية حركة تعد دليلا على قيام من يتصورها بعملها ...» هذا صحيح فيما يتعلق بالرجل وهذا صحيح أيضاً عند الحيوان وعلى هذا الاعتبار فسر المسيو أيناس العالم الجليل الفذ الذى تعرفه جيداً ، ان كل مجتمع قائم على المشابهة .

«واستنتجت أنا ، ان الرجل إذا قام بترويض الحيوان لحمله على العيش معه فى وسط المجتمع ، وجب عليه ، فى علاقاته مع هذا الحيوان ، أن يأتى بحركات يستطيع الحيوان أن يفهمها ليرددها . وهكذا يصبح الرجل مشابهاً للحيوان . وقد فحصت هذه القاعدة ووثقت من صحتها عند ما لاحظت الشبه الغريب الذى يوجد بين وجوه الصيادين ووجوه كلابهم مثلا . ولاحظت كذلك . وهذا ما كان يروض الآنسة دى جوسا يوماً أكثر من يوم . أننا بدأنا ، هى وأنا ، نستعمل فى

حديثنا جملا متشابهة وعبارات تكاد تكون مطابقة . فكنت أباغت نفسى وأنا أحلى كلماتى بلهجة تشابه لهجتها وألاحظ عليها إشارات تماثل إشاراتى . ومجمل القول إننى أصبحت شطراً من حياتها دون أن تشعر هى بذلك لأننى كنت أحرص تماماً على عدم التفوه أمامها بكلمة تنفر تلك النفس المستسلمة أو تشعرها بالخطر .

« وأن هذه المعيشة السياسية التى حكمت على نفسى بها في كثير من الحيطة والمراقبة زهاء الشهرين اللذين انقضيا على اتصالنا العقلى وحياتنا الفكرية لم تخل من ثورات داخليـة تكاد تكون متعاقبة . فلم يكن برنامجى قاصراً على استحالة هذا العقل والتسلط رويداً رويداً على تلك المخيلة . فقد كنت أريد أن أحب ثم تبينت ان هذا الاهتمام العقلى لم يكن إلا فاتحة الشهوة البدنيـة . وكان لابد لهذه الفاتحة ـ لكى تجـدى وتأتى بالثمرة المطلوبة ـ من الوصول إلى علاقة شخصية غير علاقة الشعور . يوجد فى كتابك « نظرية الشهوات » ملاحظة في نهاية أحدى الصفحات كنت دائباعلى قراءتهافى ذلك العهد وما زلت أحفظ نصها عن ظهر قلبى فقد جاء فيها . « إن دراسة المغررين المحترفين دراسة متينة لابد

أن تكشف القناع عن مسألة تولد الحب . ولكن الوثائق تنقصنا . فالسواد الأعظم من هؤلاء المغررين كانوا من ذوى العزائم والاقدام ثم انهم لم يحسنوا تصوير أنفسهم وكتابة تاريخ حياتهم . ومع ذلك توجد لدينا بعض مقطوعات فى غاية الاهمية من الوجهة النفسية وهى مذكرات كازانوفا . لحياة المارشال دى ريشيليو الخاصة ، والفصل الذى كتبه سان سيمون عن لوزان تسمح لنا أن نقول ان الجرأة والألفة الطبيعية تعتبران من أضمن الوسائل لخلق الحب واثارته . على أن تلك النظرية المسلم بها تعزز مبدأنا عن أصل تلك الشهوة البهيمية . بينما كنت أتابع محادثاتى الأدبية مع شارلوت كنت أردد لنفسي هذه العبارة وأكررها بعقيدة ثابتة خصوصاً وأن نيران الطبيعة ، كما أسلفت لك القول كانت تتأجج في صدرى وأن مجرد وجود الفتاة كان يبعث إلى رأسى أحر الذكريات وأفظعها . وأحياناً عند ما كنا نختلى ببعضنا بضع دقائق، فتتحرك أمامى وتتجه أقدامها نحوى وتتنفس وتحيا ، كنت أشعر بالرغبة المحمومة تسرى في عروق وكان لابد لى أن أدير نظراتى جانباً حتى لا تقشعر من هول منظرى وتنفر منى .

وكنت أنظر إلى يدها البيضاء تقلب صفحات كتاب وأصبعها النحيل يمتد ليشير إلى أحدى السطور . فلو أنني مع ذلك تناولت تلك اليد الصغيرة وضغطت عليها بيدى طويلا وفى رفق ؟ كنت أقول لنفسى ان واجبى يتطلب ذلك ولكننى كنت لا أستطيع . — وكثيراً أيضاً ، عند ما نفترق ، كان يخيل إلى أن الجرأة والاقدام خير ما كان يجب على أن أفعله وحيئذ كنت أعاهد نفسى على أن أضمها بين ذراعى وألصق فمى بفمها . وأتخيلها وقد مادت بها الأرض من تأثير مداعبتى وصعقت من تكشف وحشيتى الفجائى . ما ذا عسى أن يحدث بعد ذلك ؟ فقد كان قلبي ينبض بسرعة لهذه الفكرة . فما كان الطرد الذى يخيفنى ويمنعنى عن ذلك فان عدم الاقدام كان أفعل فى أنانيتى من هذا الطرد . ومع ذلك فاننى لم أجسر . كم من مرة قضيت الليل بطوله ساهراً ساهداً وانا أردد فى نفسى مختلف العزائم الجنونية !

كنت أهجر مضجعى بعد ساعات وقد تندى جسمى بالعرق البارد . ولقد طالما سألت نفسى : لو قصدت الآن إلى حجرتها وأنسبت الى جانبها فى مضجعها . وإذا استيقظت وهى بين ذراعى وقد التحمت شفاهنا والتصق جسمانا

ولقد دفعني جنون هذه الخطة ففتحت بابي باحتراس اللص ونزلت إلى الطابق السفلي . ثم سرت الى اليمين فى دهليز حتى أدركت باباً آخر هو باب حجرة شارلوت . كنت مهدداً بأن أفاجأ وأطرد ويكون طرد فى هـذه المرة بغير ما سبب . ووضعت يدى على قبضة الباب فشعرت بأن برودة النحاس تلهب أصابعى . ثم لم أجسر . — لا يأخذنك الظن بأن ذلك كان نتيجة الخجل . ان العجز عن العمل من مميزات خلق . ولكن ذلك لايكون إلا إذا لم تساعدنى على هذا العمل فكرة . أما اذا كانت لدى فكرة فانها تنفث فى صميم كيانى عزيمة لا تقهر ، حتى ليصبح ، من الامور الهينة ، أن أسير الى الموت ، ولسوف يرون ذلك اذا حكم على . كلا . فان ما كان يشل حركاتى حيال الآنسة دى جوسا ، كما لو كان بتأثير مغناطيسى ، انما هو طهرها . وانى ألاحظ الآن ذلك ولا أستطيع تفسيره . ومن السخف أن يبدو لأول وهلة أن مغازلة العذراء أكثر صعوبة من مهاجمة امرأة قد استسلمت فيساعدها علمها بأسرار الطبيعة على الدفاع عن نفسها . على أن الأمر قد وقع لى هكذا . أو قل ما يكون فاننى تحملت

ارتدادي المرغم أمام الطهر بقوة غريبة . وعند ما كنت أشعر بوجود هـذا الحاجز المنيع بين شارلوت وبيني ، كانت مخيلتي تحمـل الى ذكرى خرافة الملاك الحارس فادركت اذ ذاك سر منشأ هذا الخيال الشعرى الكاثوليكي . فاذا نحن أعدنا تلك الظاهرة إلى حقيقتها عن طريق التحليل فانها تدل فقط على انه يوجد بين علاقات كائنين تبادل في العمل من أحدهما الى الآخر حتى بدون علم هذا الأحد وذلك الآخر . فلو قدرت فرضاً انني كنت أعمل على ترويض هذه الفتاة الفتية عن طريق التشبه بها فانني أتأثر بغير علم مني بالايحاء الخلق الذي ينبعث من كل خلق حقيقي صحيح . وقد كانت سذاجة نفسها المتناهيـة تتغلب أحيانا على أفكارى وذكرياتي ورغباتي . وفي النهاية ، فانني كنت أحكم بأن هذا الضعف غير خليق بدماغ كدماغي ، إلا إنني كنت أجل شارلوت واحترمها ـــ آه ! لشد ما أسرع تسلط الأوهام الباطلة على العقل ! ـــ كما لو كنت لم أعلم قيمة كلمة «احترام» وانها عنوان غباوتنا وجهلنا. فهل نحن نحترم المقامر الذي يقضي ساعات يومه عند مائدة الروليت ينتقل من الكرة الحمراء إلى الكرة السوداء ؟ إيه ! ألا

أن الفضيلة والرذيلة ، فى ميدان الحظ المتقلب في هـذا العالم ، لأشبه بالكرة الحمراء والكرة السوداء . وحظ الفتاة الشريفة فى هذا الميدان يتساوى وحظ المقامر السعيد.

«وأقبل الربيع وأنا على ما أنا عليه من تردد مخيف تتقاذفنى أعاصير الخطط الجريئة التى أرسمها والحياء المجنون الذى يعترينى وتنتابنى عواصف الاستدلالات العقلية المتناقضة والترتيبات المنظمة الحكيمة والنشاط المستكن الهادى.. وأى ربيع اكان لابد للمرء أن يقاسى وطأة الشتاء القارص فى هـذه الجبال ثم يستمتع بنعمة الطبيعة وتقلباتها الفجائيـة المنعشة ليدرك عظمة تلك الثقة وسحر تلك الحياة المستكنة في وسط هـذا الجو المتقلب إذا ما لاحت بشائر هذا الفصل المقدس تحملها أجنحة شهرى ابريل ومايو لتنشرها بين الغياض الزاهرة الرطبة فاذا بالحياة تدب وتختلج كما يختلج حباب المـاء تحت طبقة رقيقة من الثلج ، لا يلبث أن يحطمها وينساب خفيفاً شفافاً طليقاً مصفراً ومغرداً وإذا بالغابات المهجورة تفيض بحنين الثلوج المتساقطة على أشجار الصنوبر اليانعة الخضراء وأغصان البلوط الصفراء اليابسة . وإذا بالبحيرة تخلع عنها رداء الجليد وتتثاءب كما لو كانت تستيقظ

من سبات عميق . وإذا بنسمات خفيفة من النسيم الوادع الرقيق تهب على الغابة فتضطرب وتهتز ثم تنكسح أمامها السحب المتلبدة فتبدو زرقة السماء بما تمتاز به من صفاء رائع في هذه الأماكن المرتفعة حيث هى أعمق واوقع فى النفس مما هى عليه فى السهول والبطاح، وما هى إلا أيام قلائل حتى برزت القرية بحلة قشيبة مزدهرة الألوان . وبدأت أغصان الأشجار والشجيرات تورق وتثمر . وأخذ الجم المتحجر ينتعش مع الطبيعة وينجلى قطعة قطعة . وازهرت النباتات فى الأجام فكانت أزهارها الجميلة المتفتحة تذكرنى بتلك التى كنت أقطفها وأنا أسير إلى جانب أبى إذ كنت صبياً . وأول ماشاهدته منها كانت أزهار الربيع والبنفسج ثم حرف الفياض والأقحوان المتعددة ، وشقيق النعمان الأبيض والعنصل تفوح منها نكهة السوسن ، وخاتم سليمان الذى ينساب تحت سطح الأرض. وكان النسيم يهب من الفنن ويلفح هذه الأزهار فيعطر شذاها الأرجاء ويختلط نداها بأشعة الشمس وبخار الثلوج. وإنه ليكفى أن يستنشقها المرء حتى يثمل بعبيرها ويستمتع بما في الحياة من نعماء . وتأثرت بدورى بجمال هذه الطبيعة الرائع على الرغم من تقشفى وانكماشى

على نفسى وتغلغلى فى مذاهبى ونظرياتى الفلسفية . ولم تلبث أن تحطمت مرآة الأفكار المجردة التى كانت تجول فى دائرتها نفسى، حتى أننى عندما رجعت يوما إلى مذكراتى التى أتلفتها أطالع ما كنت أودعه فيها من أفكارى وشعورى وقفت أمامها مشدوها من سذاجتى وتأثير هذه المناظر على مشاعرى وقلبى ! وإنى الآن لاحقد على نفسى لأننى كنت أفكر في شعورى مثل هذا الجبن. على أننى أشعر بلذة كلما رددت في نفسى أننى، إذ ذاك، أحببت بأخلاص تلك التى لم تعد من هذا العالم . أجل إننى لأشعر بارتياح حقيق أننى - أو قل مايكون في ذلك اليوم الذى جسرت على أن أتحدث إليها عن حبى ، فى ذلك اليوم الذى كان فاتحة هلا كنا نحن الأثنين - كنت مخدوعاً بصحة عبارتى واخلاصها . أما ترى ياأستاذى العزيز كيف عاودنى الضعف مادمت أتذرع بأخلاص هذه الخديعة وأنتحل لنفسى منها عذرا . وعما عسانى أن أعتذر ؟ وأى شىء عساه أن يكون غير التقهقر الوضيع التعس الذى يبديه العالم أمام الاختبار الذى يزمع القيام به بنفسه .

« ولكنى أقول لك كل شىء ولا أتظاهر بأننى أقوى

عما كنت فأنى أقول لك إن هذا الاعتراف الذى طالما تداولت فيه لم يكن إلا نتيجة الصدف أو قل ما يكون فان الصدف قد مهدت له . اذكر أننا كنا فى الثانى عشر من شهر مايو هذا وهو التاريخ بالضبط . من يقول بانه لم يمض عام ومع ذلك ! . . . كان الجو فى الصباح مشرقا صحواً أكثر من المعتاد . خرجنا بعد ظهر ذلك اليوم ، الآنسة لارجيكس ولوسيان وشارلوت وأنا ، ميممين شطر قرية سان ساتورنان وتغلغلنا فى غابة مليئـــة بأشجار السنديان والبتولا والبندق وهى تفصل القرية عن قصر موردون المتخرب ويطلق عليها اسم غابة لابرادا . وكانت الطريق التى تخترق هذا المتنزه الموحش جميلة منتظمة ولذلك استصحبنا معنا العربة الصغيرة وكانت تتسع لأربعة على الأكثر . وكان لابد لنا أن نصعد اليها الواحـد تلو الآخر . كلا . لم نحظ قبل ذلك اليوم بمثل هذه السماء الصافية ولا بمثل ذلك الجو الندى ولا بمثل ذلك الأريج المنبعث من نسيم الربيع . على أننا لم نكن قد قطعنا فرسخاً حتى تعبت الآنسة لارجيكس من حرارة الشمس وجلست على مقعد العربة التى كان يقودها الحوذى الثانى . لقد شهد على هذا الخبيث بفظاعة

وقسوة وذكر كل ما عرفه أو ما حذره مما سأذكره لك أنا . ولم يلبث لوسيان أن أظهر الملل أيضاً ولحق بالوصيفة ، بحيث أصبحت أسير وحدى مع شارلوت. واعتزمت الفتاة أن تجمع باقة من أزهار السوسن فأخذت أعاونها . وتقدمنا تحت الأغصان تتفيأ ظلالها فكانت تسير إلى الأمام وتبحث عن هذه الأزهار . وكنا قد تغلغلنا فى السير حتى أدركنا مكاناً فسيحاً عند تخوم الغاب بعيدين عن أنظار رفاقنا . وأدركت شارلوت ما نحن فيه من العزلة وأصاخت بأذنيها ولم تعد تسمع وقع حوافر الجواد على أرض الطريق فصاحت وهى تضحك ضحكة الطفل .

— « لقد ضللنا . . » ومن حسن الحظ إن العودة إلى الطريق ميسورة كما تقول الأخت أنا كليه المسكينة هل لك أن تنتظر حتى أنظم باقتى ؟ فمن الخسارة أن أتلف هذه الأزهار الجميلة . . . »

« وجلست على صخرة تغمرها الشمس وبسطت على ثوبها أزهار السوسن التى جنيتها وأخذت تتناولها زهرة تلو زهرة . وكنت أستنشق مسك هذه الرائحة المنبعثة من تلك العناقيد الشاحبة وأنا جالس الى الجانب الآخر

من الصخرة . ومابدت لى هذه المخلوقة التى حصرت فيها
منذشهور جميع أفكارى على هذا الجانب العظيم من الرقة
والنعومة كما بدت لى فى هذه اللحظة بوجهها الوضاح، وقد
أكسبه الهواء الطلق لوناً ورديا ، وشفتيها القرمزيتين
وقد التحمتا ببعضهما فى شبه ابتسامة خفيفة ، وبريق
عينيها الصافيتين ، ونبل هذا الجسم الرشيق . وكانت تلبس
ثوباً من الجوخ القاتم شبه معطف قصير يضم خصرها
فيدو كأنما هو تمثال منحوت . وفى قدميها البارزتين من
تحت أطراف الثوب حذاء من الجلد اللامع . وشعرها
الأشقر قد ضمت أطرافه تحت قبعة من الجوخ الأسود
ينعكس منه بريق وحشى . ونزعت قفازها ليسهل عليها
ضم الأزهار فتعلقت أنظارى بيديها الجميلتين الناصعتين
وأصابعها النحيلة. كل مافيها من روعة الجمال وسحر الصبا
كان مدعاة للدهشة لما فيه من تناسق عجيب مع جمال
المكان الذى انتحيناه . فكنت كلما نظرت اليها ودققت
النظر فيها زدت اقتناعاً بفكرتى حتى لقد أيقنت أن
الفرصة سانحة لاعبر لها عما أبتغيه منذ عهد بعيد . حقاً
بأننى لن أجد خيرا من تلك الفرصة ولا أنسب منها . فمن
أية أعماق فى نفسى خرجت هذه الفكرة وفى أية لحظة؟

لا أدرى . وكل ما أعلمه أنها ما كادت تتولد فى رأسى حتى كبرت وشبت وتعاظمت . . . وكان يشوب تلك الفكرة شيء من وخز الضمير المظلم وهو أننى كنت أراها مستسلمة بعيدة عن الشك فيما أعده لها في طى الخفاء وإننى كنت أستغل انفرادنا الى بعضنا فى كل يوم لأحملها على معاملتى معاملة تكاد تكون أخوية . وكان قلبى ينبض بسرعة . وسحر وجودها يحرك دمى . ومن سوء حظها أنها التفتت إلى لحظة لتريني الباقة وقد أوشكت أن تتم جمعها . ولاشك أنها لمحت على وجهى أثر الاضطراب الذى كانت تثيره فى نفسى عاصفة أفكارى لأن ملامح وجهها اكتأبت فجأة وعلتها سحابة من القلق بعد أن كانت مشرقة فرحة . ثم أن الواجب يدعونى أن أضيف الى ماتقدم أننا ، خلال محادثاتنا طوال الشهرين اللذين ارتبطنا فيهما برابطة الصداقة ، تحاشينا ذكر قصة يأسى المختلقة التى حاولت بها أن أستدر شفقتها على . وقدكان ذلك من جانبها نبلا وكرماً ومن جانبى خديعة ورياء . ولقد أدركت إلى أى مدى كانت قد سلمت بصحة هذه القصة وأنها لم تكف عن التفكير فيها عندما قالت لى فى شيء من الأسى المنبعث من عينيها .

— « لماذا تكدر على نفسك جمال هذا اليوم بذكريات محزنة ؟ كان يخيل الى أنك أصبحت أكثر تعقلا . . . »

فأجبتها :

— « كلا . فأنت لا تعلمين مايحمل الحزن الى نفسي . . . آه ! ليست هي الذكريات . . . أرى أنك تلمحين الى أشجاني السالفة . . . فأنت تخطئين . . . لم يعد لها مكان في نفسي ، كلا ، أكثر مما يوجد لأوراق العام الماضي من أثر في هذه الأغصان . . . »

« وأشرت لها الى غيضة من أشجار البتولا كان ظلها يتساقط فى تلك اللحظة على الصخرة التى نجلس عليها . وسمعت صوتى وهو ينطق بتلك العبارة كما لو أنه صوت شخص سواى . وفى نفس الوقت قرأت فى عينى رفيقتي أنها قد أدركت غرضى على الرغم من التشبيه الشعرى الذى أنقذت به ماتنطوى عليه تلك العبارة من المعنى المقصود . أى شيء دار فى نفسي وكيف سهل على ما كنت أراه حتى هذه الساعة شاقا عسيراً ؟ وكيف أقدمت على ما كنت أظنه مستحيلا ؟ وتناولت يدها فشعرت بأنها تنتفض فى يدى كأنما أصاب تلك الطفلة المسكينة

هزة هلع مخيف . ووجدت في نفسها قوة للوقوف
لكى تذهب ولكن ركبتيها كانتا ترتعدان كذلك ولم
أجد عناء فى حملها على الجلوس . لقد كنت مضطرباً من
جرأتى إلى حد أننى لم أعد أتمالك نفسى وبدأت
أكشف لها عن عواطفى نحوها بعبارات لن أستطيع أن
أذكرها اليوم لاننى لم أتأهب لها وكنت أقولها عفواً .
كل الانفعالات التى اجتزتها منذ وصولى إلى القصر،
أجل ، كلها ، حتى ما كان منها كريها على نفسى كحسدى
للكونت أندريه وما كان محبباً اليها كتأنيب ضميرى على
العبث بفتاة فتية ، كل ذلك قد ذاب فى شبه عبادة
تكاد تكون صوفية أو مجنونة لهذه المخلوقة القلقة
المضطربة الرائعة ! . . كنت أراها ، وأنا أتكلم ، فى
شحوبة الأزهار التى ظلت متناثرة على ثوبها . واذكر أن
العبارات كانت تتوارد على خاطرى فى حماسة تشبه
الجنون مختلة إلى حد المجازفة ، وإننى انتهيت بأن أردد فى
شىء من التشنج : « لشد ما أحبك ! . . » وأنا أضغط
على يدها بين يدى واقترب منها . كانت منحنية كأنما
فقدت القوة على الثبات . وطوقتها بذراعى ولم
أفكر لشدة اضطرابى فى أن ألثم فمها ، فأعارتها تلك

الحركة قوة جديدة وإن كانت قد زادت فى اضطرابها فانتصبت وتخلصت منى ، وقالت فى صوت أشبه بالأنين: دعنى . . . دعنى . . . ومشت القهقرى مادة ذراعيها إلى الأمام كما لو كانت تدافع عن نفسها . وسارت حتى جزع شجرة البتولا التى أشرت اليها منذ قليل وهناك اسندت ظهرها وهى تلهث من شدة الاضطراب والهلع بينما كانت العبرات تنحدر على خديها . لقد كانت تلك العبرات تعبر عما تشعر به نفس الفتاة من طهر جريح وثورة جامحة ، وشفتاها المرتعشتان تنطقان بما تعانيه من حر الألم فجمدت فى مكانى حيث كنت وأنا أتمتم : « عفواً . . . »

ــ فأشاحت إلى بيدها وقالت : « صه » . ومكثنا هكذا وجها لوجه صامتين وقتا أدركت أنه لابد أن يكون قصيراً وإن بدا لى طويلا . وبغتة سمعنا نداء يخترق انحاء الغابة عن بعد ثم يقترب وهو صوت يقلد صيحات السنونو . فقد قلقوا لغيبتنا فجاء الصغير لوسيان ليجمعنا بهذا النداء المعتاد وارتعشت شارلوت لذكرى الحقيقة . وعاودتها حمرة وجهها . ونظرت الى بعينين تجلت فيهما عزة النفس والأنفة أكثر مما فيهما

من الهلع. وأخذت تنظر الى نفسها كما لو كانت قد أفاقت من نوم مخيف. ونظرت إلى يديها العاريتين وكانتا لاتزالان ترتجفان ثم التقطت قفازيها وأزهارها بغير ما كلمة وأخذت تعدو أمامى، أجل، تعدو كحيوان يطارد، ميممة ناحية الصوت. ولم تنقض عشر دقائق حتى عدنا الى الطريق.

— ورأت أن تدرأ ماعسى أن توحى به هيأتها المتألمة من الأسئلة وعاجلت مربيتها بقولها: «لقد شعرت بشىء من التعب. فهل لك أن تفسحى لى مكاناً فى العربة؟ يجب أن نعود...»

«فأجابتها المربية: «لاشك أن حرارة الجو قد أثرت فيك.»

«وسأل الصبى عندما أخذت أخته مكانها فى العربة وتبوأ هو أيضاً مكانه فى الخلف: «والسيد جرسلو؟»

«فأجبته: «سأعود مشياً على قدمى»

«وابتعدت العربة مسرعة بالرغم من حملها الرباعى. وودعنى لوسيان بأشارة من يده. وكنت أستطيع أن أرى قبعة الآنسة دى جوسا جامدة إلى جانب الحوذى الذى لكز جواده فأسرع فى العدو. وما هى

إلا لحظة حتى اختفت العربة ورأيتنى أسير وحدى على هذه الطريق تحت تلك السماء الزرقاء وبين هاتيك الأشجار المورقة الخضراء. وكانت غبطتى وماخالجنى من حماس الفرح عند بدء نزهتنا قد تلاشت وتحولت إلى كآبة غريبة. لقد وقع المحظور فى هذه المرة فلا مفر منه وكنت قد بدأت المعركة وخضت غمارها لخسرتها. لسوف أطرد من القصر ذليلا محقراً، أو قل ما يكون فان تلك الفكرة التى كانت تساورنى لم تكن تزعجنى أكثر مما استولى على من شعور الأسف والخجل والرغبة تلك هى النهاية التى ساقتنى إليها حكمتى وتحليلى النفسى، وتلك هى نتيجة حصارى المحكم المستمر لقلب تلك الفتاة الفتية! لم تنبس بكلمة رداً على اعترافي الحار. وأنا أيضاً. ماذا ترانى قد رددت على مسامعها من العبارات مما لم يرد مثله فى عبارات القصص العادية؟ وكان يكفى أن تأتى بأشارة، وأن تهرب من أمامى مادة ذراعيها إلى الأمام، لأقف جامداً فى مكانى ولا أتحرك. لاشك أن ما كنت أشعر به نحوها فى تلك اللحظة من الكلف كان مشوبا بكثير من الأنانية والشهوة البدنية لأن حركة التعبد التى دفعتنى إلى التحدث إليها

بتلك الفصاحة المخلصة قد تحولت عندى إلى غيظ لأننى
لم ألق بها على الأرض واغتالها هناك ، عند جزع تلك
الشجرة التى ما زلت أراها مستندة اليها فى حين أننى
كنت على مدى أربع خطوات منها - أو أدنى - ولم
أجد ما أقوله لها إلا أن أطلب عفوها . وتخيلت
بالفكر سحنة الكونت أندريه . وتبينت بوضوح سيماء
الاحتقار الذى سوف يتجلى فى وجهه عند ما ينقلون اليه
نبأ هذا الحادث . وفى النهاية لم أعد ذلك المشتغل بعلم
النفس ولا الفتى القلق بل كنت أمثل عزة النفس المحتقرة
المرذولة إلى حد اراقة الدم . وكنت قد وصلت إلى سور
القصر وما كدت أتبين البحيرة وسفح الجبال المتاخمة له
وواجهة الدار حتى تلاشت تلك الأنانية وحلت محلها
هزة فزع مخيف من الاهانة التى توقعت أن يلحقها بى
الأب ، وساورتنى فكرة الهرب والعودة رأساً إلى
كليرمون فأتلافى مواجهة ازدراء جديد تقابلنى به
الآنسة دى جوسا . . . ولكن فات الوقت فقد أبصرت
بالماركيز يتقدم إلى بنفسه في الممر الرئيسى يتبعه لوسيان
الذى أخذ ينادينى . فألفيت لهجة الصبى كما كانت عليه
مفرغة فى قالب من الألفة والمودة . وقابلنى الأب مقابلة

أشاحت عن نفسي ما كان قد ألم بها وبرهنت لى على أننى تعجلت الأمور وأخطأت فى التسليم بهلاكى بمثل هذه السرعة.

وقال لى الماركيز :

— « لقد خلفوك على قارعة الطريق ولم يفكروا حتى في إرجاع العربة إليك ... لاشك إنك سرت بخطوات سريعة !... »

ونظر إلى ساعته واستطرد :

— « أخشى أن تكون شالوت قد أصيبت بلفحة برد فقد لجأت إلى فراشها على أثر عودتها ... إن شمس الربيع خداعة ! »

وهكذا فان الآنسة دى جوسا لم تتكلم بعد !.. وفكرت : « إنها متألمة فى هذا المساء. سوف يقع المحظور غداً . »

« وما أن انفردت إلى نفسى حتى بدأت أجمع أوراقى تأهباً للرحيل. لقد كنت أتمسك بهذه الأوراق في ذلك الوقت، في غرور وسذاجة المؤمن بمواهبه الفلسفية ! وأزف اليوم التالى. لا شيء أيضاً. والتقيت بشارلوت صباحا على مائدة الطعام. كانت شاحبة

اللون كمن انتابته نوبة ألم حاد . ولاحظت أن رنة صوتى كانت تحملها عناء شديداً وتثير فيها رعشة خفيفة . واقتصر الأمر على ذلك . يا لله ! لشد ما أفظع الأسبوع الذى مر بى متوقعاً فى كل صباح انها ستتكلم ، معذباً بذلك الانتظار وعاجزاً عن تعجل الأمور وهجر القصر ! ولم يكن ذلك منى لعدم وجود عذر فحسب وإنما كانت تأكلنى نزعة فضول مؤلمة فتسمرنى فى مكانى . كنت أريد أن أعيش بقدر ما أفكر ، فهأنذا أعيش ولكن فى أى جحيم . وفي اليوم الثامن استدعانى الماركيز إلى حجرته فقلت لنفسى : فى هذه المرة أزفت الساعة . ألا اننى لأفضل ذلك . . . وكنت أتوقع ان أجابه وجهاً جهوماً مخيفاً وعبارات شائنة مهينة . فاذا الأمر على عكس ذلك . وإذا أنا أرى هذا السويدائى باشا لامع العين خفيف الحركات . وقال لى :

— « إن ابنتى ما زالت متألمة جداً . ليس ما يوجب القلق . . . ولكنها أعراض عصبية غريبة . أنها تلح فى استشارة طبيب فى باريس . ربما تعلم إنها كانت قد أصيبت بمرض وشفاها منه طبيب فأصبحت تثق به ثقة عمياء . ولا آسف على استشارته عن نفسى . سأرافقها

بعد غد ويحتمل أن نمضى بضعة أيام فى رحلة صغيرة عسى أن تتسلى وتلهو . وقد أردت أن أزودك ببعض النصائح بشأن لوسيان لتلاحظها فى غضون غيبتنا مع أننى مسرور منك يا عزيزى السيد جرسلو . مسرور جداً جداً . وقد كتبت بذلك إلى ليماسيه بالأمس . وإنه لمن حسن الحظ والتوفيق أن أكون قد صادفتك . »

« لسوف تحكم يا أستاذى العزيز بعد ما كشفته لك عن أخلاق ان هذا الاطراء كان يجب أن يصادف هوى من نفسى كدليل على الكمال الذى بلغته فى تمثيل دورى واطمئن على ما اعترانى من المخاوف والهواجس فى الأيام الأخيرة . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . وفكرت فى أن السبب واضح بين ، وهو أن شارلوت امتنعت عن إبلاغ أمر محاولتى واعترافى ، وساءلت نفسى فى الحال : لماذا ؟ وبدلا من أن أعلل هذا السكوت بما هو فى مصلحتى ، ساورتنى هذه الفكرة فجأة وهى انها آثرت الصمت لتحول دون فقدى لمرتزق ، بدافع الشفقة ، ولكن ليست تلك الشفقة الغرامية التى حاولت أن استفزها . وما كدت أتخيل هذا التعليل حتى رسخ في ذهنى وأصبح لى بمثابة يقين وإذا بى أشقى بهذه الفكرة .

ولا أحتملها . فقلت لنفسى : « كلا . لن يكون ذلك .
لن أرضى بأحسان هذا الحلم المذل . . . سوف لا تجدنى
الآنسة دى جوسا هنا عند أوبتها . إنها ترشدنى إلى
ما كان يجب على أن أفعله وما سأفعله . لقد حاولت
أن أستميلها إلى ولكننى لم أفلح حتى فى إثارة غضبها .
فلا تركن لها ذكرى أخرى غير ذكرى معجب
مغرور يتمسك بأهداب منصبه على الرغم من أحط
المهانات وأسفلها . . . » لقد ألحمت فى خططى ، وماتت
في نزعة الأغراء التى كانت تنشطنى طوال الشتاء إلى حد
إننى عكفت فى الليلة التالية لهذا الحديث على كتابة
رسالة إلى تلك التى طالما كنت أحلم بأن أحبب نفسى
اليها رددت فيها رجائى فى عفوها من جديد . قلت لها
فى هذه الرسالة اننى أدركت إلى أى حد أصبحت
علاقتنا يبعضنا مستحيلة وأضفت إلى ذلك انها سوف
لا تحتمل كريهة وجودى عند عودتها . وفى صباح اليوم
التال انتهزت فرصة انشغال القوم بأعداد ما يلزم للسفر
وراقبت اللحظة التى استدعت فيها الأم ابنتها لا تمكن
من الدخول الى حجرتها . وتسللت على عجل لأضع
الرسالة على مكتبها . وهناك ألفيت بين الكتب المعدة

لتوضع بداخل الحقيبة مع بضعة حاجيات ، نشافة السفر ، ففتحتها ووقع نظرى على مظروف كتبت عليه هـذه العبارة : ١٢ مايو ١٨٨٦ . . . كان ذلك تاريخ اليوم الذى حدث فيه الأعتراف المشئوم ! . . . فتناولت المظروف وفتحته . . . فاذا بداخله أزهار سوسن يابسة . فتذكرت اننى كنت قد أعطيتها بعض هـذه الأزهار خلال نزهتنا الأخيرة وانها علقتها فى ثنايا ثوبها . . . اذن لقد احتفظت بها . اذن لقد تمسكت بها على الرغم مما قلت لها ـ وبسبب ما قلت لها ما دام هذا التاريخ مكتوباً هنا بخط يدها : ١٢ مايو ١٨٨٦ ـ أظننى لن أشعر أبداً بانفعال شبيه بالانفعال الذى يخالجنى الآن أمام هذا المظروف البسيط . وعرتنى هزة كبرياء وزهو ، وأثلجت فؤادى . أجل ان شارلوت قد أقصتنى . أجل . انها تهرب منى . ولكنها تحبنى . ان بين يدى دليلا على عواطفها واحساسها لم أكن لامنى نفسى بمثله . وأقفلت النشافة ونكصت راجعاً الى غرفتى على عجل خشية أن تفاجئنى وبدون أن أترك رسالتى التى سارعت فى اتلافها . آه ! لم تعد ثمة فكرة في الرحيل ولكن في البقاء وانتظار عودتها وفى هذه المرة أعمل وأقهر . . . فهى تحبنى .

— ٥ —

وكانت تحبنى وهذا دليل قاطع على أن الاختبار الذى أملته على أنانيتى وفضولى قد أثمر . إن تلك الحقيقة - إذ لم يداخلنى أدنى ريب في صحة الدليل الذى اكتشفته - قد هونت على وقع رحيل الفتاة بل جعلته فى نظرى رقيقاً . أما هربها فيمكن تعليله بأنه نتيجة جهود كانت تبذلها لتقاوم انفعالاتها . وتلك الجهود كانت لى دليلا على عمق هذه الانفعالات وشدة تأثيرها . ثم إنها ، برحيلها بضعة أسابيع ، كانت تنقذنى من ورطة كبيرة

فكيف عسانى أن أعمل فى الواقع ؟ وبأية سياسة أستطيع أن أحافظ على هذا النجاح الذى لم أؤمل فيه وانتفع به ؟ لقد أتيحت لى فرصة التفكير فى ذلك خلال هذا الغياب ولا شك انه لن يطول كثيراً إذ لا يمتلك آل جوسا مقراً يلجأون اليه الا فى مقاطعة أوفرنى . وأرجأت أمر إعداد خطة جديدة واستسلمت الى الاستمتاع بعزة النفس الظافرة وأ.. أشاهد رحيل شارلوت ووالدها . وكنت قد ودعتهما فى حجرة الاستقبال على سبيل المجاملة ، حتى لا أعيق وداع أفراد الأسرة لبعضهم ، وصعدت إلى حجرتى . وكانت تحية الماركيز لى بيده حارة جداً ومشجعة جداً فبرهنت لى من جديد على مقدار رسوخ قدمى فى الدار . وحذرت من وراء الجمود المتعمد الذى تظاهرت به الفتاة اختلاجات فؤاد لا يريد أن يستسلم أو يسلم . وكنت أشغل فى الطابق الثانى حجرة لها نافذة تطل على واجهة القصر . فوقفت خلف ستر النافذة بحيث أستطيع أن أرى جيداً صعود المسافرين إلى العربة دون أن يرانى أحد . وكانت العربة من نوع « فيكتوريا » ، وقد اكتظت بداخلها الدثائر المبطنة بالفراء ، ويجرها نفس الجواد الأشهب

الذى كان يجر المركبة الانجليزية في ذلك اليوم . وكان الحوذى الجالس على المقعد وبيده السوط ، جامدا في ملابسه الرسمية الرمادية جمود التمثال . وظهر الماركيز ثم تبعته شارلوت . ولم أتبين من مكانى ملامحها تحت الوشاح ، وعند ما رفعت هذا الوشاح لتجفف جفونها لم أستطع أن أحكم إذا كانت قبلات أمها وأخيها هى التى كانت تثير فيها ذلك الأضطراب العصبى أم هو اليأس من عزم أليم . ولكننى رأيتها جيداً ، وقد انعطفت العربة نحو السور ، تدير برأسها . مع أن ذويها قفلوا راجعين الى القصر . فالى ماكانت تنظر طويلا هكذا إن لم يكن الى تلك النافذة التى تواريت خلفها وانظر اليها بدورى ؟ وتوارت العربة خلف غيضة من الأشجار ثم بدت عند حافة البحيرة لتتوارى من جديد وتتغلغل فى الطريق التى تخترق غابة لابرادا . تلك الطريق التى تنتظرها فيه ذكرى لا أشك فى انها ستهز أوتار قلبها الذى اضطرب فى النهاية وقهر .

« واستمر شعور الأنانيـة يداعبنى شهراً بطوله بلا انقطاع . وأعظم دليل على أننى كنت على اتصال مستمر بهذه الفتـاة عقلياً ونفسياً ، ان ذهنى لم يكن فى يوم من

الأيام أكثر صفاء ولا مرونة ولا مهارة في استنباط الأفكار منه في ذلك الوقت . فقد كتبت إذ ذاك أجلى صفحاتي وهي قطعة عن عمل الإرادة أثناء النوم . أدمجت فيها - بلذة العالم التي تفهمها أنت - جميع ما دونته من الملاحظات منذ شهور خلت عن تطورات عزائمي من جميع نواحيها . قلت لك أنني كنت أودع مذكراتي اليومية ما يخامر نفسي فكنت أحلل أدق حالاتي النفسية في كل ليلة قبل أن ألجأ إلى مضجعي وفي الصباح قبل أن أغادر مهجعي - أجل . لقد مرت بي أيام مليئة بالحوادث الغريبة . فقد كنت حراً لا يشغلني عن أداء هذا العمل عائق أو شاغل . فالآنسة لارجيكس والأخت أناكليه كانتا تتناوبان ملازمة الماركيزة . فانتهز وتلميذي صفاء الجو لنخرج إلى النزهة . وكنت - بحجة تعليمه - قد أوحيت إلى نفسه بالميل إلى الفراش . فكان يحمل العصاة الطويلة والشبكة الخضراء ويسعى وراء هذه الحشرات الطيارة بلا انقطاع يطاردها بعيداً عني ويتركني وحيداً مع فكرتي . كنا أحياناً نتبع لابرادا وقد خلع عليها الربيع وشاحاً أخضر من مختلف الأزاهير والحشائش اليانعة ، وأحيانا نصعد إلى ناحية فرنوج

ميممين شطر وادى سان جينز شامبانل الرائع . وهناك أجلس على نتوء من الحم المتحجر فاترك لوسيان وشأنه واستسلم إلى ذلك الشعور النفسى الغريب الذى كان يربينى فى تلك الطبيعة الوحشية ويصورها لى رمزاً مؤثراً لمبادئ ونوعاً من القضاء المحتوم ودافعاً إلى عدم الاكتراث الكلى بعواطف الخير أو الشر . كنت أنظر إلى أوراق الشجر تنتعش وتحيا تحت حرارة الشمس فأذكر النواميس الشائعة عن التنفس النباتى وكيف يمكن تبديل حياة النبات بتعديل بسيط فى تسلط الضوء عليها . بمثل تلك الطريقة يجب التسلط على حياة النفس وإدارة شؤونها إذا أمكن الوقوف على حقيقة شرائعها . كنت قد نجحت فى خلق مبادىء الشهوة فى نفس فتاة تفصلنى عنها هوة سحيقة . فما هى الوسائل الجديدة التى يجب تطبيقها بقسوة ، ولكن فى مهارة ، لتساعدنى على تنمية هذه الشهوة ومضاعفة حدتها ؟ كنت أنسى صفاء السماء ورطوبة الغابات وعظمة البراكين والقرية المتناثرة الأطراف وغير ذلك مما هو حولى لكى لا أرى ولا أفكر إلا فى قواعد من الجبر الأخلاقى . كنت أتردد بين حلول مختلفة أعدها لذلك اليوم القريب الذى سأقف فيه من جديد مع الآنسة

دى جوسا في عزلة القصر . أو كان يحـدر بى فى تلك اللحظة أن أمثل الاكتراث فأفحمها وأبلبل أفكارها لأقهرها بفعل الدهشة أولا ثم بدافع عزة النفس والألم ، أم ترانى أثير غيرتها بأن أوعز اليها أن المرأة الغريبة ، بطلة قصتى الخيالية المختلفة ، قد آبت إلى كليرمون وأنها تراسلنى ، أم عسانى أن استمر فى سلسلة الاعترافات الحارة والجرأة المؤثرة ونشوة العبـــارات المعسولة المسكرة ؟ كنت أتناول هذه الفروض وغيرها بالبحث واحدة فواحدة وأعجب بها لأبرهن لنفسى على أننى لم أقع فى الشرك وأن الفيلسوف يسيطر على العاشق ، وفي النهاية ، انذاتى ، تلك الذات القوية التى وقفت نفسى عليها وجعلت من تلك النفس كاهناً لخدمتها ، إن تلك الذات مازالت سامية عظيمة حرة مشرقة ، ولطالما انحيت على نفسى باللائمة واحتقرتها لما بدا عليها ، فى اويقات خلت ، من الوهن والاستسلام إلى أحلام شاردة لا تتناسب وهذه الافتراضات الدقيقة . وكانت تلك الأحلام تساورنى فى داخل البيت إذ كنت أقف أمام صور شارلوت المتناثرة على الجدران والموائد وفى حجرة لوسيان . كانت تلك الصور مختلفة الأحجام وهى تمثلها في سن السادسة

العاشرة والخامسة عشرة من عمرها . فكنت أستطيع من رؤيتها أن أتتبع تطورات هذا الجمال منذ نعومة أظفارها وما كان ينبعث من وجهها وهي فى تلك السن من لطف ووداعة إلى ما يبدو على ذلك الوجه الآن من سحر وجمال رائع فتان . كانت ملامحها تتغير بين صورة وأخرى ، أما نظرتها فظلت ثابتة لم تتحول . لقد كانت تلك النظرة واحدة متشابهة فى عينى الطفلة وفى عينى الفتاة تفيض ثباتاً وحناناً وحزماً يتكشف عن احساس عميق فياض. لقد وقعت على تلك النظرة يوماً كما أشاهدها الآن ويكفى أن أذكر تلك اللحظة حتى يعترينى اضطراب حائر وذهول . آه ! لماذا لا أستسلم لعاطفتى صاغراً ؟ ولماذا يدفعنى زهوى وتشبث أنانيتى بعدم الرضاء بذلك ؟ ولكن لماذا كانت تظهر في كثير من تلك الصور إلى جانب أخيها أندريه ؟ أى وتر للحقد الدفين قد مسه هذا الرجل فى فؤادى حتى أصبح مجرد النظر إلى صورته بجانب أخته يوغر صدرى ويجفف حنانى فجأة ويمحو من نفسى أثر كل عاطفة فلا تبق إلا الأرادة ؟ وأية إرادة ؟ . . . إننى لاستطيع أن أفسرها لنفسى الآن وقد أصبحت واثقاً من وقوع هذا

الفؤاد فى الشرك . أجل . كنت أريد أن أصبح عشيق شارلوت . . . وبعد ؟ وبعد ؟ كنت أجتهد ألا أفكر فيما سيقع بعد ذلك كما كنت أجتهد في تحطيم تلك الوساوس الغريزية التى كانت تثيرها فى نفسى فكرة انتهاك حرمة الضيافة فاستعنت بقوة فكرتى واستجمعت فلول رجولتى ونشاطى وأنشبت في نفسى ، أكثر من ذى قبل ، نظرياتى عن عبادة الذات . لسوف أخرج من هذا الاختبار غنياً بموارد الانفعالات والذكريات . تلك هى النتيجة الخلقية لهذه المغامرة . أما النتيجة المادية فهى العودة عند أمى متى انتهت مدة تدريسى . وعند ما كانت وساوسى تستيقظ بحدة وينادينى صوت داخلى مهيبابى : «وشارلوت؟ هل من حقك أن تعاملها هكذا معاملة مادة بسيطة تجرى عليها اختبارك ؟ » ، كنت أتناول كتاب سبينوزا وأطالع فيه النظرية التى يشرح فيها أن حقنا محدود بقوتنا . كنت أتناول كتابك «نظرية الشهوات» وأتلو فيه عباراتك عن تنازع الأجناس في الحب ، فأقول لنفسى : «ان شريعة العالم قائمة على أساس أن الشىء الموجود يجب أن يكون أداة غزو وامتلاك يقوم به القوى ويستولى عليه على حساب هذا الضعيف . صحيح

من وجهة العالم الأخلاقى كما هو صحيح من وجهة العالم الطبيعى . توجد نفوس مفترسة كما توجد ذئاب وفهود وبواشق » . وبدت لى هذه القاعدة قوية جديدة وحقيقية فكنت أطبقها على نفسى وأقول : « أنا نفس مفترسة أنا نفس مفترسة» . وكنت أردد هذه العبارة، بتلك اللهجة الحانقة الغاضبة التى يسميها السفسطائيون أنانية الحياة ، بين الخضر الجديدة وتحت السماء الزرقاء وعلى حافة النهر الصافى الذى ينحدر من الجبال نحو البحيرة ! تلك كانت طريقتى فى التحالف مع الطبيعة العمياء الصماء الشريرة .

« وسرعان ما تبددت نشوة كبريائى الظافر بحادث فجائى . فقد كتب الماركيز بأنه عائد إلى القصر ولكن بمفرده ، وأن الآنسة دى جوسا ما زالت متألمة وانها ستبقى فى باريس عند أخت لأمها . كنا جالسين إلى المائدة عندما ابلغتنا الماركيزة هذا النبأ . فاستثار هذا الأمر كمين ضغنى ، واحفظنى ، وانتابتنى نوبة غضب حاد وأدهشتنى ، واضطررت إلى أن أغادر الطعام بحجة دوار فجائى غشى على بصرى . ووددت لو استطعت أن أصيح وأحطم شيئا . وأن اعبر عن نوبة الغضب التى تملكت نفسى بفعلة جنونية حمقاء . لقد حملتنى حمى الزهو التى كانت

تلتهمنى مذ أن رحلت شارلوت على أن أتوقع كل شىء إلا أن يكون لهذه الفتاة ما يكفى من العزيمة ، على الرغم من أنها عاشقة ، فلا تعود إلى عايدات . ان الوسيلة التى وجدتها لتتخلص من شعورها كانت بسيطة للغاية ولكنها كانت سامية حاسمة . وإذن فالخطة العجيبة التى ارتسمتها فى ميدان هذا الصراع النفسى أصبحت عديمة الجدوى كانما هى مدفع دقيق الصنع يطلق على عدو بعيد المنال. فماذا عسانى أن أفعل وهى ليست هنا ؟ لاشىء.. لاشىء بتاتا، كما أن اللحاق بها كان أمرا محظورا . وتجلى عجزى فى شكل قوى مؤلم للغاية . فأثرت فى جهازى العصبى إلى حد أننى لم أذق طعم الكرى ولم أتذوق طعاما خلال المدة التى انقضت بين وصول الرسالة وعودة الماركيز . لسوف تتاح لى الفرصة لأعلم إذا كان العزم سيحطم كل أمل وانه لم يعد هناك شىء من الحظ فى عودة الفتاة فى نهاية شهر يوليو أو في شهر أغسطس أو فى شهر سبتمبر وأن مدة تعاقدى تستمر لغاية منتصف اكتوبر . فكان قلبى ينبض بشدة وجف حلقى بينما كنت ولوسيان نتنزه فى محطة كليرمون فى انتظار القطار القادم من باريس حوالى الساعة السادسة . وقد حملنى نفاذ صبرى وجزعى

على الاستئذان فى الذهاب لاستقبال الأب عند عودته .
ودخل القطار إلى المحطة . فاذا بالسيد دى جوسا يطل برأسه النحيف المرموض من الباب . فواجهته بسؤالى :ـ « والآنسة شارلوت ؟ » وان كان فى هـذا السؤال ما يدعوه إلى الشك فى حقيقة مشاعرى .

ـ « فأجابنى وهو يضغط على يدى بحرارة : شكرا . شكرا . يقول الطبيب بأنها مصابة باضطراب عصبي حاد للغاية ... يظهر أن العيش فى الجبال لا يلائمها ... مع اننى أرتاح كثيراً إلى العيش فوق هذه القمم !... حقا ان هذا مؤلم . مؤلم جدا ... النهاية سنجرب معالجتها بالماء البارد في باريس وربما بعد ذلك فى راجاتز ... »

« لم ترجع ! ». أما أنا فاذا أسفت ، يا أستاذى العزيز ، على الكراسة التى أحرقتها فانما آسف عليها اليوم باعتبار انها وثيقة في صرح علم النفس لأننى كنت أودعها فى كل يوم صورة صادقة من افكارى منذ ذلك المساء من شهر يونيه الذى كاشفنى فيه الماركيز عن تغيب ابنته النهائى . وظلت تلك الصورة متمثلة أمام نظرى حتى شهر اكتوبر حيث طرأ عارض

غير منظور لحول بغتة تيار الأمور . ولئن قدر أن تتصفح هذه الكراسة لألفيت فيها - كما لو كنت تتصفح مجموعة خرائط للتشريح الخلق - رسما صادقا لتحليلاتك الرائعة عن الحب والرغبة ، والأسف ، والغيرة ، والحقد. أجل ، لقد مررت بجميع هذه العوامل النفسية خلال هذه الشهور الأربعة . وأول ما فعلته كان محاولة طائشة ولكن طبيعيه لثقتى من أن غياب شارلوت كان دليلا على غرامها . فكتبت لها . وبدأت ذلك الكتاب الذى حررته بمهارة فائقة ، بطلب الصفح عن جرأتى فى غابة لابرادا على إننى من ناحية أخرى جددت هذه الجرأة بطريقة أفظع إذ رسمت لها صورة حارة من من يأسى بعيداً عنها . فكان هذا الكتاب اعترافا أشد جرأة وأعظم جنوناً من جرأتى الأولى إلى حد أنه لم يكد يختنى فى صندوق البريد الصغير فى القرية ، حيث ذهبت لأودعه بنفسى ، حتى تملكنى الخوف من جديد . ومر يومان فثلاثة ، دون جواب . على أن الكتاب لم يرد إلى كما كنت أخشى بدون أن يفض . وفى نفس اللحظة كانت الماركيزة قد أتمت معداتها لتلحق بابنتها . وكانت أختها تشغل فى شاناليل قصراً فسيحاً بحيث

كان في مقدورها أن تفسح لهاتين السيدتين دوراً كافياً .
« قصر سرمواز بشارع شانا ليل ، باريس . . » لشد ما تأثرت وأنا أكتب هذا العنوان لا مرة واحدة فحسب ولكن خمس مرات أو ست ! لقد فكرت فى أن خالة الفتاة لا تراقب مكاتباتها مراقبة ضيقة فى حين أن الأم كانت تراقبها . فكان يجب انتهاز فرصة وجود المار كيزة في عايدات فاضاعف التأثير الذى أحدثه كتابى بغير ما ريب . فكنت أكتب فى كل يوم - حتى يوم رحيل المار كيزة - كتبا مشابهة للكتاب الأول . ولم أجد كبير عناء في تمثيل الحب ، وكانت رغبتى الملحة فى حمل شارلوت على العودة مخلصة ، مخلصة بقدرما كانت ضرباً من الوهم.
ولقد عرفت فيما بعد أنها كانت تجاهد الساعات الطوال لتقاوم رغبتها فى فض الغلاف فى كل مرة تتسلم فيها احدى هذه الرسائل الخطرة وتتعرف على خطى عليها . ثم تفضها ، وتقرأ ، وتعيد قراءة تلك الصفحات التى كان سمها يسرى بين جوانحها بغير ما ريب . وإذ كانت تجهل الاكتشاف الذى أوقفنى على سرها فانها لم تفكر فى أن تدافع عن نفسها ضد الرأى الذى يمكننى أن أكونه عنها . ولا شك أنها كانت تعلل نفسها بجهلى لهذا السر

وكذلك جهلي لحبها الوليد لكي تبرر موقفها مني وقراءتها لرسائلي . وقد أثرت فيها هذه الرسائل القليلة إلى حد أنها احتفظت بها . فقد وجدوا رمادها فى مدفأة حجرتها لأنها أحرقتها ليلة موتها . لم يداخلني الشك في وقع هذه الصفحات المثيرة التى كنت أخطها ليلا مهتاجاً بفكرة أننى أطلق آخر مقذوف لدى وانها لذلك كانت تشبه رصاصة بندقية فى وسط الضباب ما دمت لم أتبين أية اشارة تنبئنى بأننى كنت أصيب هدف القلب فى كل مرة أطلق فيها الرصاص وعللت ذلك التردد العميق الذى كنت أتخبط فيه لصالحى فما إن خلفت الماركيزة القصر لتلحق بابنتها حتى رأيتنى عاجزاً عن الكتابة من جديد ووجدت في صمت شارلوت البرهان الساطع ، ليس على أنها لا تحبنى ، ولكن على أنها كانت تحصر إرادتها في التغلب على هذا الحب وأنها قد نجحت . فكنت أردد لنفسى : « اذن ! ينبغى أن أتخلى عنها ما دمت لا أستطيع أن أدركها . وبذلك ينتهى كل شىء . . . » كنت أنطق بتلك العبارة بصوت مرتفع وأنا وحدى فى حجرتى وإذ كان يصل إلى سمعى دوى العربة التى كانت تقل الماركيزة . ورافقها المسيو دى جوسا ولوسيان

إلى ماردي فير حيث ذهبت لتستقل القطار .

« كنت أردد لنفسى : « أجل . كل شيء قد انتهى . ماذا يهمنى مادمت لا أحبها ؟ . . . » وهدأت ثورتى عند ورود هذه الفكرة إلى ذهنى ولم أشعر بأى قلق غير قليل من الضيق فى صدرى كما هى الحال فى حالات المعارضات الشديدة الحادة . وخرجت من القصر عسى أن أتخلص حتى من هذا الضيق وتوجهت إلى المكان الذى جسرت فيه على الاعتراف لشارلوت بحبى مدفوعاً بحاسة الاحتقار والازدراء التى كنت أتذرع بها لأقنع نفسى بقوتى . ولكى أدلل على انطلاق نفسى من عقال الأسر كنت قد تأبطت كتابا جديدا وصلنى مؤخرا هو ترجمة رسائل داروين . وكان الجو ملبدا بالسحب ولكنه يكاد يكون محرقا ، تهب فيه ريح أشبه بالسموم قادمة من اللمانى ومن الجنوب فتلفح بأنفاسها الحارة الأغصان المورقة الخضراء . وكنت كلما أمعنت فى السير أثارت تلك الريح أعصابى وهدمتها . فأردت أن أعزو مابى من ضيق متزايد إلى تأثيرها . وبعد بحث غير مجد في انحاء غابة لا برادا انتهيت إلى إكتشاف الغيضة ، التى كنا قد لجأنا اليها شارلوت وأنا

والصخر وشجرة البتولا . كانت الشجرة ترتعش وتقشعر تحت هبوب تلك الريح . وكنت قد عاهدت نفسى على قرأة كتابى فى فيأة هذه الشجرة . فجلست وفتحت الكتاب . وتعذر على أن أقرأ أكثر من نصف صفحة ... فهاهى ذى الذكريات تعاودنى وتستأسر بى وتتسلط على وتصور لى الفتاة على ذلك الصخر تنظم باقة السوسن ثم تمثلها لى واقفة مستندة إلى تلك الشجرة جامحة وهاربة على عشب الطريق . فاذا بى أشعر بألم لايوصف يتصاعد إلى صدرى ويتزايد ويخنق قلبي ويكتم تنفسى ويحرق عينى بالدموع . ولاحظت فى شىء من الذعر، وعلى الرغم من ذلك التعقيد وتلك التحليلات ودقة التفكير وحدة التصور، أننى أهيم حباً ، على غير علم منى ، بتلك الطفلة التى لم تعد فى هذا المكان وقد لاتعود إليه إلى الأبد .

« وكان هذا الاكتشاف فجائياً غير مرتقب كما أن شعورى به كان يتنافى تماما مع البرنامج الدقيق الذى وضعته بعد تفكير طويل لتنفيذ مغامرتى . وقد أعقب هذا الأكتشاف فى الحال ثورة ضد هذا الشعور وضد صورة من تبعث هذا الألم الى نفسى .

ومرت على هذا الحادث أسابيع طوال فكان لا يمضى يوم واحد دون أن أتخبط فى ظلمات هذا العار الذى لحقنى. عار وقوعى في الشرك الذى نصبته بيدى. ودون أن ينتابنى حقد مرير على الفتاة النائية. ولقد كنت أقدر عمق تلك الضغينة من عظم السرور الذى كان يثلج فؤادى كلما استلم المركيز كتاباً من باريس وتجهم وجهه وهو يطالعه ويتنهد وهو يتمتم: «ما زالت شارلوت معتلة الصحة ...» وكنت أشعر بتعزية ناقصة دنيئة إذ أردد لنفسى اننى أنا أيضاً، قد جرحتها جرحا ساماً بعيد الغور قل أن يلتئم. كان يخيل إلى أن انتقامى سيكون كاملا شديد الوطأة لو استمرت هى فى عذابها وبرئت أنا مما ألم بى. كنت أستنجد بالفيلسوف الذى كنت أفتخر بأنى أصبحته لامحو من نفسى أثر العاشق. وعدت إلى سابق تعقلى واستدلالى. «توجد شرائع لحياة النفس واننى أعرفها. إننى لا أريد أن أطبقها على شارلوت ما دامت قد هربت منى. فهل ترانى أعجز أيضاً عن تطبيقها على نفسى؟» ثم أمعن الفكر في هذا السؤال الجديد: «هل يوجد دواء للحب؟...» وأجيب على هذا السؤال بقولى: «أجل يوجد دواء

ولسوف أجده . » واستخدمت الطرق التى اتبعتها فى التحليل لمعالجة نفسى فأخذت أحلل المسألة إلى عناصرها كما يفعل علماء الهندسة . وحولت ذلك السؤال إلى سؤال جديد : « ما هو الحب ؟ » وأجبت عل هذا السؤال بوحشية بمـا فسرته أنت به « الحب هو التسلط على الجنس » . فما هى الوسيلة لمحاربة هذا التسلط ؟ الوسيلة هى فى إرهاق البدن واتعاب الجسم فهى إن لم توقف عمل الفكر وضغطه فقلما يكون تخفف من حدته وتأثيره . وإذ ذاك أكرهت نفسى وأكرهت تلميذى معى على السير الطويل الشاق. أما الأيام التى كنت لا أدرسه فيها كالأحد والخميس فكنت أخرج وحدى فى الهزيع الأخير من الليل بعد إذ اتفق مع لوسيان على الساعة والمكان اللذين يوافينى فيهما بالعربة . فأوعز بأيقاظى فى الساعة الثانية صباحا وأغادر القصر فى وسط الظلمة قبيل مطلع الفجر ، فأسير إلى الأمام كالمجنون لا ألوى على شىء ، وأختار المسالك الوعرة ، وأتحدى الجبال فأتسلقها من جهاتها الصخرية المشرفة على الوادى معرضاً بنفسى إلى خطر انهيار الرمال المتجمدة تحت قدمى والسقوط حيث تدك عنق، ولكن ما ذا يهم ؟ لقد كنت أسير

فى وسط الليل حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وإذ ذاك تهب على نسمات السحر فتلفح وجهى وتغوص الكواكب فى كبد السماء الصافية كما تغوص الأحجار فى لجة الأمواج الزرقاء وتبرز الشمس من حجابها وتحسر قناعها وترسل أشعتها على الأزهار والأشجار والأعشاب فتكسبها لوناً وردياً وهاجا .
لقد كنت أحاول أن أستمتع بتلك النشوة الوحشية البهيمية التى ذقت فيما مضى رحيقها فى ظروف كهذه .
وإذ كنت أؤمن بشرائع الوراثة عن عصر ماقبل التاريخ فقد وقفت جهودى - بتأثير ذلك الاحساس الناشىء عن السير المضنى وتسلق القمم الشاهقة - على أن أوقظ في نفسى تلك الروح الأثرية الخشنة، روح ذلك الوحش الفطرى ، ذلك الرجل الذى كان يأوى الى الكهوف والذى انحدر منه أنا كما ينحدر منه غيرى . وبلغت بمثل هذه الأفكار نوعا من الهذيان الوحشى ولكنه لم يكن راحة البال التى أنشدها ولا السرور الذى أبتغيه وأرقبه، لأنه كان يتلاشى عند أقل فكرة تساورنى عن علاقاتى بشارلوت . كان يكفى أن أمر بمنعطف طريق قطعناه جنباً الى جنب . أو تقع عينى على البحيرة وصفحتها الزرقاء

التى شاهدناها سوياً من أعلا القمم أو على سطح القصر يتلألأ أجره فى الفضاء ، بل كان يكفى أقل من ذلك، أن أشاهد غصناً من شجر البتولا وأطرافها الفضية أو لوحة نقش عليها اسم قرية جاء ذكرها على لسانها في معرض الحديث، كان يكفى شىء من ذلك ليتلاشى في ذهنى الجنون المختلق ويحل محله ألم اليأس اللاذع لعدم وجودها على مقربة منى . لقد كنت أسمعها تردد لى بصوتها العذب الرقيق : «ألا أنظر إذن . . . » كما كانت تقولها لى فيما مضى إذ كنا نهيم معاً تحت هذا الأفق وعند سفح تلك الجبال إذ كانت تغطيها الثلوج - كانت زهرة حياتها قد تفتحت. أما الآن وقد خلعت الطبيعة ثوباً سندسياً على هذه الأنحاء، فان زهرة جمالها الناضرة قد تلاشت واختفت . ولقد كان شعورى بغيابها يزيدنى إيلاماً ويأساً كلما التقيت بلوسيان فهو لايفتر عن التحدث إلى عنها ، فهو يحبها ويعجب بها بحنان ويقدم لى البراهين - بما طبع عليه من سذاجة وبساطة - على أنها جديرة بالاعجاب وخليقة بأن تحب ! وحينئذ يتحول تعب الجسم عندى الى ثورة أعصاب فتتوالى على الليالى في أرق مستمر وسهاد مضطرب ممتزج بمرارة اليأس، حتى لقد قدر لى كثيراً أن

أبكى وأنتحب بصوت مرتفع بلا انقطاع وأنا أهتف باسمها كالمجنون .

« ولما لم أجد الدواء فى الافضاء . رددت لنفسى : « لاشك فى أن فكرى هو مبعث الألم ومحط الداء فلأهاجم الفكر بالفكر . . . » فقطعت عهداً ثانيا ، أردت خلاله أن أنتقل بنقطة ارتكاز تفكيرى العقلى وأحولها الى تيار آخر . فاندفعت فى دراسة مايتعارض ويتنافى مع الشؤون النسائية . وفى أقل من خمسة عشر يوما تصفحت ، والقلم فى يدى ، مائتى صفحة من أعمق وأدق ما كتبه بونيس فى مؤلفه عن « علم وظائف الأعضاء » وكلها تفيض بشرح كيمياء الأجسام الحية . وعبثاً وقفت ذهنى وجهودى على تفهم وتلخيص تلك التحاليل التى كانت تتطلب المعمل ، فلم أصل إلا الى أضعاف قوة إدراكى وتفكيرى ، ورأيتنى غير قادر على مقاومة الفكرة الثابتة التى ساورتنى وأيقنت بأننى ضللت الطريق من جديد . فهل تكون الطريقة المثلى هى التى كان يدعو اليهاجيته : تطبيق الفكر على الألم المراد التخلص منه ؟ أن هذا العبقرى الفذ قد خبر أساليب الحياة وكان يطبق النظرية التى أوردها سبينوزا وشرحها في الكتاب الخامس من

مؤلفاته وهى تقول باستخلاص الشريعة التى تربط الحوادث بنظام الكون الأعظم من وراء الحوادث التى تعترى حياتنا الشخصية. أن المسيوتين - فيما كتبه من صفحاته الرائعة عن بيرون - ينصح الينا كذلك بأن « نفهم أنفسنا ، حتى « يولد ضياء العقل فينا صفاء القلب » ، وأنت ، يا أستاذى العزيز ، هلا قلت ذلك فى مقدمة كتابك « نظرية الشهوات » : « اعتبار ما هو مقدر دليلا على تلك الهندسة الحية التى تسمى الطبيعة ومن ثم نتيجة حتمية للمبدأ الأزلى الذى يمتد نموه الى الأبد ويتطور بتطور الزمن والفضاء وهو مبدأ التحرر الوحيد . » وهل كنت أفعل فى تلك اللحظة ، وأنا أكتب هذه المذكرة ، أكثر من الخضوع لتلك الحكم والعمل بها ؟ ألا ليتنى أكون أسعد حظاً باستخراجها من ذى قبل ! لقد حاولت فى ذلك العهد أن ألخص تاريخ عواطفى نحو شارلوت وتطوراتها فى شكل قصة من نوع جديد . فانظر كيف تتولى الصدفة أحياناً تحقيق أحلامنا بما يدعو الى الدهشة . فقد كنت أظننى عالماً من علماء النفس جاءه شاب يبغى استشارته . وبعد البحث يحرر العالم ، لذلك المريض النفسى اللاجىء اليه ، نتيجة ما وصل اليه تشخيصه لعواطفه

مع بيان الأسباب والمسببات . كتبت تلك القطعة خلال شهر أغسطس متأثراً بحرارة الجو المحرقة . وكرست لذلك خمس عشرة ليلة كنت أرهق نفسى بالعمل فيها من الساعة العاشرة مساء الى الأولى بعد منتصف الليل . ونوافذ حجرتى مفتوحة على مصراعيها ، والفراش يدخل من الخارج ويحوم حول مصباحى وهو يمثل أبا الهول جاثماً وعلى رأسه شارة بيضاء على شكل جمجمة بشرية . وارتفع القمر فى القبة الزرقاء وبدأ يرسل أشعته الفضية على مياه البحيرة ، فتتلألأ وتنعكس أشبه بعروق اللؤلؤ الصافي ، ثم الى جميع أنحاء الغابة والبراكين الخامدة فيزداد منظرها روعة ورهبة . فأضع القلم من يدى لأستسلم ، حيال منظر هذه القرية الساكنة ، الى احدى تلك الأحلام التى اعتدت الاستسلام اليها عن تركيب العالم وما عليه من المخلوقات . وعدت بذا كرتى الى أيام كان أبى المسكين يكشف لى عن تاريخ الدنيا فأتصور الخلايا المبهمة ثم الأرض المنشقة عنها والقمر المنشق عن الأرض . ذلك القمر كان اليوم ميتا فى نظرى ولسوف تموت الأرض فهى تسير فى طريقها الى البرودة والجمود لحظة

اثر لحظة فتلك اللحظات المتعاقبة التى أضيفت الى بعضها منذ آلاف السنين كانت كافية لاخماد ثورة البراكين التى كانت تلفظ من أفواهها المحرقة المدمرة ذلك الحمم الذى يقوم عليه القصر. أن هذا الحمم عند مابرد وجمد قد كون حاجزاً في وجه الماء الممتد الآن على شكل بحيرة.
ولسوف تتبخر مياه البحيرة بدورها مادام الجو سائراً فى طريقه الى النقصان والعدم. فلم يتبق حول هـــذا الكوكب إلا أربعة عشر كيلومترا من الهواء القابل للتنفس. وكنت أغمض عينى فأشعر بتلك الكرة الزائلة تدور وتتدحرج فى وسط هذا الفضاء اللانهائى لاتبالى بتلك العوالم الصغيرة التى تتنقل عليـه ذهاباً وإياباً كما لايأبه الفضاء بالشموس والأقمار والأراضى. وسيستمر هذا الكوكب السيار فى دورانه حتى يتلاشى شيئاً فشيئاً ولايبق منه إلا كرة صغيرة بلاهواء ولاماء ويكون الانسان قد اختفى منها كما تختفى الحيوانات وكما تختفى النباتات. وكانت رؤيا هذا الزوال المحتوم بدلا من أن تحمل الى نفسى صفاء هـذه المشاهدة ـ كانت تجعلنى أنكمش على نفسى وأشعر، في كثير من الذعر بوطأة ضمير ذاتى الشخصية، وهو الحقيقة الوحيدة التى امتلكها.

ولكن لأى مدى من الوقت ؟ أقل من نقطة وأقل من لحظة!
ولقد تذكرت إذ ذاك عبارة ساذجة قالتها لى ماريان وهى تبكى يوما أسأت فيه اليها وأخذت تكررها فى وسط عبراتها «ليس للمرء غير نفسه... ليس للمرء غير نفسه ...»
وأنا أيضاً كنت أردد هذه العبارات وأستخلص كل ما انطوت عليه من المعانى. وما دامت تلك النقطة وتلك اللحظة من ضميرنا هما كل ما نمتلكه فى وسط زوال الأشياء المحتوم وتلاشيها المؤكد، فيجب أن نثير من حدتها ولهجتها. فدفعت عنى الأوراق التى كنت أودعها اعترافي المعزز بالأدلة البليغة، وأدركت فى إيمان مؤلم مخيف انه لا يوجد ثمة غير شارلوت من تستطيع أن تثير فى نفسى ذلك الانفعال بمثل تلك الحدة لو انها كانت في هذه الحجرة جالسة على هذا المقعد أو مضجعة على هذا السرير فيضم بدنها الزائل الى بدنى الزائل وروحها الحائرة إلى روحى الحائرة وشبابها الهائم الى شبابى. ولما كانت جميع آلات الموسيقى لاتحدث نغمة واحدة فان جميع تلك القوات المختلفة المتجمعة فى شخص تلك القوات العقلية والاحساسية قد اتفقت لترسل صرخة الرغبة الحارة التى تتأكلنى.

وا أسفاه! ان مجرد معرفة أسباب تلك الرغبة كان يضاعف فى حدتها وجنونها ورؤية العالم كانت تذكى فى فؤادى نيران الحياة بدلا من اخمادها أو درء وطأتها .

« ان عبارة ماريان التى ترددت على ذهنى فجأة أعادت الى ذكرى ذلك العهد الذى حدثتك عنه وما استجمعت فيه من رغبات حارة فكنت أردد اننى ربما أخطأت فى اعتقادى بأننى متجرد ومفكر عاقل . أما وقد قضيت أشهراً وأشهراً فى حمية من الشهوة البهيمية فهلا كنت أعيش على نقيض مع خلقى ؟ وهل لم تكن ظواهر الشهوة البادية على شارلوت ، وأعانى أنا آلامها ، نتيجة لعفاف طويل العهد ، وطهر مستمر ؟ قد لا يكون فى تلك الرغبة شىء يرتبط بالنفس وقد لا يكون فيها سوى فورة من فورات الشباب وافراط في الأحتفاظ بأكثر مما يجب من نضارة الجسم وانه يجب افرازها؟ » فما دام الأمر كذلك فلا بد من تحطيم فورة هذه الميول بأشباع تلك الشهوة . « فانتحلت أعذاراً عائلية لأنال من الماركيز أجازة لمدة ثمانية أيام ووصلت إلى كليرمون وأنا أشد ما أكون عزماً على الأنفجار فى حمأة الفسق مع أول مخلوقة أصادفها . وإذ كنت قد فكرت فى

ماريان للأسباب التي أوردتها لك فقد أخذت أبحث عنها وسرعان ما عثرت عليها . لم تعد العاملة البسيطة التي عرفتها فيما مضى فقد استمالها أحد الملاك المزارعين وأخذ يقوم باودها ويعنى بشؤونها ويمدها بما تحتاج اليه من مال وكساء . ولما كان هذا الخليل لا يأتى لزيارتها فى البلدة إلا يوماً فى كل ثمانية أيام فانها كانت تتمتع بحرية كاملة . وقد أثار فى ما وجدته فيها من تحول وتمنع ظاهر نوعاً من الفضول اللاذع لهوت به أربع وعشرين ساعة . لقد كانت الفتاة المسكينة تحفظ لى فى حنايا فؤادها ، وعلى الرغم من قطيعتى لها ، شعوراً رقيقاً وما ان مضى يوم على حضورى حتى أعددت وإياها الحظة لأمنع الشك عن أمى وقضيت الليل فى مخدعها . كان قلبي يدق بينما أنا أصعد درج البيت الذى كانت تسكنه فى شارع ترانشيه دى جرا وهو لا يبعد كثيراً عن الكنيسة القائمة التى انحدرت من أمامها فى طريقى اليها . لقد تأثرت من عودتى الى عالم الحواس والشهوة كما يتأثر المتهم الجديد . ولكننى لا ألبث أن أعرف الى أى مدى تؤثر فى ذكرى شارلوت وتتغلغل فى نفسى . وجلست على حافة السرير وأنا أنظر إلى هذه

المرأة وهى تنزع ثيابها وما لبثت أن ارتميت عليها بأفظع ما فى شهوة المراهق من قوة ووحشية . كانت هذه المرأة ثقيلة الحركة ولكنها كانت فتية قوية البنية.

آه ! لشد ما تألمت إذ تمثلت لى فى تلك اللحظة صورة الآنسة دى جوسا وقوامها المشرق النحيف كأنه تمثال يونانى وما يتوارى خلف هذا القوام من حركات رشيقة ورقة ! لشد ما كانت هذه الصورة تتألب أمام عينى حية بينما كنت ملتقياً على هذا السرير أضم بين ذراعى خليلتى الأولى بنشاط وحشى يمتزج بحزن لا نهائى ! لقد كانت هذه المخلوقة فتاة عادية من عامة الشعب قلما تعقل إلا انه توجد ، لدى أشد النساء تشبعاً للمادة، طرق غريبة للتظاهر بالرقة والخفة إذا هن أحببن . وهذه الفتاة كانت تجبنى على طريقتها . ولاحظت أنها هى أيضاً لم تشعر إلى جانبى بمثل سابق شعورنا . رأيتها تهتاج تحت مداعباتى . ولكنها بدلا من طلب الاستزادة كما كانت تفعل فيما مضى شعرت بخيبة الأمل كأنها قلقت من نظراتى وتأثرت من حزنى . وخاطبتنى خلال قبلاتنا :

ــ وما بالك مكتئباً ؟ . . . ، ثم وجهت إلى عبارة

يمتاز بها سكان كليرمون : «لم أعهد فيك مثل هـــذه الكآبة.» ثم مازحتني بمرح سكان الأوفرني : «لاشك أن ربة خدر قد أخمدت نارك ...»

«ولكي تعزز مزاحها السخيف ومعاني ألفاظها المستترة لفت ذراعيها الغليظتين وأصابعهما السميكة حول عنق - كانت ذراعا شارلوت نحيفتين لا مجال للتشبيه بين مافيهما من رقة وبين غلظة ماريان . لم يؤلمني في ماريان ما كانت عليه من غلظة وخشونة ولم ينقبض صدري لما سمعته من ألفاظها البذيئة . كلا . فهلا يجب أن تكون نفسي معتلة مريضة لتلاحظ هذه المخلوقة على ذلك ؟ على انني قاومت هـذا التأثير وهزأت من افتراضاتها واجتهدت في الاستمتاع بأوفر قسط من الفسق والدعارة الوحشية فكانت نتيجة هذا العمل واضحة وهي أنني ابت إلى البيت في الصباح وقد طفح كأسي بالمرارة والشجن . لم يعد في مقدوري أن أعود إلى هذه المرأة واستحال على التردد على غيرها . فقضيت ما بقي لي من أيام أجازتي أتنزه مع أمي ، فكانت تراني دائب التفكير شديد الكآبة والحزن فتقلقت وضاعفت ايلامي بالحاحها في سؤالي إلى حد أنني كنت أشعر بارتياح لقرب عودتي إلى القصر

سوف لأجد هناك ما يحول بيني وبين ذكرياتي.
وما أن وصلت حتى فوجئت بضربة فظيعة كانت في انتظاري. ولم تقع عين الماركيز على حتى عاجلني بنبأ أهاج مكامن أشجاني وهدم كياني وعاجلني بقوله :

— « لدي نبأ سار. لقد تحسنت صحة شارلوت. ونبأ آخر لا يقل عن الأول بهجة وحبوراً. ستتزوج. أجل. لقد ارتضت بالسيد دي بلان. ولكنك لا تعرفه. هو صديق لاندريه كانت قد رفضته مرة قبل هذه والآن قد ارتضت به... » واستمر في حديثه معرجاً على نفسه كجاري عادته : « أجل. هذا نبأ سار جداً، إذ لم يبق بي، كما ترى، مطمع في الحياة... فان أصابتني قاتلة... »

« لقد كان في وسعه أن يفيض في سرد أمراضه الوهمية، ويحلل لي ما استطاع أجزاء معدته، ونقرسه، وامعاءه، وكليتيه، ورأسه. فلم أكن أصغي اليه بأكثر مما يصغي المحكوم عليه بعد إلى سجانه سماعه الحكم. لم أر الا الواقعة ولشد ما كانت مؤلمة في تلك اللحظة.
أما وأنت كاتب الصفحات الرائعة عن الغيرة، يا أستاذي العزيز، وعن الشقاء الذي تحمله إلى مخيلة العاشق لمجرد

تفكيره بمداعبات غريمه ، فانك تقدر تأثير السم الفتاك الذى أفرغه هذا النبأ على جرحى الدامى . وانقضى شهر مايو فيونيه فيوليه فاغسطس فسبتمبر . توالت هذه الشهور الخمسة على رحيل شارلوت وبدلا من أن يلتئم الجرح كان يتسع ويزداد تسمما حتى كانت الأصابة الأخيرة فأجهزت على . في تلك المرة لم أجد أمامى حتى ذلك العزاء القاسى الذى طالما عللت نفسى به إذ كنت أفكر فى انها كانت تشاطرنى اياه . أولم يكن هذا الزواج دليلا حاسما على انها برئت من شعورها نحوى وانى أحتضر من شعورى نحوها ؟ ومما زاد فى حفيظتى وأوغر صدرى ما كنت أعلمه من أن هذ الحب ، وهو وليد الأمس ، قد انتزع منى فى اللحظة التى صار في وسعى أن أغذيه لينمو وفى الساعة التى حددتها لاقتناص فريستى . يقينا ان المقامر ليشعر بمثل ذلك الغيظ وانك لتجد مثل هـــذا الغيظ عند المقامر الذى يرغم على الانسحاب من مائدة اللعب ثم يعلم أن الثمرة التى كان يفكر فى اللعب عليها قد ربحت وانها دفعت ست وثلاثين مرة ما كان سيغامر به عليها . وآلت بى الحال إلى أن ألوم نفسى إذ لم أهجر كل شىء عقب رحيل

شارلوت وإذ لم ألحق بها مع ما لدى من بضعة مئات الفرنكات التى ادخرتها . ولـكن سبق السـيف العزل . ولقد تخيلتها فى باريس ، اذ كنت أعلم أن السيد دى بلان كان يقضى أجازته فيها ، وهى تستقبل خطيبها فى شبه خلوة وترتفع بينهما الكلفة تحت نظرات الماركيزة الرحيمة . فتلك الابتسامات الابية الحيية ، وتلك النظرات الوديعة القلقة ، وذلك الحيا النبيل تمتزج فيه شحوبة الخجل وحمرة الحياء ، وتلك الحركات الرشيقة التى لا تخلو من وحشية ونفور ، كل ذلك أصبح لهذا الرجل . النهاية ، انها تحبه ما دامت ستتزوج منه . حتى لقد كنت أتخيله شـبيها بالـكونت أندريه الذى اكتشفت أثر تأثيره في هذا العمل أيضـا وعدت إلى سـابق حقدى عليه فى شخص خطيب أخته فجمعت بين هذين النبيلين ، الضابطين ، العاطلين ، فى جعبة حقدى واحتى . لقد كنت أحمل غضبى التافه وثوراته الباطلة في الغابات وقد بدأت تخلع عنها ثوبها السـندسى تأهبا لوداع الربيع الراحل وأخذت طيور السنونو تتجمع تأهبا للرحيل . وكان موسم الصيد قد بدأ وأخذت طلقات البنادق تدوى إلى جانبها فذعرت وارتفعت في

الجو كتلة واحدة مضطربة وسارعت فى طيرها وفرت
كما فر الطير المستوحش الذى خيل إلى يوما أننى أصبته
وقتلته . وكانت التلال من ناحية سان ساتورنان غاصة
بكروم العنب وقد نضجت دواليها وتنتظر أيدى جانيها.
فكنت أنظر إلى غيرها من الكروم التى أصابها برد
الربيع فهشمت أزهارها . هكذا ماتت في صدرى ،
قبل أن أجنى ثمارها ، زهرة الانفعالات ولما أذق
طعم رحيقها ولذة نعمائها وحرارة خيالها . كنت أشعر
بلذة قاتمة لا توصف ، إذ كنت أبحث فى أنحاء القرية
عسى أن أجد رموزاً لشعورى .

ولقد طهرنى الألم ردحاً قصيراً من كل شىء . فلو
قدر لى أن أكون عاشقاً بالفعل وأن أكون منهباً
للأسى والذكريات واليأس ، لما كنت خير منى فى هذه
الأيام التى ستنتهى معها مدة تدريسى . والواقع أن
الماركيز قد أعلن عن عزمه فى تقريب يوم رحيله .
وكأنه نسى نقرسه وطفق يحدثنى بخفة وسرور .

— « إننى أعبد صهرى ... وأود أن تتعرف
عليه .. انه نبيل شجاع ، طيب القلب ، أبى النفس ،
تسيل فى عروقه دماء نبيلة كريمة ... النهاية . هلا

فهمت شيئاً من النساء ؟ هاك واحدة ليست أكثر جنوناً من غيرها ، بالعكس . أليس كذلك ؟ قدم لها هذا الشاب منذ عامين . فاذا بها تقول لا . وإذا بولدى يفقد صوابه ويذهب اليه ويعود وهو شبه ميت ثم إذا بها تقول نعم . . . هل تعلم انى كنت أفكر دائماً فى أن مرضها العصبي لا يخلو من تأثير هذا الغرام . . . انني أعرف ذلك . وكنت أردد لنفسى : انها تحب شخصاً . . . ولقد كان هو . وما ذا عسى أن يكون الآن لو انه رغب عنها ؟ . . . »

« إنى لأذكر لك هذا الحديث بين كثير غيره . وإنك لتقف منه على ما كان يصادفنى في كل لحظة ويدمى فؤادى . كلا . ليس السيد دى بلان هو الذى أحبته شارلوت فى هذا الشتاء . ولكنها قد أحبت وهذا ما لا يحتمل أى شك . لقد تقابل مصيرنا عند مفترق الطرق ، كمفترق هذين الطريقين اللذين اتبينهما من نافذة مخدعى ينزل أحدهما من الجبال ويتجه نحو غابة لا برادا المشئومة ويصعد الآخر نحو تل لا رود . وكثيرا ما كان يصادفنى أن أنظر وحدى إلى العربات تقطع أحد هذين الطريقين عند هبوط الليل . فتدانى

حتى لنكاد تحتك ببعضها ثم تتباعد وتذهب كل واحدة في اتجاهها . وهكذا التقينا وهكذا افترق مصيرها عن مصيري الى الأبد . لسوف تعيش البارونة دى بلان فى باريس ، فتمثلت لى الأوساط التى سوف تغشاها أشبه بالحلقة المفقودة التى تدور بمن فيها وتنثر عليهم ما احتوته من احساسات غريبة ساحرة . أما أنا ، فكنت أعرف جيداً ما ستكون عليه حياتى المقبلة . فكنت أستيقظ بالفكر فى تلك الحجرة الصغيرة فى شارع البليار . وبالفكر أيضاً كنت أتتبع الطرقات الثلاثة التى كان يجب أن أقطعها للوصول إلى الكلية . ثم أرانى بداخل بناء الكلية والمشيد بالطوب الأحمر متجهاً نحو قاعة المحاضرات وجدرانها العارية إلا من بعض لوحات سوداء . مصغياً إلى الأستاذ وهو يحلل أحد المؤلفين المقررين لأجازة الآداب أو الدكتوراه . ويستغرق ذلك ما يقرب من ساعة ونصف ساعة . ثم أعود وأنا أتأبط محفظتى فأخترق الطرقات الباردة فى ذلك البلد الأثرى إذ كان لابد لى من قضاء هذا العام أيضاً فيها لأننى لم استعد كما يجب لاجتياز امتحانى بنجاح . لسوف أستمر فى الذهاب والاياب أمام

هذه الدور السوداء تحت أفق هذه الجبال المثلجة أرى في كل يوم والدى أميل الصغير جالسين الى نافذتهما وهما يلعبان، والشيخ ليماسيه يقرأ صحيفته فى زاوية قهوة باريس ، وسيارات روايا عند ركن دى جود . أجل يا أستاذى العزيز لقد سقطت الى هـذا الحد ، الى هذا الشقاء الذى تتخبط فيـه العقول التى لا تدرس النفس وتتعلق بشكل الحياة الظاهرى ولا تبحث فى الجوهر . لقد فقدت ايمانى القديم بسمو العلم الذى لا يحتاج إلى أكثر من حجرة لا تتجاوز الثلاثة أمتار ومعه سبنيوزا أو ادريان سيكست ليمتلك العالم العظيم ويتفهمه .

آه ! لشد ما كنت حقيرا فى ذلك العهد عهد الرغبات العاجزة والحب المقهور ! لشد ما لعنت فى غير حق حياة الدراسات المجردة التى سوف أعود اليها ! ولكم تمنيت اليوم أن يكون ذلك حظى فعلا فاستيقظ ذلك الطالب فى كلية الآداب بكليرمون ، الساكن عنـد والد أميل وتلميذ الشيخ ليماسيه ، وعابر الطرقات المكفهرة ، على أن أكون بريئاً ! بريئاً ! وليس ذلك الذى اجتاز ما اجتزته مما يجب الافضاء به .

— ٦ —

وشكا لوسيان ، حوالى آخر سبتمبر ، انحرافاً ألم به عزاه الطبيب فى بادىء الأمر الى برد بسيط . وبعد مضى يومين تضاعفت أعراض الداء فدعى طبيبان من كليرمون وشخصا أن المرض حمى قرمزية خفيفة الوطأة . فلو لم تكن فكرتى متجهة بكليتها الى الفكرة الثابتة التى كانت تجعل منى ، فى ذاك العهد ، شبه معتوه لوجدت فيما حولى ما يكفى لملء كراستى بأكملها . كان يكفى أن أتتبع تطورات عقل

الماركيز والصراع الناشب فى قلبه بين داء النقرس المصاب به وحبه الأبوى . فتارة كان يبدو عليه القلق على ابنه الى حد الغم ، على الرغم من آراء الأطباء المطمئنة ، فيقضى الليل إلى جانب سريره . وطوراً كان يفزع من سريان العدوى اليه فيأوى الى فراشه شاكياً آلاماً وهمية مترقباً عيادة الطبيب بفارغ الصبر . وكان يحدث له انه يتوهم ان أعراض الداء خطيرة فيطلب أن يبدأ الطبيب بعيادته . ثم يستولى عليه الحياء من هذا الذعر وينهض من فراشه ويعاقب نفسه على مخاوفه بعبارات مريرة عن الضعف الذى يجلبه السن ويعود الى فراش ابنه . وكان أول ما اتجه اليه فكره ان يخفى عن الماركيزة وشارلوت والكونت اندريه مرض الطفل ولكن لم يمض اسبوعان حتى كانت قواه وهمته قد همدت لما ابداه من النشاط والخوف ، وشعر بحاجته إلى وجود زوجته إلى جانبه لتعاونه، وبلغ من تضارب أفكاره أن لجأ إلى استشارتى وختم قوله :

— «ألا ترى ان هذا هو واجبى ؟ . . . »

« توجد نفوس ، يا أستاذى العزيز ، طبعت على

الكذب وبرعت فى انتحال الأعذار الجميلة لتبرير أقبح الأعمال .فلو إننى كنت في عدادها لاستطعت أن أنحو بالحاحى على الماركيز لعدم دعوة زوجته . يقيناً لقد كنت أقدر مدى جوابى والقرار الذى سيتخذه السيد دى جوسا . وكنت أقدر إنه إذا استدعى الماركيزة لا تلبث أن تعود فى أول قطار وكنت أقدر جيداً أن شارلوت لابد أن ترافق أمها لتطمئن ، وإذ ذاك أراها . وأجد الفرصة الملائمة لأوقظ فيها نيران ذلك الحب الوليدالذى اكتشفت الدليل عل وجوده.وإنى لأستطيع أن أقول إننى كنت مخلصاً فى نصيحتى للمركيز أن يترك السيدة دى جوسا هانئة فى باريس . أجل . لقد كان مظهرى يدل على الأخلاص . ولماذا ؟ لو لم أكن مقتنعاً من عدم وجود نتائج بغير أسباب ولا مثل هذا الأخلاص بغير أنانية خفية ، لكان مافعلته أشنع وأحط ما يمكن أن يفعل ، لاستغلال أنبل العواطف وهى عاطفة الأخت نحو أخيها ، في سبيل شهوة حقيرة آثمة. ولكن هاك هى الحقيقة على علاتها : إننى ، بمحاولتى ردع السيد دى جوسا ، عن عزمه ، كنت مقتنعاً من أن كل محاولة من جانبى لاسترجاع قلب شارلوت كانت

بلا جدوى،فقد كنت أرى فى هذه العودة إذلالا مؤكداً. ولا أشعر من نفسى بالقوة للمقاومة والعمل بعد ما أصابنى خلال هذه الشهور الطوال من جراء تلك المنازعات النفسية الداخلية . وإذن لم يكن لى من فضيلة في أن أكشف للماركيز عن المضار والأخطار التى تنجم عن اقامة هاتين السيدتين فى القصر إلى جانب مريض قد يحمل اليها عدوى مرضه .

— « وأجابنى الماركيز بمنتهى البساطة : « وأنا ؟ هلا أعرض بنفسى فى كل يوم ؟ ولكنك على حق فيما يختص بشارلوت وسأكتب اننى لا أريدها . . . »

— « وانقضى يومان وإذا به يقول « آه ! جرسلو . هاك ما تفعلانه معى . اقرأ . . . » وناولنى البرقية التى وصلت وتنبئه بقدوم الآنسة دى جوسا مع أمها . وتمتم المريض فى أنة : « أرادت أن تأتى ولم تفكر فى اننى لست بحاجة إلى مثل هذه الانفعالات . »

« أبلغنى الماركيز هذا النبأ فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وكنت أعلم أن القطار يغادر باريس فى الساعة التاسعة مساء ويصل إلى كليرمون في نحو الساعة الخامسة صباحا . فقد سبق لى أن ركبته يوم تعرفت عليك .

وإذن فلم يبق من الوقت إلا ما يكفى لركوب العربة فسوف تصل السيدة دى جوسا وشارلوت الى القصر قبل الساعة العاشرة . فقضيت مساء وليلة من أفظع الليالى فقد خانتنى فلسفتى التى طالما اهتديت بنورها وأصبحت أتخبط فى ظلمة الشك المدلهمة ونبت بى همتى وخاننى نشاطى وخلفنى العوبة تتقاذفنى الانفعالات العصبية . على أن الحكمة كانت توعز إلى بحل بسيط . إن تعاقدى كان ينتهى في الخامس عشر من اكتوبر وكنا إذ ذاك في الخامس من ذلك الشهر . ثم أن الصبى قد تماثل الى الشفاء التام وأصبح فى دور النقه . ولسوف يجد أمه وأخته الى جانبه . فكنت أستطيع والحالة هذه ، أن أنتحل أول عذر وأعود الى بيتى . كان فى وسعى أن أفعل ذلك بل أن واجبى يدعونى اليه حرصاً على كرامتى وإراحة لبالى . وقد وطدت العزم على ذلك فى صبيحة تلك الليلة التى قضيتها فى سهاد وأرق . وفاتحت الماركيز بعزمى فى الحال ولكنه لم يترك لى الوقت لأفيض في حديثى لما كان عليه من الاضطراب بسبب مجىء ابنته وقاطعنى بقوله :

« حسنا . فيما بعد . فيما بعد . إنى لا أعى على شىء

فى هـذه الآونة ... أرأيت كيف يستثيرونني ؟ ...
هكذا هرمت سريعاً وحلت بى العبر ... في كل يوم
ضربة جديدة . دائماً ... »

« من يدرى ؟ ربما كان حظى موقوفاً على حركة
المزاج التى أبى بها هـذا الشيخ المجنون أن يصغى إلى .
فلو أننى استطعت أن أحدثه في تلك اللحظة . ولو أننا
كنا حددنا معاً وقت مغادرتى القصر . لكان لزاماً على
أن أغادره فعلا . بدلا من أن تحول وجود شارلوت
خطة الرحيل بخطة البقاء كما يحول المصباح الظلمة الى نور
بغتة . أننى أكرر لك ماقلته آنفاً من أننى كنت معتقداً
من عدم اهتمامها بى من جهة ومن جهة أخرى أننى كنت ،
النسبة لها ، أعانى نوبة شديدة ولـكنها ليست نوبة حب
حقيق ولـكن نوبة زهو جريح وجنسية مريضة . إيه !
كان يكفى أن أراها تنزل من العربة عند عتبة القصر
وأن ألاحظ إلى أى حد يحمل وجودى الاضطراب
الى نفسها والى أى حد يرهقنى وجودها ، حتى أتثبت
من حقيقة شيئين : أولا انى لن أستطيع طبيعياً أن
أهجر القصر ما دامت هى فيه ثم انها اجتازت منذ شهر
مايو انفعالات واضطرابات ان لم تكن مثيلة بالتى

اجترتها أنا ، فهى أفظع منها ، لم يكذبنى ظنى أمام المظروف الذى رأيت فيه زهرات السوسن ، وانه يمكن أن تكون قد هربت بدافع من شجاعتها وانها لم تجب على رسائلى لأنها لم تقرأها وانها خطبت لتضع المستحيل بيننا بل وانها تعتقد انها لم تعد تحبنى فعادت الى القصر بدافع هذا اليقين . ولكنها كانت تحبنى . ولم أكن في حاجة ، لا تحقق من هذا الحب ، الى تحليل تفصيلى عميق كتلك التحاليل التى طالما زهوت بها وطالما خدعتنى . وقد حملنى شعور فجائى ، قل أن يعلل أو يقهر ، على التسليم والأخذ بصحة النظريات الخاصة بازدواج الشخصية التى طالما كانت موضع بحوث ومناقشات علمية .

ولقد تبينت من النظرات المنزعجة التى كانت تنبعث من عينى هذه الفتاة دلائل ذلك الحب غير المرتجى كما تقرأ أنت هذه الكلمات التى أحاول أن أصف لك بها وميض هذا اليقين وانهياره كالصاعقة . لقد رأيتها متمثلة أمامى بثياب السفر ووجهها أبيض يحاكى بياض هذا الطرس . هل كان يجب على أن أعزو ذلك الشحوب الى متاعب الليلة التى قضتها فى عربة القطار والى قلقها على أخيها المريض؟ وبدا القلق على عينيها عند ما التقتا بعينى .

على أن ذلك قد يكون بتأثير من الطهر المهان . ونحل
جسمها كأنه قد ذاب . وعند ما وصلت الى الردهة
نزعت معطفها فرأيت أن لثوبها ، وهو ثوب
من العام الماضى ، ثنايا عند الكتفين . ولكن ألم
تكن مريضة ؟ . . . آه ! فأنا الذى طالما آمنت بسير
العقل وتطوره والاستدلالات وتعقيدات التفكير الى
حد انى كنت أشعر بسلطان العزيزة المستبد الغاشم !
انها مازالت تحبنى. بل وتحبنى أكثر من ذى قبل . فماذا
يضيرنى إذا هى لم تمد لى يدها حين التقينا لأول مرة
وأنها كادت لاتخاطبنى في الردهة ، وأنها صعدت درج
السلم الكبير مع أمها ولم تلتفت إلى ؟ لقد كانت تحبنى.
أن هذا اليقين الذى تملكنى ، بعدما ساورنى من القلق،
قد أثلج فؤادى الى حد الألم وأنا مازلت واقفاً على
طنافس ذلك السلم الذى اضطررت الى تسلقه بدورى
لأعود الى حجرتى . ومع ذلك فماذا عسانى أن أفعل
هناك فاعتمدت على مكتبي وتناولت جبيني بين راحتى
لأكتم ضربات صدغى وأخذت أردد على نفسى هذا
السؤال بدون أن أحير جواباً إلا أننى لا أستطيع الرحيل
وأن مابيني وبين شارلوت لايمكن أن ينتهى بالفرقة

والصمت ، وإننا فى النهاية نقترب من ساعة حاسمة ، وأن جهودنا المتبادلة وجهادنا المستتر ورغباتنا التى كنا نحاربها ونتكتمها لابد أن تدفع بنا الى خاتمة سامية . وكنت أشعر بتلك الخاتمة تدنو مؤلمة حاسمة لامناص منها . فقد كانت شارلوت مكرهة على احتمال وجودى وعلى الرغم مما تفعله فاننا لابد أن نلتقى عند فراش أخيها . وقد حدث فى يوم عودتها بالذات ، إذ جاء دورى للملازمة الصغير المريض فى نحو الساعة الحادية عشرة ، أن ألفيتها هناك تتحدث اليه بينما كانت الماركيزة تستفسر من الأخت أنا كليه وتتحدثان معاً بصوت خافت الى جانب النافذة وكانوا قد أخفوا عن لوسيان نبأ مجىء السيدتين ولذلك فانه لم يكد يشاهدهما حتى بدا على وجهه النحيل وفى حركاته العصبية ذلك السرور المهتاج المحموم الذى يبدو على جميع الناقهين . فحيانى بأرق ابتساماته ثم تناول يدى وهو يخاطب أخته :

— « لو كنت تعلمين كم كان السيد جرسلو طيبا نحوى فى هذه الأيام ! . . .

« فلم تجبه ولكننى لاحظت كأن يدها المبسوطة على الوسادة بالقرب من وجنة أخيها قد ارتعشت .

وجاهدت لتلق على نظرة لاتخونها . والحق أن هيئتي كانت تنبىء عن إضطراب قد أزعجها . وشعرت بأنها ستؤلمنى لو أنها تركت عبارة هــذا الصبي البريئة بدون تعليق وقالت بصوتها العذب الحى الذى يختلج باختلاج فؤادها المتأثر وبدون أن توجه إلى حديثها :

— « أجل . أعلم ذلك وأنني لأشكره . إنا لنشكره جميعاً جزيل الشكر . . . »

« ولم تزد حرفا . انى لعلى يقين من اننى لو تناولت يدها فى تلك اللحظة من جديد لغشى عليها لما أحدثه فيها هـذا الحوار البسيط من الانزعاج . فتمتمت بضعة كلمات تافهة : « هذا طبيعى جداً » أو ما أشبه من ذلك . ولم أكن أكثر ثباتاً منها . ولم يشعر لوسيان مع ذلك بشىء من لهجة أخته المغمومة ولا بما هو ظاهر على من الأرتباك والضيق واستطرد :

— « وأندريه ، هلا يأتى ليرانى ؟ »

— « فأجابته : « أنت تعلم انه لا يستطيع أن يغادر الغرفة »

— « وألح الصبي : « وما كسيم ؟ »

« لم أكن أجهل ان هـذا هو اسم خطيب الآنسة

دى جوسا . ولكن ما كاد الصبي يلفظ بهاتين الكلمتين من بين شفتيه حتى رأيت شحوب وجهها وقد علته فجأة طبقة من الدم . وسادت برهة من الصمت سمعت خلالها همهمة الأخت أناكليه وحفيف النار في المدفأة وصوت رقاص الساعة يتأرجح ذهاباً وإياباً . واستطرد الصبي مشدوها من هذا الصمت :

— « أجل ما كسيم ؟ هلا يأتى هو أيضاً ؟ . . . »

— « فأجابت شارلوت : » السيد دى بلان لحق بفرقته أيضاً .

« وسألنى لوسيان إذ رآنى قد وقفت :

— « أوذاهب أنت يا سيد جرسلو ؟ »

— « فأجبته : سأعود لقد أغفلت رسالة على مكتبى . »

« وانصرفت تاركا شارلوت الى جانب السرير مسبلة العينين وقد عاودها شحوبها .

« آه ! يا أستاذى العزيز . انى لفى حاجة الى أن تصدقنى فيما سأقوله لك . انى فى حاجة ألا تشك فى اخلاصى فى تلك الآونة على الرغم من مفارقات قلب قد استعصى فهمه حتى على نفسه . لكم أنا فى حاجة الى عدم الشك أنا أيضاً ، لكم أنا فى حاجة أن أردد لنفسى

بأنى لم أكذب فى ذلك الحين . صدقنى بأنه لم توجد ذرة من التهريج المصطنع فى تلك الحركة الفجائية التى أتيتها للوقوف لمجرد سماع اسم ذلك الرجل الذى لا يلبث أن يمتلك شارلوت و.ن هى ملكه الآن . لم يوجد شىء من التهريج فى تلك العبرات التى طفرت من عينى حالما تخطيت عتبة الباب ولا فى تلك التى زرفتها فى الليلة التالية أيضاً بعامل اليأس واليقين من اننا متحابان واننا لن نكون لبعضنا أبدا أبدا . لا يوجد شىء من التهريج فى ثورات الحزن التى أثارها وجودها في نفسى فى الأيام التالية . فوجهها النحيل ، وهامتها الهزيلة وحدقتا عينيها المتعبتان ، كانت هنا ، أمامى لتؤلمنى ، وذلك الشحوب يثير أشجانى ، وتلك القامة الهيفاء تزيدنى شغفاً وتلذع رغبتى . وكانت حدقتاها تتوسلان الى . « لا تتكلم ، فأنا عالمة بأنك تعس أيضاً ، وانك لتكون شديد القسوة لو عاتبت أو شكوت أو كشفت عن جرحك . » ألا قل لى . لو اننى لم اكن حسن النية فى تلك الأيام ، هل كنت أتركها تمر دون أن أقدم لاسيما وان ساعاتى كانت معدودة ؟ بيد انى لا أذكر انى اعتزمت عملا أو أعددت خطة . تلك المشاعر

العاصفة التى كانت تتأكلنى كالنار المحرقة ، تلك العواطف المجنونة اللاذعة ، وتلك الآلام المبرحة التى كانت تغشى جميع كيانى وتستمر فى ازدياد حتى فكرت فى التخلص منها بالانتحار . . . ولكن أين أبدأ ، وكيف ، وأى ألم خاص عسانى أن أتذرع به ؟ إنى لا أستطيع أن أقوله فأنت ترى جيداً أننى أحببت حقيقة فى تلك الآونة ما دامت جميع مشاعرى قد ذابت بتأثير شعلة تلك الشهوة كما يذوب الرصاص فى أتون من النار ما دمت لا أجد مادة للتحليل فى جنونى الحقيق وفى تنازلى عن ذاتى القديمة على مذبح الاستشهاد . وانك لتعترف بأن فكرة الموت التى خرجت من أعمق أعماق نفسى ، وتلك الرغبة المدلهمة فى القبر التى كانت تلازمنى ملازمة الظمأ والجوع للجسم ، ليست إلا نتيجة حتمية لداء الحب الذى أبدعت أنت يا أستاذى العزيز فى دراسته أيما إبداع . وإنى لاشعر بأن غريزة الهدم التى تشير عن يقظتها الخفية فى الرجل الى جانب غريزة الجنس قد ارتدت على وقد بدا لى ذلك أولا من السأم اللانهائى ، سأم الشعور بالشىء الكثير مع عدم التعبير مطلقاً . ودعنى أكرر لك بأن الحزن الذى كنت أطالعه في

عينى شارلوت عند ما كانتا تلتقيان بعينى . كان يحميها ويدرأ عنها أكثر مما كانت تستطيع أن تفعله جميع الألفاظ والعبارات . على أننا لم نلتق ببعضنا على انفراد إلا بضعة لحظات فى حجرة الاستقبال وعلى طريق الصدفة . وكانت تلك اللحظات تمر فى صمت عميق يضغط على الصدر كما تفعل اليد التى تضغط على العنق . ولقد كان الكلام إذ ذاك مستحيلا كما كان يستحيل على المشلول أن يحرك ساقيه . وما كان يكفى لذلك مجهود جبار ، وأن المرء ليشعر بذلك إلى حد يتعذر عليه إيحاء الانفعال أو إشراك الغير فيه إذا ما بلغ أشده . فيخيل اليه إذذاك أنه أسير موؤد فى ذاته ، فيحاول التخلص بعيداً عن تلك الذات التعسة الشقية فيغوص فى لجة الموت وينخبط فى هوته المدلهمة السجينة عسى أن يجد فى رطوبة الفناء والعدم راحة أو مفراً . وتحولت تلك الفكرة عندى إلى حنين فأصبحت أتوق إلى أن أترك فى نفس شارلوت أثراً لا يمحى ثم إلى رغبة مجنونة فى أن أقدم لها دليلا على حب لا يمكن أن يستظهر عليه حنان من سيصبح زوجها ولا عظمة البيئة الاجتماعية التى سوف تنتقل اليها وتعيش فيها . ولئن مت يأساً من التفريق

بيني وبينها إلى الأبد فلا بد أن تتذكر طويلا ، أبداً ، ذلك الرائد البسيط ، والقروى الصغير الذى كان ينعم بمثل هذا النشاط فى مشاعره وعواطفه ! . . . ، يخيل إلى أنى رددت هذه الأفكار لنفسى . ولكنك ترى أنى أقول . « يخيل إلى » لانى فى الحقيقة كنت أتخبط خلال هذه المدة ولم أتفهم نفسى في وسط هـذيان تلك الحمى التى انتابتنى ولا الحدة التى كانت تستفزنى ولا تلك المأساة التى صهرتنى فى أتون أوارها. وانى أكاد أتبين من وراء أفكارى المتضاربة نوعا من الايحاء الذاتى والايعاز الشخصى لما تعبر عنـه أنت . ولقد نومت نفسى تنويماً مغناطيسيا ولذلك فاننى لم أوطد عزمى على الانتحار إلا وأنا في شـبه غيبوبة النائم المستيقظ . وحددت اليوم والساعة وقصدت إلى الصيدلى وابتعت القارورة المشئومة التى تحوى جوز القىء . وأنى ، إذكنت أعد العدة للرحيل الأخير مدفوعاً بذلك العزم ، لم أؤمل فى شىء ولم أحسب حساباً لشىء بل كانت تتملكنى وتسيطر على قوة عجيبة غريبة عن ضميرى. كلا . لم أبد فى أية لحظة من حياتى بمثل ما كنت أبدو عليه فى تلك اللحظة . فكأنما كنت متفرجاً بعيداً عن

الاهواء والأغراض فى جميع حركاتى وأفكارى وأعمالى وكأن ما يبدو على شخصى العامل من المظاهر الخارجية المطلقة بعيداً تمام البعد عن شخصى المفكر . بيد أنى قد دونت مذكرة عن هذه النقطة ، وإنك لتجدها ضمن نسختين من كتاب « بريدى بوامون » عن الانتحار . وكنت أشعر ، وأنا أعد تلك المعدات ، باحساس غريب لا يمكن التعبير عنه فهو أقرب إلى ما يشعر به الحالم المستيقظ وما يفعله كأنما هو آلة تنفذ . انى أعزو هذه الظاهرات العجيبة إلى خلل فى الجهاز العصبي قريب من الجنون . وأن هذا الخلل نتيجة فساد الخلق الذى تسببه الفكرة الثابتة . وفى صبيحة اليوم الذى اعتزمت فيه تنفيذ خطتى ، فكرت فى محاولة أخيرة لدى شارلوت . فقد جلست إلى مكتبى لأحرر لها كتاب وداع ، وتخيلتها وهى تقرأ هذا الكتاب فمر بخاطرى هذا السؤال : « ماذا عساها أن تفعل ؟ . أو يمكن ألا تهتز ألياف قلبها بنبأ اعتزامى الانتحار ؟ وهلا تأتى مسرعة لتمنعه ؟ أجل سوف تسعى إلى مخدعى ، ولسوف تجدنى ميتاً . . . إلا إذا أرجأت انتحارى إلى أن أرى نتيجة هذا الاختبار الجديد ؟... » وكنت ، وأنا أفكر في ذلك ، صافي الذهن

أقرأ بوضوح ما يدور فى قرارة نفسى . وانى لعلى يقين من أن كل ذلك قد تم كما أوضحته لك وأنه تم عند تلك النقطة من خطتى . وإذ ذاك قلت لنفسى : « إذن ! فلنجرب . » واعتزمت أن أجرع السم إذا هى لم تأت عند منتصف الليـــل إلى مخدعى . وكنت قد درست خواص هذا السم وعرفت أنه فتاك سريع التأثير بحيث لن أتألم إلا برهة قصيرة جداً . ومما يدعو إلى الدهشة أن ذلك اليوم قد مر على وأنا فى هدوء غريب . ويجب على أن أعترف أيضاً بأننى شعرت بأن عبئاً ثقيـلا قد أزيح عن صدرى . ولم يساورنى القلق إلا حوالى الساعة العاشرة عندما انصرفت من محضر الجماعـــة ووضعت الرسالة على المنضدة فى مخدع الفتاة . وعند منتصف الساعة الحادية عشرة سمعت ، من باب مخدعى المفتوح ، خطوات الماركيز والماركيزة وشارلوت . ثم سمعتهم وقد وقفوا ليتحدثوا لحظة أخيرة فى الردهة ، ثم تحيتهم المعتادة ، وانصرف كل منهم إلى مخدعه . الساعة الحادية عشرة . . . الســاعة الحـادية عشرة وربع . لا شيء . وكنت أنظر إلى ساعتى الموضوعـــة أمامى إلى جانب ثلاث رسائل أعددتهـا للسيد دى جوسا ولأمى ولك

يا أستاذى العزيز. وكان قلبى ينبض بشدة حتى ليتمزق صدرى . بيد أن الارادة كانت ثابتة هادئة . لقدأخطرت الآنسة دى جوسا بأنها لن ترانى فى اليوم التالى . ولقد كنت على يقين من أننى لن أخل بكلمتى « إذا » . . . ولم أستطع أن أتحقق مما يرمى إليه حرف « إذا » من الأمانى والآمال . وأخذت أنظر إلى عقرب الثوانى وأحسب عدد لفاته بدقة : «فاذا قدرت لكل دقيقة ستين ثانية فيجب على أن أرى العقرب يدور أيضاً مراراً عدة لأننى سأنتحر عند منتصف الليـل . . . » وطرق سمعى وقع خطوات على السلم تسير بخلسة ورشاقة فتملكنى انفعال شديد حول تيارأفكارى. وكانت تلك الخطوات تقترب . وإذا بها تقف أمام بابى . وإذا بالباب يفتح بغتة . وإذا بشارلوت واقفة أمامى .

« وكنت قد انتصبت واقفاً . ومكثنا هكذا وجهاً لوجه . كتمثالين جامدين وتبينت وجهها تعلوه آثار الانفعال من تأثير فعلتها . وعينيها تشعان بريق عجيب حتى ليخيل انهما قد اسودتا وان حدقتيهما قد اتسعتا بتأثير الانفعال حتى غشيتا بياض العينين . وقد لاحظت هذا التفصيل الدقيق لأنه غير من سحنتها وبدل ملامح

وجهها . فهذا المحيا كان بطبيعته متحفظاً هادئاً أما الآن فكان يطفر بدلائل شهوة أحد من إرادتها . ولا بد انها كانت قد لجأت إلى فراشها ثم استيقظت لأن شعورها كانت مجدولة بداخل شبكة سميكة بدل أن تكون معقوصة خلف رأسها . وكانت ترتدى معطفاً أبيض عقد عند خصرها بشريط فسترت ثناياه ما خفى من جسمها ـ وليس أدل على شدة اضطرابها وذعرها من انها لم تشعر بأنها احتذت نعليها وهى عارية القدمين ـ وليس ثمة من شك فى ان ما استولى عليها من الحزن كان شديد الوقع لا يحتمل لأنه نهض بها من فراشها ودفع بها إلى مخدعى فلم تأبه بما عسانى أن أظنه بها ولا بما قد يحملنى مظهرها على قوله لها ـ لقد آمنت بعبارات رسالتى فجاءت تسعى فريسة لهياج حاد كانت تنتفض من شدة وطأته ، وما أن مرت لحظة الذهول حتى خاطبتنى بصوت متهدج محطم :

ـ « آه ! شكراً لله . لم آت بعد فوات الوقت . . . ميتاً ! لقد ظننتك ميتاً ! . . . آه ! لشد ما أفظع ذلك . . . ولكن شيئاً من ذلك لن يكون أليس كذلك ؟ قل بأنك

ستطيعني . قل بأنك لن تعتدى على نفسك . أقسم . أقسم لى بذلك . . . »

« وتناولت يدى بين يديها بحركة المتوسل المسترجى . وكانت أصابعها باردة مثلجة . ولقد كان فى دخولها على شىء حاسم . ودليل قاطع على الحب فى لحظة كنت فيها متحمساً فلم أعد أفكر فى شىء ولم أجبها . وأذكر اننى أخذتها بين ذراعى وأنا أبكى ، وبحثت شفتاى عن شفتيها . واننى قبلتها خلال عبراتى المنهمرة من عينى أحر القبلات وأرقها وأخلصها . لشد ما أسعدها لحظة سمر وهناءة . ثم انتزعت نفسها من بين ذراعى وعلى وجهها الشارد دلائل الخجل مما أقدمت عليـــه وسمحت به .

ـــ « وصاحت : « يا لى من شقية . يجب أن أذهب ! . . . دعنى أذهب ! . . . لا تقربنى . . . »

ـــ « فأجبتها : « أنت ترين أنه يجب أن أموت ما دمت لا تحبيننى ، ما دمت ستصبحين زوجة رجل آخر ، وما دام كل شىء يفصل بيننا وإلى الأبد . »

« وتناولت القارورة السوداء على المنضدة وأريتها إياها على ظل المصباح . واستطردت :

— « إن في ربع هذه القارورة فقط ، دواء لكل هذه الآلام . . . فني خمس دقائق ينتهي كل شيء . . » ثم أضفت دون أن آتي على حركة واحدة تستطيع بها أن تقاوم : « اذهبي وشكراً على مجيئك إلى هنا . فلا ينقضي ربع ساعة إلا ويزول احساسي بما أشعر به . وبما كنت أعانيه لفقدك منذ شهور عدة . . . هيا . الوداع . لا تنتزعي مني شجاعتي . . . »

« واختلجت عند ما أضاء نور المصباح السائل الأسود ، ومدت يدها نحوي ، وانتزعت مني القارورة وهي تقول : « كلا ! كلا ! . . . » ونظرت إلى القارورة وقرأت ما كتب على بطاقتها الحمراء وارتعدت . وتجهم وجهها أكثر من ذي قبل . وعلت جبهتها الأخاديد . واهتزت شفتاها . وبدا في عينيها بريق الاحتضار واليأس ثم خاطبتني بلهجة تكاد تكون قاسية وهي تتأنى في إلقاء عباراتها كما لو كانت كلماتها تنتزع منها بقوة معذبة لا تقاوم :

— « وأنا أيضاً ، لشد ما تألمت . لقد تألمت كثيرا جدا . وقاومت كثيرا جدا . . . » واستطردت وهي تقترب مني وتتناول ذراعي : « كلا ليس وحدك ،

ليس وحدك . . . لسوف نموت معاً . فبعد الذى فعلت لم يبق أمامى غير ذلك . . . ، وجاءت بحركة من يحمل القارورة إلى شفتيه . فانتزعتها منها . واستطردت بابتسامة مجنونة : « الموت ، أجل ، الموت هنا ، إلى جانبك ، معك . . . » واقتربت أيضاً وأسندت رأسها إلى كتفى بحيث شعرت بخفيف شعرها الناعم الحريرى على وجنتى : « هكذا . . ، آه ! منذ عهد بعيد ، أنا أحبك منذ عهد بعيد جدا . إن فى وسعى الآن أن أقول لك ذلك ما دمت سأدفع ثمن هذا الاعتراف بحياتى . . . هل لك أن تصطحبنى معك . أن نرحل معاً نحن الاثنان . نحن الاثنان ؟ . . »

ــ فأجبتها : « أجل . سوياً ، سنموت سوياً . إننى أقسم لك . ولكن ليس فى الحال . آه ! أترك لى الوقت لأشعر بأنك تحبيننى . . . » والتحمت شفاهنا من جديد ولكنها فى هذه المرة كانت تبادلنى قبلاتى . وكنت أضمها إلى صدرى ، وشعرت بها تتهادى تحت معانقتى . فقدتها إلى سريرى وهى ملتصقة بى واستسلمت لى بكليتها . آه ! لشد ما أحب هاته القبلات حيث سحر النفس ينساب إلى البدن ويخلع على نيران الحواس حرارة

السمو الروحي وحيث يتلاشى الماضي والحاضر والمستقبل فلا يبقى مكان لغير الحب ، ولغير جنون الحب بما فيه من ألم ونشوة . فهذه العذراء النحيلة ، ذلك التمثال الحي الشبيه في دقة تكوينه بتماثيل تناجرا ، كانت ملكي بكل ما فيها من طهر وعفاف . كانت ملكي بغير مقاومة ، مأخوذة كالنائمة المستيقظة ، حتى لقد خيل إلى حقيقة أن تلك الساعة وهمية بتأثير سراب خداع كاذب ، لأنها فاقت جميع آمالي بل ورغبتي . وأخذت ، ونظرت على ضوء المصباح ولهب النار الخامدة الحارقة ملامحها وقد عراها النحول وشحوب وجهها الذابل وشعورها المسترسلة فاذا بها أشبه برؤيا على الرغم من ذلك البدن الغض الذي كانت تهبه لي وطفقت تخاطبني بصوت الخيال وتفيض بذكر شعورها وإحساسها نحوي وقصت على كيف أنها شغفت بي لأول نظرة دون أن أشعر أو أشك . ثم كيف تألمت من جراء أحزاني وما سررت اليها . ثم كيف تاقت نفسها إلى أن تكون صديقتي ، أن تكون صديقة تعزيني برفق وحنان . ثم الضوء المخيف الذي ألقاه اعترافي بغتة على فؤادها وانها أقسمت أن تضع المستحيل بيننا . كانت تقص على صراعها مع نفسها عند ما كانت

تتناول رسائلى وكيف كانت تجاهد حتى لا تقرأها
ولكن بغير ما جدوى ، وخطبتها التى دفعها اليأس
اليها لتقيم بيننا المستحيل ، ثم عودتها وما تلاها
وكانت تجد للتعبير عن عواطفها الدقيقة الخفية عبارات
طاهرة مشتعلة بنيران الشهوة كتلك التى تتساقط
من شاطىء الروح المجهول كما تتساقط العبرات من
أماق العيون . كانت تقول : « أما إننى لو استطعت
لما حاولت أن أمحو شيئاً من هذه الآلام لأننى
بحاجة شديدة إلى الشعور بأننى عشت بك .... »
وكانت تقول : « ستتركنى أموت قبلك فلا تقع عينى
عليك وأنت تتألم ... » وأخذت تطوقنى بشعورها
ولاح على ذلك الوجه ، الذى طالما رأيته سيد نفسه،
ذهول الشهداء ، وسرور خارق للطبيعة مع مزيج من
الحزن وحماس مشوب بتبكيت الضمير . وإذا خفت
صوتها عن الكلام وهى ملتصقة بى متفانية والتحمت
شفاهنا وتضافرت أذرعنا استطعنا أن نصغى إلى الهواء
وهو يدور ويدور حائرا حول النوافذ المغلقة . ولقد
كان ذلك القصر الراقد فى وحشة ذلك الهدوء الصامت
يمثل لنا القبر ، ذلك القبر البارد الذى كنا نندفع نحوه

ونهوى اليه بعيدا عن الحياة بحدة الحب الذى ألقى بكل منا بين ذراعى الآخر .

« هنا ، يا أستاذى العزيز ، تقع أغرب حلقة فى تلك المغامرة ، تلك التى يسميها الرجال أبشعها وأخجلها . على انه لا قيمة لمثل هذه الكلمات الجوفاء فيما بينك وبينى ، وستكون لى الشجاعة بأن أقص عليك تفاصيل ما وقع فى تلك الساعة . قلت لك بأننى كنت مخلصاً ، ومخلصاً بغير ما تردد ، عند ما اعتزمت الانتحار وإن عزمى هو الذى حملنى على اقتناء قارورة جوز القىء والكتابة إلى شارلوت . وعند ما أقبلت على ، وارتمت بين ذراعى ، وصاحت : « فلنمت سوياً ! » وأجبتها « فلنمت سوياً » كنت فى صحيتى مخلصاً وفياً . فقد تبين لى إذ ذاك أن موتنا معاً أمر بسيط طبيعى هين ! أما وإنك قد وصفت فى عدة صفحات متينة العبارة قوية الحجة كيف تتبخر الأوهام التى تثيرها فينا رغبة البدن وشهوة الجنس التى تثمل بنشوتها كما تثمل برحيق النبيذ وعصارته فانك لن تحكم على بأننى كنت وحشاً دميما إذا كنت قد شعرت بذلك البخار يتبدد ومع الرغبة وتلك النشوة تتبخر بعد زوال المتعة . ومرت بنا ساعة فى وسط تلك الليلة

الجنونية مللنا فيها المداعبة وركنا إلى السكون . أما أنا فقد حطمتنى الشهوة ، وأما هى فقد أخذت منها الانفعالات وأضنتها . فلجأنا إلى النوم نطلب فيه قسطاً من الراحة مضجعين جنباً إلى جنب . وسكتنا . ومالت شارلوت برأسها تسنده إلى صدرى وأغمضت عينيها وقد أنهكها الافراط وهدمتها الشهوة . وأننى لأذكر ذلك جيداً فقد كنت أحدق فيها . وشعرت ، ولا أدرى كيف ، بأننى انتزعت عنى ثوب تلك النفس الجامحة المجنونة الذى كنت أرتديه قبل الاستمتاع بسعادتى وارتديت ثوب تلك النفس المفكرة الفلسفية الصافية التى طالما نعمت بها وتمتعت بفضائلها والتى حولتها نزعة الرغبة وشيطان الشهوة . كنت أنظر إلى شارلوت وإذا بتلك الفكرة تساورنى وتنتابنى وأنه لا تمضى بضعة ساعات على هذا الجسم المعبود الذى تدب فيه جميع رغبات الحياة حتى يصبح جثة هامدة باردة ويموت ذلك الفم الناعم الذى مازال يختلج تحت تأثير قبلتى ، وتموت هاتان العينان المحتجبتان خلف جفونهما فى سبيل الاحتفاظ بحلمهما الجميل ، ويموت ذلك البدن الذى كشفت له عن أسرار الحب ، وتموت تلك النفس التى صارت ملكى ، تلك

النفس التى امتلأت بحنين نفسى وثملت بنشوتها ! وأخذت أردد فى ذهنى مرارا وتكراراً تلك اللفظة : « مائتة ، مائتة ، مائتة . . . » وما تمثله من انهيار ذلك الصرح الذى شيدته تحت جنح الليل البهيم ، وسقوط لامفر منه فى ظلمة الفناء وبرودة الفضاء والعدم ، فانقبض لها صدرى . كنت لا أتوهم أن دخـــول هوة العدم السحيقة أمر هين فحسب بل كنت أراه أمراً مستحباً طالما تمنيته مادامت نار الحب التعس تلتهم صدرى وتأخذ على مشاعرى . وما أن خمدت ثورته حتى تبينت لى فظاعة تلك الهوة المخيفة وجنون مافكرنا فيه وهول مانتوينا الأقدام عليه . . . واستمرت شارلوت مطبقة العينين محاولة الشعور . لشد ما كانت فتية فاتنة رقيقة وادعة مستسلمة قانعة حتى لكأنها في قبضة يدى أفعل بها ماأريد وما أشاء ! إن ما كان يبدو على وجهها المسكين من نحول واصفرار كان ينبئنى بما احتملته من عذاب وآلام منذ أيام . وهاأنذا أفكر فى قتلها ، او على الأقل فى مساعدتها على الانتحار . لقد كنا نعد العدة معاً لننتحر سوياً . . . وما أن ترددت هذه الفكرة على مخيلتى حتى تملكنى الخوف وسرت فى جسمى قشعريرة الوجل

والذعر . أو كان ذلك لأجلها ؟ أم كان لأجلى ؟ . أم كان لكلينا معاً ؟ لا أدرى . لقـــد شعرت بخوف أشلنى وأثلج أعمق أعمـاق كيانى . وتلك النفس التى تتألف منها نفسى وذلك المحور المجهول الذى ينبعث منه تيار نشاطى . وبغتة تحولت أفكارى دفعة واحدة كما تتحول أفكار المحتضرين الذين يلقون نظرة أخيرة على الحياة فتتبين لهم ، فى شبه سراب يملأه الندم، جميع الملذات التى نعموا بها أو اشتهوها . وعاودتنى رؤيا الحياة الفـكرية التى طالما تمنيتها وطالما أنـكرتها . ثم تخيلتك ياأستاذى العزيز فى حجرتك منصرفاً الى التأمل والتفكير. واتسع نطاق العقل وازدهرت منه الآفاق. وأخذت أفكر فيما إذا كان يجب على ان أضحى بدراساتى الشخصية التى أهملتها حيناً وبذلك الدماغ الذى طالما فخرت به ، وتلك الذات التى طالما غذيتها برفق ولين . فيما عسانى أن أضحى بجميع هذه الـكنوز ؟ كان يجب أن أقول : « فى سبيل العهد الذى قطعته على نفسى . . . » ولـكننى أجبت نفسى بأننى إنما أضحى بها : « أرضاء لنزعة من نزعات النفس الثائرة الجامحة . » ومع ذلك فقد كان لهذا الانتحار معناه وميزته ، ساعة كدت أجن يأساً لبعد شارلوت عنى الى

الأبد . اما الآن ؟ فنحن نحب بعضنا . وقد استمتع كل منا بصاحبه . فمن ذا الذى يمنعنا ، ونحن فتيان طليقان ، من الفرار معاً اذا قدر لنا ألا نحتمل نار الفرقة وحر الهوى بعد أن ثملنا فى تلك الليلة بنشوة الحب ورحيق الجوى ؟ على أننى ما كدت أفترض احتمال اختطاف شارلوت حتى تمثلت في مخيلتى صورة الكونت أندريه . أجل . لماذا لا أذكر هذا التفصيل ؟ لقد عرتنى هزة سرور لهذه الذكرى وأثلجت فؤادى نزعة من الزهو والكبرياء . فعدت بنظرى الى شارلوت أحدق فيها من جديد فاذا بى أشعر فى تلك المرة بأشد وأفظع عوامل الأنانية تملأ صدرى وتأخذ على مشاعرى . واستيقظت تلك الخصومة التى أثارها حسدى وضغنى على أخيها وقفزت قفزة الظافر المتحكم . وتذكرت المثل الشهير القائل بأن كل حيوان يصبح دميا مكتئباً بعد الشهوة. بيد أن الكآبة التى كنت أشعرها الآن لم تكن كتلك الكآبة التى يرمى اليها المثل . ولكنها كانت نتيجة جفاف شعورى وحنانى ورجوعى بسرعة - أشبه بسرعة تأثير المزيج الكيمائى - الى حالتى النفسية السالفة . إننى لا أعتقد أن انتقالى من شعور الى شعور ومن حالة نفسية الى

حالة نفسية أخرى قد تطلب منى أكثر من نصف ساعة .
وكنت مستمراً في النظر الى شارلوت وأنا مستسلم الى تيار هذه الأفكار فأنعم بها كما ينعم السجين وقد أطلق سراحه واستعاد حريته . وتجسمت فى مخيلتى حياة الحرية والتفكير وغمرت نفسي وسرت فى جميع كيانى وطفت على عقلى كما تطفى مياه النهر إذا فتحت فى وجهها السدود . إن حنينى الى وجود شارلوت الى جانبى ، إذ كانت بعيدة عنى ، كان قد أقام سداً منيعاً طالما تحطمت عليه أمواج مشاعرى القديمة . أما الآن وقد أزيل هذا السد فاننى عدت الى ما كنت عليه واسترجعت شخصيتى بأكملها . وكانت شارلوت قد استغرقت فى النوم رويداً رويداً فكنت أسمع أنفاسها تتصاعد موزونة خفيفة . ثم بدرت منها زفرة حارة فجائية واستيقظت وقالت لى وهى تضمنى الى صدرها كما يفعل المتشنج : « آه ! انت هنا . انت هنا لقد فقدت وعيى . . . رأيت حلماً . . . آه ! ياله من حلم ! . . . رأيت أخى وهو يسير نحوك . يا إلهى ! ياللحلم المخيف ! . . . »

« وقبلتنى من جديد ، وإذ كان فمها الى جانب فمى ، دقت الساعة . فاستمعت الى دقاتها وعدت لغاية الرابعة وقالت :

ـ الساعة الرابعة لقد أزف الوقت ... وداعا . ياحبيبي ، وداعا مرة أخرى ... »

« وعانقتني من جديد . وعلا محياها الهدوء . وعاودتها السكينة فحجبت عنها الكآبة والهياج حتى لكادت تكون باسمة . وخاطبتني بصوت هادئ رزين ولأول مرة بغير ما كلفة :

ـ « اعطني السم »

« فمكثت جامداً ولم أجبها . فاستطردت :

ـ « لعلك تخاف علي . هيا . لسوف أعرف كيف أموت ... هاته ... »

« فنهضت عن السرير دون أن أجيب . واعتدلت هي في جلستها وضمت يديها دون أن تنظر إلي . فهل كانت تصلي ؟ أم كان آخر جهاد مع تلك النفس كيما تنتزع منها حب الحياة وقد تأصلت جذوعه في فؤاد هذا الكائن ولما يبلغ العشرين ؟ سأقدم لك الحجة على مقدار ما كنت عليه من الثبات ورباطة الجأش وإنك لتجد ذلك في البيان الآتي فهو وإن كان تافهاً في ظاهره إلا إنه عظيم في معناه : أسرعت في إصلاح ما اختل من زيي لأتلافى الظهور بمظهر المسخ خلال المشادة التي كنت

أرقب وقوعها . فقد صحت عزيمتي على منع ذلك الانتحار المزدوج ، وتمالكت نفسي أيضاً وتناولت القارورة السوداء من على المائدة وأودعتها دولاباً انتزعت مفتاحه بعد ان أغلقته ، ولم تعبأ شارلوت لهذه الأعدادات ولكن خيل الى أن وقت الانتظار قد طال عليها لأنها التفتت إلى وألحت عليها بقولها :

ـ « إنني متأهبة »

« ورأت يدى فارغتين وتلاشت سيماء الذهول من محياها وعلته سحابة من الكآبة والألم . وخاطبتني بصوت أجش يمازجه العنف والقسوة .

ـ « السم . اعطنى السم . »

« ثم استطردت بصوت ضئيل خافت كأنها تخاطب نفسها وتجيب على فكرة طرأت على ذهنها : « كلا . لايمكن ذلك ... »

« فجثوت أمام السرير وتناولت يديها وصحت بها :

ـ كلا . كلا . لقد قلت صدقاً ، فهذا لا يمكن . لا أستطيع أن أتركك تموتين أمامي ولأجلى ، لاأستطيع أن أقتلك بيدى . إنني أتوسل اليك يا شارلوت ألا تطلبي مني أن أنفذ هذه الخطة المشئومة . . عند

ما اشتريت هذا السم ، كنت مجنوناً . كنت أعتقد انك لا تحبينني ، فأردت أن أقتل نفسي . آه ! يقيناً ! . أما اليوم وأنت تحبينني . أما وإنني أعلم ذلك ، أما وقد أسلمت نفسك إلى ، فكلا ، إنني لا أستطيع ، انني لا أريد . فلنعش يا حبيبتي ، فلنعش ، لاترفضي العيش . سنرحل معاً إذا رغبت . فان من حقنا أن نتزوج من بعضنا لأننا أحرار . . وإذا كنت لاتريدين ، إذا كنت تأسفين على ساعات الاستسلام . فانني سأستشهد في العذاب . ولكنني أقسم لك بأن الأمور سوف تجرى في حالتها الطبيعية كأن شيئاً من ذلك لم يحدث بتاتاً ، سوف لاأكدر عليك صفو حياتك . أما أن أساعدك على الموت ، أن أقتلك أنت . . . فكلا . كلا . كلا . . لا تسأليني ذلك مطلقاً »

« كم مضى من الوقت وأنا أخاطبها هكذا وماذا قلته لها أيضاً ؟ لا أدرى . كنت أرقب على محياها لمحة قلق أو اضطراب رقيق أو شعور امرأة أو ضعف الأنوثة أو نظرة تدل على الرضا فتكذب ما رفضه الفم . كانت صامتة شاخصة إلى وعيناها متقدتان في هذه المرة بنيران مخيفة مزعجة . وكانت قد انتشلت يديها من بين يدى

وشبكت ذراعيها على صدرها وشعورها مرسلة على كتفيها ، كما لو كانت تفزع منى . وخاطبتنى بعد أن انتهيت من توسلى اليها وفي صوتها ما يدل على الاشمئزاز والنفور :

— « وهكذا فانت لا تريد أن تبر بوعدك ؟ . . . »

— « فتمتمت : كلا . إنى لا أستطيع ... لا أستطيع كنت لا أدرك كنه ما كنت أقوله ... »

« فارتسمت على شفتيها الجميلتين المختلجتين ابتسامة احتقار مؤلم قاس وقالت :

— « آه ! ولكن خبرنى بأنك تخاف ! . . اعطنى السم ذلك العهد الذى قطعته على نفسك . اننى أرده اليك . . . سأموت وحدى . . أما أن تستدرجنى إلى هذا الشرك هكذا فانت جبان ! جبان ! جبان . »

« لماذا لم أثب تحت تلك الأهانة ، ولماذا لم أتناول ، أنا ، قارورة السم ، ولماذا لم أضعها على شفتى على مرأى منها وأنا أقول لها : « أنظرى إذا كنت جبانا . . . » ألا أنى لا أفهم السر فى ذلك كلما فكرت فيه ، كلما تذكرت الاحتقار المزرى المطبوع على ذلك المحيا . ويجب الاعتراف بأنى كنت فى تلك اللحظة خائفاً أنا الذى

سوف أسير إلى المقصلة بلا وجل ، أنا الذى أجد من نفسى الشجاعة لألتزم الصمت منذ ثلاثة شهور فأضع رأسى في كفة القدر . وما ذلك إلا لأننى أستند الآن إلى فكرة ثابتة وإرادة قوية أحكمت دراستها بتؤدة وعقل راجح حكيم ، على حين أننى كنت ، خلال تلك المشادة المؤلمة ، أتخبط بين نفسى وقواها ، بين إحساساتى الحادة ، التى طالما شعرت بها خلال هذه الشهور الأخيرة ، وإحساساتى في الساعة التى أنا فيها الآن. لجلست على الطنافس حيث كنت جاثياً كما لو كنت لاأجد القوة على الوقوف وأخذت ألوح برأسى وأنا أقول : « كلا . كلا . » أما فى هذه المرة فهى التى لم تجب وقد شاهدتها وهى تتناول شعورها الجميلة وتضمها بحركة سريعة ثم تعقدها بسرعة وتنتعل حذاءها وترتدى معطفها الأبيض . ثم جالت بنظرها تبحث عن القارورة التى تحمل البطاقة الحمراء ولما لم تجدها على المنضدة سارت نحو الباب واختفت منه دون أن تلتفت إلى بعد أن رمتنى من جديد بتلك السبة الرهيبة .

— « جبان ! جبان ! . . . »

« فمكثت فى مكانى مصعوقاً إلى جانب السرير

وكان اضطراب الفرش دليلى الوحيد على أننى لم أك حالمــــاً . وبغتــة ساورتنى الشكوك وتملكنى القلق فأثقل على صدرى . ماذا عسانى أن أفعل إذا ما عادت شارلوت إلى مخدعها ودفع بها اليأس إلى محاولة القضاء على حياتها ؛ وتأكلتنى نيران ذلك الألم الجـديد حتى لم أقو على احتمالها واندفعت بجرأة فى أروقة القصر وانحدرت على السلم حتى أدركت مخدعها وهناك ألصقت أذنى بالباب أرقب حركة أو أنيناً أو إشارة تكشف لى عن المـأساة التى تدور خلف ذلك الحاجز الخشبى الدقيق فأحطمه بضربة من كتفى وأطير إلى انقاذها . لا شىء . لم أسمع شيئاً . وبدأت الحركة تدب فى أنحاء القصر وتتصاعد من الأدوار السفلية . فقد استيقظ الخدم . فأبت إلى مخدعى مرغماً وارتديت ثيابى . وما أن أزفت الساعة السادسة حتى كنت أجوب فى الحديقة تحت نافذة الفتاة وأنا شارد الذهن . وكانت مخيلتى المضطربة قد صورت لى الفتاة وقد قفزت من النافذة . على أننى ألفيتهـــا موصدة كما وجدت أرض الحديقة تحتها منتظمة سليمة وورودها زاهرة فيحاء . كانت قد حدثتنى في تلك الليلة عن اللذة التى كانت تغمر نفسها

اذ كانت تنحنى كلما جن الظـلام ، على حافة النافذة فوق هــــذه الازهار تستنشق نـكهتها وتثمل بعبيرها وتقضى هكذا ساعات بأسهـا الطويلة فى عهد كانت تضمر لى الحب ولا تكاشفنى به . فاقتطفت أول زهرة صادفتها يدى واستنشقتها فأصابنى دوار من شـذاها حتى لقد خيـل الى اننى أتهادى ولا ألبث أن أهوى . ولكى أخادع نفسى وأغالب الاضطراب الذى كان يزداد لحظة بعد لحظة همت على وجهى في وسط المزارع ، وقد غمرها ضياء شهر نوفمبر، وقطعت شوطاً بعيداً فى سيرى حتى لقد أدركت قرية سولزت لفروا وأنا لا أشعر . بيد انى تمكنت من الأوبة إلى القصر ولما تدق الساعة الثامنة وأسرعت إلى حجرة الطعام بحجة تناول الافطار أو التظاهر بتناوله . كنت أعلم أن الخادمة تتردد في تلك اللحظة على مخدع الآنسة دى جوسا . فكان لا بد لها أن تستغيث فى الحال لو أن الفتاة أصيبت بمكروه. ولكم سرى عن نفسى انى رأيت الخادمة تعود وتتوجه الى المطبخ ثم تخرج منه وهى تحمل صينية جهزت عليها أوانى الشاى . وإذن فشارلوت لم تقتل نفسها . فعاودنى الأمل ولا بد انها قد ثابت الى رشدها بعد مرور عاصفة الغضب التى انتابتها وفكرت . وربما رأت فى

رفضي ان اموت أو أدعها تموت دليلا صادقاً على الحب؟
على انى لا ألبث أن أقف على جلية الأمر. ويكفى لذلك
أن أنتظرها فى مخدع أخيها وكان الصبي قد شفى تماما.
ومع أنه لم يخرج للنزهة بعد، إلا أنه كان يمرح مرح
الأطفال وقد دبت فيهم الروح وعاودتهم بهجة الحياة.
فقابلنى فى ذلك الصباح مهللا ومكبراً فزادتنى بشاشته
ثباتاً وضاعفت فى روح الرجاء. فلسوف تحطم تلك
البشاشة الحاجز بين أخته وبينى فليس أسرع من اتفاق
شابين واتحاد قلبيهما إذا اجتمعا عند سرير حبيب
مريض. وما أن بدت شارلوت بيضاء الوجه فى ثوب
زاهر يضاعف فى شحوبة لونها، حتى تظاهرت بدوار
لتتخلص من مداعبات لوسيان. وتبينت من عينيها
المحمومتين ماتحجر وراء جفونهما من الدموع والعبرات
فزاد أوار بريقهما اشتعالا. وأدركت إذ ذاك أننى
تسرعت فى الاعتقاد بأن التوفيق بيننا هين محتمل.
وحييتها فوجدت وسيلة تتغاضى بها عنى ولا تجيب على
تحيتى. كنت قد وقفت على ثلاثة شخصيات متباينة فعرفت
فيها المخلوق الرقيق الوديع الشفيق، والفتاة الشاردة
الحرون والعاشقة الملتهبة بنيران الشهوة إلى حد الاحتراق

باوارها . وهانذا أصادف الآن على هذا الوجه النبيل قناع الاحتقار والازدراء مجسما بما فيه من جمود وبرود. آه ! يا لتلك القاعدة التفاضلية المبتذلة التي يسمونها أنانية الامارة . لقد تحققت من فظاعتها في تلك اللحظة كما تحققت أن بعض الصمت ما هو أفعل في المرء من سيف الجلاد . ولقد كان لهذه الانفعالات النفسية تأثير شديد فلم أستطع معه الاستسلام والاذعان . فتربصت لها بعد ظهر ذلك اليوم عند السلم لأحظى منها بكلمة ، وإن كانت سبة جديدة ، واقتربت منها إذ كانت تتأهب للدخول إلى حجرتها. ولكنها أزاحتني عن طريقها بحركة إباء وكبرياء ورمتني بتلك العبارة «ما عدت أعرفك...» بلهجة قاسية وشفتين مرتعشتين ونظرات تنم عما يخالج ذلك الصدر من الكراهية والاحتقار .فلم أجد عبارة أتقدم بها إليها وكلمة أقولها لها . لقد حاكمتني وحكمت على .

« أجل حكمت على . وكان لابد أن يكون هذا الحكم قاسياً شديد الوقع على نفسي بقدر ما كنت أستحقه . كانت تحتقرني لخوفي من الموت . وهذا صحيح . فقد شعرت بتلك الرعدة التي يشعر بها الجبان ، إذ وقفت عند حافة تلك الهوة السحيقة المدلهمة بينما كنت أنظر

اليها وهى تسند رأسها الى صدرى . لقد كان حق على أن أدلل لنفسى على أن هذا الخوف وحده ما كان ليردنى عن عزمى أو يوقف يدى أمام انتحارنا المزدوج لولم ينضم الى هـذا الخوف ما أبدته هى من الشفقة وما كنت أطمع به وأطمح اليه كمفكر ، ولكن سيان. فقد استسلمت لى بشرط ، وإننى على أساس هذا الشرط أجبت في بادىء الأمر « نعم » ثم بعد ذلك أجبت «لا» . إذن ! فما تسميه ، يا أستاذى العزيز ، أنانية الذكر ، لابد أن يكون من القوة بحيث أن مجرد الاستمتاع بامرأة استمتاعا كاملا والتسلط على بدنها ونفسها ومشاعرها وإحساساتها ، وإشباع تلك الأنانية، كان كافياً ليخفف من حدة الأهانة والكراهية التى رمتنى بها شارلوت فلم أتأثر بها بمثل ما تأثرت به عقب اعترافى الأول ، وافضائى لها بحبى ، وهربها بعيداً عن القصر ، وخطبتها . أنها تحتقرنى ولكننى قـد امتلكتها ، وضممتها بين ، ذراعى هاتين الذراعين وكنت أول من ضمها . أجل لقد تألمت ألماً فظيعاً قاسياً ، بين تلك الليلة التى مرت على وأنا أهذى هذيان المحموم ، وبين رحيلى النهائى عن البيت . ومع ذلك فلم يكن فى هـذا الألم شىء من اليأس المؤلم الذى

شعرت به وقهرته فى ذلك الصيف، أو الاستسلام الكلى لليأس . لقد كنت أحتفظ في قرارة نفسى بشيء من الغبطة، لاأستطيع أن أقول سعادة، ولكنه كان كافياً لاقاوم في وسط تلك النوبة . وعند ما كانت شارلوت تمر بى دون أن تلق على نظرة، كما لو كنت شيئاً زرياً أهمله أحد الخدم، كنت أتأملها وهى تصعد الدرج وتسير في الرواق ثم أتخيلها في ذاكرتى محلولة الشعور عارية القدمين وفها ملتصق بفمى، وقد استسلمت إلى بكل جوارحها وبدنها ذلك الاستسلام العذرى الطاهر الذى لن تستطيع أبداً أبداً أن تمنحه لأى شخص آخر . وقد آلمنى، أشد ايلاما وأفظعه، أن تكون تلك الليلة قصيرة فتنقضى سريعاً وأن تكون وحيدة فلا تعقبها ليلة أخرى. ولو أتيح لى أن أستمتع بساعة أخرى من تلك السعادة فربما قبلت أن أجدد الميثاق المشئوم واحرص تمام الحرص على تنفيذه . على أنه ليس أصح وأصدق من تمتعى بتلك السعادة وأن مرور اليقين وحده فى مخيلتى كان كافياً لانقاذى من طيش الماضى . ومع ذلك كله فهل انتهى ذلك الحب وهلا يبعث يوما ؟

« ولقد برهنت لى الآنسة دى جوسا، بتصرفها معى

مثل هذا التصرف ، على حب عظيم وشهوة عميقة . فهل يمكن ألا يتبقى منه أثر فى هـذا الفؤاد الخيالى ؟ وإننى لأدرك اليوم ، على ضوء الفـاجعة التى انتهت بها تلك الواقعة الغرامية المشئومة ، أن هـذا الخلق الخيالى هو الذى يحول فى الواقع دون عودة هذا القلب المتعالى المختال . لم تسلم لحظة واحدة بفكرة أنها تستطيع أن تكون زوجتى وأن تنشىء معى أسرة . وأنها لم تتمكن من فعل مافعلته إلا تحت تأثير نوبة هذيان قد انتزعتها من الحياة وانتزعت منها الحياة . لقد أحبت فىّ سراباً وهمياً ، وكائناً يغايرنى ويختلف عنى تمام . وما كادت تتجلى لها حقيقة طبيعتى وتأخذ مكانها من ذلك الخيال الوهمى، حتى أخـذت تكرهنى وتمقتنى بقوة ما كانت تشعر به من حب قديم نحوى . وا أسفاه ! فاننى على الرغم من أدعائى الألمام بفلسفة النفس ، لم أر تطور تلك النفس فى ذاك الحين . ولم أشتبه كذلك في أنها سوف تبحث ، بأى ثمن ، عن الوسيلة للوقوف على سريرتى والتوغل فىفلوات نفسى . وأن اشمئزازها الحـالى الذى أضلها سـيدفع بها الى معاملتى كما يعامل القضاة طغمة المتهمين . وأنها كانت تتوق الى الاطلاع على أوراقى .

نها لن تتقهقر فى سبيل ذلك أمام أى اعتبار . بل ولم أستطع أن أحذر أنها ليست من الفتيات اللواتى يحتملن الحياة مع العار الذى تمثله فى نظرها التضحية بطهرها وعفافها في مثل هذه الظروف. ولذلك لم أفكر في التخلص من قارورة السم التى أبيتها عليها . أن توغلى فى أساليب التحليل وإيقاف تفكيرى عليها كان يحول بينى وبين النظر الى هذه الأمور بمنظار الحقيقة ويستر عنى مافى تصرفاتى من كذب ورياء . كان لايجب على أن أفكر في ذلك العهد وإنما كان يجب على أن أنظر . ولكننى لم أفعل ذلك فقد خدعنى تصورى للأمور وتعقلى للأشياء . وحاولت ، مدفوعاً باعتقادى أن شارلوت مازالت تحبنى على الرغم من احتقارها ، أن أذكى نيران هذا الحب بأبسط الوسائل وإن كانت فى تلك اللحظة غير ناجعة . فحررت لها . ولكننى ألفيت جوابى على مكتبى فى ذات اليوم ولم يفض غلافه . فقصدت الى باب حجرتها ليلا وناديتها . ولكن الباب ظل موصداً ولم يجب على صوتى أحد . وأردت أن أقترب منها من جديد . فلم تعرنى نظرة وأقصتنى عنها بحركة سريعة آمرة من يدها، فكانت أوقع فى نفسى من المرة الأولى .

« ولقد كانت حسرتى من تلك الأهانة المستمرة أشد من لواعج الرغبة وقد عاد أوارها يلتهم صدرى ويثير حواسى . وإنى لأذكر أننى قد بكيت فى مساء اليوم الذى صدتنى فيه عنها وأن بكائى قد طال، وأننى قدعزمت على خطة حاسمة . فقد عاودنى بعض نشاطى السابق لأن ما اعتزمت فعله هو مايجب عليه أن أفعله . وأرى من واجبى أن أفضى بالحقيقة كلها فأضيف بأن النبأ الذى سرى فى القصر عن قرب مجىء السيد دى بلان والكونت أندريه قد محا كل أثر للترددعندى لو قدر لى أن أتردد. لشد ما أفظع وجود هـــذين الاثنين بين أطلال حبى وخرائب كبريائى وزهوى . كلا . كنت لا أريد بل لا أستطيع أن أحتمله . وهاك ما اعتزمت فعله . كان الماركيز قدرجانى أن أطيل إقامتى فى القصر الى الخامس عشر من نوفمبر . وكنا فى الثالث منه . فأعلنت فى صبيحة هذا اليوم الثالث المشئوم من نوفمبر أننى استلمت خطاباً من أمى أثار قلق . وفى خلال هذا النهار أبلغت أننى استلمت برقية زاد مافيها من الأنباء قلق وضاعف اضطرابى . فتقدمت الى السيد دى جوسا واستأذنته في الرحيل الى كليرمون فى الصباح المبكر من اليوم التالى

ورجوت ، إذا أنا لم أعد ، أن تضم حاجاتى التى تركتها بداخل صندوق وترسل إلى . وتناولت هذا الحديث أمام شارلوت وأنا على ثقة من أنها سوف تدرك حقيقة ما أرمى اليه : « أنه ذاهب الى غير عودة » وكنت أتوقع أن نبأ هذا الفراق النهائى سوف يحرك مكامن شعورها. وأردت أن أستغل فى الحال هذا الانفعال النفسى فى الحال ودفعتنى جرأتى على أن أبعث اليها بهذه العبارة على طرس جديدة : « أما وقد اعتزمت أن أفارقك الى الأبد فان من حقى أن أسألك مقابلة أخيرة . سأحضر اليك فى الساعة الحادية عشرة » . وكان يجب ألا تعيد إلى تلك الرقعة دون أن تقرأها وهذا ماحملنى على أن أضعها منشورة على خوان صغير الى جانب السرير مغامراً بنفسى وبشارلوت لو قدر للخادمة أن تلقى عليها نظرة ، آه ! لشد ما كان قلبى ينبض بسرعة إذ وافت الساعة الحادية عشرة وإذ يممت شطر بابها وقبضت بيدى على « أكرته » ، ألم يوضع المزلاج خلف الباب فهى إذن فى انتظارى . وأدركت لأول وهلة أن الصراع بيننا سوف يكون عنيفا كما أدركت من ملامح وجهها أنها لم تسمح لى بأن أذهب اليها لتصفح عنى . كانت

ترتدى ثوباً من الجوخ القاتم تعودت أن ترتديه مساء .
وأذكر جيداً أننى لم أر عينيها ونظراتها بتاتاً فى مثل
ما كانت عليه من جمود وجفاء .

« وما كدت أوصد الباب خلفى وأقف اليه جامداً
حتى بادرتنى بقولها : « سيدى . إننى أجهل ماتبغى أن
تقوله ولا أريد أن أعرفه . . . فما تركتك تدخل لأصغى
اليك . وإنى لأقسم لك - وانا أعرف كيف أحافظ
على قسمى - أنك لو خطوت خطوة واحدة الى الأمام
أو حاولت أن تكلمنى فاننى أنادى وآمر بطردك خارجاً
كاللص ... »

« وكانت ، وهى تنطق بهذه الكلمات ، قد وضعت
أصبعها على زر الجرس الكهربائى الموضوع بجانب
سريرها . كل شىء فيها ، جبينها وفمها وحركاتها ورنة
صوتها ، كان يعبر عن عزيمة صادقة . فجمدت فى مكانى
ولم أنبس ببنت شفة . واستطردت :

— « لقد حملتنى ياسيدى على ارتكاب ثلاثة أوزار
معيبة فاحشة . . . أما الأول فعذرى عنه اننى لم أتوهم
أنك كنت قادراً على ارتكاب نقيصة كالتى ارتكبتها ... »
وهنا تمتمت كما لو كانت تخاطب نفسها : « بيد أنى

ساعرف كيف أكفر عنها . » والثانى ؟ «أننى لا أحاول أن أجد له عذراً . . . » وامتقع لونها وعلته سحابة من الخجل : «لم أستطع أن أحتمل فكرة أقدامك على مافعلت . وأردت أن أتحقق مما كنت عليه . أردت أن أعرف ما انطوت عليه نفسك . . . كنت قد أخبرتنى بأنك تدون مذكراتك يومياً ... فأردت أن أقرأها... وقد قرأتها . . . لقد ولجت الى حجرتك بينما أنت بعيد عنها. وبحثت فى أوراقك ، واغتصبت قفل الكراسة ... أجل. أنا فعلت ذلك ! . . . ولشد ما كان أفظع جزائى على مافعلت ، إذ قرأت فى تلك الصفحات ماقرأت .. » والثالث ؟ «انى إذ أطلعك عليه أسدد لك ماحملتنى من دين باطلاعى على مادونت فى مذكراتك . الثالث ؟ — وترددت قليلا ثم استطردت — : «هوان الغيظ الذى تملكنى قد حملنى على الكتابة الى أخى . أنه يعرف كل شىء . »

— « فصحت : آه ! أنت هالكة . . . »

— « فقاطعتنى وهى تضع يدها من جديد على زر الجرس : « أنت تعرف ما أقسمت به . صه . . . لا أستطيع أن أهلك أكثر مما هلكت . » واستمرت : ولن يستطيع إنسان أن يفعل شيئاً سواء أكان لى أو على .

سيعرف أخي ذلك أيضاً وسيقف على ما عزمت عليه .
ستصله الرسالة صباح الغد . كان من واجبي أن أنبهك
مادمت متعلقاً بحياتك . والآن . أخرج . . . »

ـ « فتمتمت متوسلا : « شارلوت ! »

ـ فأجابتني وهي تنظر الى الساعة : « لئن مرت
دقيقة ولم تخرج فانني أنادي . »

الخاتمة

— ٧ —

« وأطعت ! وما أن أزفت الساعة السادسة من صباح اليوم التالى حتى هجرت القصر وأنا فريسة لأفظع المشاعر وأشأمها . وقد حاولت عبثاً أن أقنع نفسى بأن تلك المشادة ستقف عند ذلك الحد فلا تعقبها نتيجة سيئة ، وأن الكونت أندريه سيصل فى الوقت المناسب ليحول بينها وبين عزيمة يائسة ، وأنها ستتردد فى آخر لحظة ، أو أن حدثاً مجهولا سيقع . . . هل أدرى ماذا أيضاً ؟ أما أن أهرب أو أتقهقر أمام انتقام الأخ فذلك مالم

أفكر فيه لحظة . لقد استعضت فى هـذه المرة حزمى لأننى كنت متشبعاً بفكرة سامية كانت تساورنى وتشد أزرى، وهى ألا أترك لأى امرىء مجالا لأهانتى . أجل، فلئن كانت قد مرت بى، أمام فتاة شاردة العقل بتأثير الحب ، ساعة ضعف وتردد فلن تمر بى ساعة غيرها أمام تهديد رجل . ووصلت الى كليرمون تتأكلنى عوامل القلق والاضطراب بيد أنهـا لم تطل إذ وقفت على نبأ انتحار الآنسة دى جوسا ثم ألقى القبض على عقب ذلك فى الحال . وما أن سمعت العبارات الأولى التى وجهها إلى قاضى التحقيق حتى تمكنت من أن أتبين جميع تفاصيل ذلك الانتحار : أخذت شارلوت من زجاجة السم التى اشتريتها مقداراً رأت أنه كاف للقضاء عليها . وفعلت ذلك فى ذات اليوم الذى أطلعت فيه على كراسة مذكراتى. وقد تبينت فيما بعد أن قفل تلك الكراسة قد كسر فعلا ولم أتبين ذلك قبلا لانشغال بالى بما هو أولى من تلك المذكرات العقيمة . ورأت شارلوت ألا تثير شكوكى فأبدلت كمية جوز القىء التى استولت عليها خفية بمثلها من الماء . وألقت القارورة التى استعملتها فى ذلك من النافذة اذ أبت أن يقف أبوها أو أمها على نبأ انتحارها إلا

من أخيها . أما أنا ، أنا الذى كنت أعرف كل الحقيقة عن تلك المأساة الرهيبة ، أنا الذى كان فى مقدورى أن أقدم يومياتى كقرينة على براءتى ، فقد أتلفت تلك اليوميات عقب مغادرتى دار النيابة عند استجوابى لأول مرة . فقد رفضت أن أتكلم . أن أدافع عن نفسى بسبب ذلك الأخ .
لقد قلت لك أننى قد شربت كأس الذل حتى الثمالة فلم أعد أحتمل أكثر من ذلك ولا أريده أن ذلك الرجل الذى طالما حسدته منذ أول يوم ، ذلك الرجل الذى يمثل الى الآن تلك المائتة ، أنه يعرف الحقيقة كاملة هو أيضاً . ولاشك فى أنه يعدنى أدنأ المخلوقات . بيد أنى لا أريد أن يجعل لنفسه حق احتقارى فليس له مثل هذا الحق فكلانا نلزم الصمت . ولكن إذا أنا لزمت الصمت فمعناه أننى أجازف برأسى لأنقذ شرف المائتة . أما اذا هو لزم الصمت فمعناه أنه يضحى ببرىء فى سبيل ذلك الشرف . فأينا ، نحن الاثنين ، هو الشجاع فى تلك اللحظة؟ أنا الذى آبى أن أدافع عن نفسى محتمياً بجثة شارلوت ، أم هو الذى قرأ الرسالة التى أودعتها نبأ انتحارها ويحتفظ بها لا لشىء إلا لينتقم من عشيق أخته بأن يخلو به ليحكم عليه باعتبار انه القاتل ؟ أينا الشريف؟
الا أننى لأمحو عارما استولى على من الضعف فى تلك الليلة

التى استسلمت شارلوت إلى فيها - لو صح أن هناك عاراً - اذ أتوقف عن الدفاع عن نفسى، وإننى لأشعر بنزعة كبرياء، وهى خير انتقام لما احتملته فى هذه الأيام الرهيبة، وإذ لا أضع حداً لتلك الآلام بأن الجأ إلى الموت. يجب أن يمضى الكونت أندريه فى طريق نذالته حتى النهاية. فاذا حكم على، وهو يعلم أننى برىء، ويحمل البرهان على براءتى ويظل صامتاً إذن أكون قد تساويت وأسرة جوساراندون ولم يعد لها ما تأخذنى به.

« على أننى أفضيت اليك بكل شىء يا أستاذى الجليل، وكشفت لك عن أعمق أعماق نفسى وكيانى. وانى، إذ أودع هذا السر شرفك، لواثق بمن لجأت اليه بحيث لا أحتاج الى التمسك بوعد خولت لنفسى الحق بأن أطالبك به فى الصفحة الأولى من هذه الكراسة. بيد أن هذا الصمت يخنقنى. إننى أختنق تحت عبء ذلك الحمل الذى أشعر به فوق صدرى ويجدر بى أن أصارحك الحقيقة بكلمة. وأن يكون لتلك الكلمة من الوقع ما لها من التأثير على شعورى. إننى أختنق من تأنيب الضمير. اننى لفى حاجة الى من يفهمنى ويعزينى ويحبنى، الى صوت يرثى لى ويسمعنى عبارات تبدد الأشباح. عندما شرعت فى تدوين هذه الصفحات وضعت قائمة بالأسئلة

التى فكرت فى توجيهها اليك فى النهاية . ولقد عللت نفسى بأننى سأتمكن من سرد قصتى كما تبسط أنت أبحاثك في علم النفس فى مؤلفاتك التى قرأتها المرة تلو المرة ولكننى لا أجد ما أقوله لك إلا كلمة اليأس ، من الاعماق ! . أكتب لى ياأستاذى العزيز وأرشدنى. شدد عزيمتى في المذهب الذى أعتنقه ومازلت أتشيع له ، فى تلك العقيدة ، عقيدة الضرورة العامة التى تنادى بأن أبغض أعمالنا وأبشعها - حتى عملية الاغراء المخيفة التى ارتكبتها وحتى ضعفى وترددى أمام تنفيذ الاتفاق على الموت - مرتبطة بمجموعة شرائع هذا الكون العظيم . قل لى بأننى لست مسخاً دميا ، وأن مثل هذا النوع لايوجد بين الرجال ، وانك ستكون هنا ، إذا أنا اجتزت هذه النوبة السامية ظافراً ، وأنك سترضى بى مريداً وصديقاً . فلو أنك كنت طبيباً وجاءك مريض ليكشف لك عن جروحه، لحملتك الانسانية على تضميد تلك الجروح . وأنك لطبيب ، وطبيب عظيم للنفوس . وأن نفسى مصابة بجرح عميق دامى . فاننى أتوسل اليك هلا اسمعتنى كلمة ترفه عن تلك النفس ، كلمة واحدة فتكون الى الأبد مباركاً من المخلص .

« روبير جرسلو »

الاضطراب الفكرى

— ٧ —

« مضى شهر على اليوم الذى حملت فيه والدة روبير جرسلو إلى ادريان سيكست فى صومعته بشارع جى دى لابروس تلك المذكرة التى خطتها يد ابنها . وتردد الفيلسوف طويلا قبل الأقدام على قراءتها . وظل طوال هذه الأسابيع الأربعة التى تلت المذكرة حليفاً للقلق وفريسة للاضطراب والأرق حتى لم يخف أمره على المحيطين به والخدم . وادى ذلك إلى إلى الاجتماعات والمناقشات بين الآنسة ترابينار وآل

كاربونيه فى تلك الحجرة المليئة برائحة الجلد . فكانوا يتشاورون فيما بينهم ويتناقشون فى أسباب ذلك الانقلاب الذى طرأ على عادات هذا المحلل النفسى الشهير ، وتحوله الفجائى عن نظام روحاته وغدواته الدقيق الذى جعل من سيكست عداداً ناطقاً حياً لسكان حى حديقة النباتات فأثار انقلابه دهشتهم وقلقهم . وكان الفيلسوف منذ زيارة السيدة جرسلو يسير ذهاباً وإياباً كالرجل الثائر الذى لا يستطيع أن يستقر فى مكان ، فلا يكاد يخرج للنزهة حتى يفكر في العودة، وما أن يعود حتى لا يستطيع الاستقرار فى حجرته . أما فى الطريق فبدل أن يسير بخطوات منتظمة تدل على جهاز عصبى موزون ، فانه كان يسرع ويقف ويأتى بحركات كما لو كان يتشاجر مع نفسه . وتجلت تلك الحالة العصبية بحركات أكثر غرابة . فقد حكت الآنسة ترايينار إلى كاربونيه وزوجته أن سيدها لم يعد يأوى إلى مضجعه قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً .

— وأكدت الفتاة الطيبة : « وليس ذلك ليشتغل لأنه يمشى ... يمشى ... ففى المرة الأولى ظننته مريضاً . « فتركت فراشى وقصدته لأسأله عما إذا كان في حاجة إلى

شراب ساخن ... وقد ادهشنى أن هذا الرجل المؤدب الوديع الذى لا يشك أحد فى أنه على درجة كبيرة من العلم ، قد طردنى كما يفعل الغليظ الفظ ... »

ـ فاجابتها الأم كاربونيه : « وأنا التى رأيته ، إذ كنت عائدة من زيارة مندوقت ، جالسا على المقهى!... لم أصدق عينى... كان هناك خلف الزجاج يطالع الصحف. ولو أننى كنت لا أعرفه لخفت منه ... كان يجب النظر إلى ذلك الوجه وذلك الجبين المجعد وذلك الفم ... »

ـ فصاحت الآنسة ترابينار : « على المقهى ؟ . . . منذ نيف وستة عشر عاماً وأنا فى خدمته فلم أره قط يفتح صحيفة مرة واحدة ... »

ـ فاستنتج الأب كاربونيه قائلا : « ان ذلك الرجل يشعر بغم يسمم دمه . . . والحزن ، كما تعلمين يا آنسة ماريت ، يشبه ، على حد ما يقولون ، برميل ادلاييد . فليس لهذا البرميل قاع ... أما عن السبب فقد بدأ بقصة القاضى وزيارة المرأة المتشحة بالسواد ... وهل تعرفان بماذا أفكر؟ ربما كان له ولد ، في مكان ما ، وربما ساءت أحوال هذا الولد . . . »

ـ فصاحت ماريت يا يسوع الله ! ولد ، له هو ؟

ـ فاستطرد البواب وهو يغمز بعينه خلف منظاره :
« ولم لا ؟ أولم يكن شأنه فى صباه شأن غيره من الشبان ؟..»

والتفت يخاطب ديكه فرديناند الذى كان يرود حوله ويصيح صيحات قصيرة ويهمهم ، ويلتقط الأزرار ويهز عرفه : « وأنت أيضاً أيها اللئيم تريد أن تفعل ما تشاء....»

وكأن الديك فرديناند قد أدرك ما يقوله له صاحبه فقفز واستقر على كتفه بينما تناول صاحبه مطرقته وعاد إلى عمله يسمر نعلا وهو يتمتم

ـ « أهو حيوان ؟ أم هو انسان ؟ . . . كلا . . الا خبرونى فانى أسألكم ... »

ثم أخذ يقص على الآنسة ترابينار المذعورة ما يشاع عن سيكست المسكين بين سكان الدور الأرضية فى شارع لينه مذ أن طرأ التغيير على عاداته . فقد اتفقت جميع ألسنة السوء على تعليل قلق الفيلسوف واضطرابه بأنه نتيجة لدعوة القاضى له . وقالت الغسالة أنها علمت من أحد سكان مسقط رأس المسيو سيكست أن ثروته ناشئة عن وديعة بددها أبوه وكان عليه أن يردها . وحكى القصاب لمن أراد أن يصغى اليه ان الفيلسوف متزوج وأن زوجته جاءت اليه فقامت بينهما مشادة قطيعة

وتوعدت بأنها ستقاضيه . وأشار الفحام بأن لهذا الرجل الجليل شقيقاً مجرماً سفاحا أعدم تحت اسم كامبي وأن هذا الاسم المستعار أثار حديث الناس وقتاطويلا .

– وتمتمت الآنسة ترابنيار : « لن أتردد عليهم بعد الآن . فهل يمكن ، يا إلهي ، أن يتصور المرء مثل هذه الفظائع ؟

وتركت الفتاة المسكينة حجرة البواب يائسة متألمة. فهذه المخلوقة الكبيرة الحجم الطويلة القامة القوية البنية كالثور على الرغم من تجاوزها الخامسة والخمسين ظلت قروية تنتعل حذاء ضخما وجواربا من الصوف الأزرق حاكتها بنفسها وعلى رأسها قبعة بشكل قلنسوة صغيرة مربوطة ربطا محكما إلى شعرها . وكانت إلى جانب ذلك تشعر نحو سيدها بعطف شديد يمتزج بطبيعتها الصريحة الساذجة . لقد كانت تحترم فيه «السيد» والرجل المثقف الذى كانت تعرف أن الصحف تتناوله بالحديث . وتحب هذا الصبى الشيخ الذى لا يراجع حسابها ويتركها سيدة متصرفة في البيت - وهذاما يضمن لها موردا تستعين به فى شيخوختها . وفى النهاية كانت وهى القوية البدينة ، تحمى هذا الكائن الضعيف البنية

الهزيل الساذج حتى ليخدعه طفل فى العاشرة من عمره .
ولذلك فان هذه الأراجيف والأشاعات قد آلمتها فى كبريائها كما آلمها تحول طباع العالم فجأة كما جعل التفاهم بينهما عسيرا . لقد كانت ، بدافع من العطف الحقيقى ، قلقة من أن سيدها يكاد لا يأكل بتاتا وقل أن يذوق طعم الكرى . ثم انها كانت تراه مكتئبا مريضا ولا تتمكن من أن تبعث السرور الى نفسه كما انها لم تحذر سبب هذه السويداء المتفاقمة ولا سبب هذا الارتباك والقلق . ولشد ما كانت دهشتها عظيمة وقد جاءها المسيو سيكست فى نحو الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم من أيام شهر مارس بعد أن تناول طعام غدائه خارجا وقال لها .

ــ هل الحقيبة فى حالة جيدة يا ماريبت ؟

ــ فأجابته الخادمة : « لا أدرى يا سيدى . ان سيدى لم يستعملها منذ دخولى الى هذا البيت . »

ــ فأجابها الفيلسوف : « جيئينى بها »

فأطاعت الفتاة وقصدت الى حجرة خصصت للمهملات . وعادت تحمل حقيبة من الجلد علاها الغبار وملأ الصدأ أقفالها وضاعت مفاتيحها .

ـ واستطرد المسيو سيكست قوله . حسن جدا عليك أن تشترى حقيبة مماثلة فى الحال وتضعى فيها ما يلزم للسفر .

ـ فسألت الآنسة ترابينار : « هل يسافر سيدى ؟ »

ـ فأجابها الفيلسوف : « أجل لبضعة أيام . »

ـ فألحت الخادمة : « ولكن سيدى لا يملك شيئاً مما يحتاج اليه . لا يستطيع سيدى أن يسافر هكذا بلا غطاء للسفر ولا . . »

ـ فقاطعها الفيلسوف : « اشترى ما يلزم واسرعى سأستقل القطار فى الساعة التاسعة . »

ـ وهل يجب أن أرافق سيدى ؟ . . . »

ـ فأجابها سيكست : « كلا . ليس ما يدعو إلى ذلك . هيا . لم يعد لديك غير الوقت الكافي . . . »

ونزلت ماريت وقصت على كاربونيه فى حجرته هذا النبأ الجديد الذى يكاد لا يصدق ويعد من المستحيلات في هذا الركن الصغير من العالم ولا يقل غرابة عما لو أعلن الفيلسوف نبأ زواجه . فقال كاربونيه :

ـ عسى ألا تساوره فكرة القضاء على نفسه . . .

ـ واستطردت الخادمة حديثها متابعة فكرتها :

« ليته يسمح لى فقط بمرافقته !... على أنى لابد أن الحق به ولو تحملت نفقات السفر من جيبى ... »

الا أن تلك الصرخة ، إلى جانب ما هى عليه من سمو لصدورها من مخلوق أتت من بلدة بؤجر فى مقاطعة الأرديش لتكون خادماً وتسرف فى الاقتصاد حتى تبلغ حد التقتير فتستعين بثياب العالم العتيقة لتجعل منها معطفاً لنفسها ، تلك الصرخة السامية لخير من جميع التحاليل للتدليل على نوع القلق الذى يساور قلوب هذه الفئة من صغار الناس حيال ما طرأ من التحول والانقلاب على هذا الرجل الذى كانت تتقاذفه أعاصير نوبة أخلاقية مخيفة . ولقد خيل إليه أن ليس هناك من يراقبه فاستسلم إلى دافع نفسه وتجلت فى حركاته واشاراته وملامح وجهه مقدار ما يعانيه وفظاعته . فهو منذ ماتت أمه لم يحتمل مثل تلك الساعات القاسية لاسيما وأن الألم الذى أصابه حينذاك كان محصوراً فى دائرة الشعور بالنسبة للفرقة المحتومة ، فى حين أن قراءة مذكرة روبير جرسلو قد أصابت الفيلسوف فى صميم كيانه وفى أعماق تلك الحياة العقلية وهى كل آماله وسر وجوده . ففى اللحظة التى أمر ماريت أن تعد حقيبته للسفر كان فى

أروع ساعات التأثر كما كان فى تلك الليلة التى تصفح
فيها كراسة الاعترافات . وبدأ هذا الذعر المذهول ولما
يقرأ إلا الصفحات الأولى من تلك القصة التى عنيت
بدرس حالة أثيمة فى نفس قلقة مضطربة وتجلت فيه عوامل
الكبر والخجل والسفه وسلامة النية فى العار والعظمة
وما كاد هذا العالم النفسى أن يصطدم بعبارة روبير
جرسلو التى يصرح بها بأنه يمت اليه بصلة وثيقة ورابطة
متينة حتى اسقط فى روعه وارتعدت فرائصه . وكذلك
كان يرتعد وجلا كلما وقع نظره في سياق ذلك التحليل
العجيب على اسمه أو على العبارات المقتطفة من مؤلفاته
التى كان يوردها هذا الشاب البغيض المرذول فى معرض
حديثه على سبيل الاستشهاد به والتدليل على ما يخوله
لنفسه من الحق فى الانتماء اليه والادعاء بأنه تلميذه .
وراعه مافى هذه المذكرة من بشاعة، وسحره ما انطوت
عليه من شناعة فأثارت فضوله وحملته على مطالعتها حتى
النهاية بلا توقف والالمام بتاريخ حياة هذا الشاب، تلك
الحياة التى اتصلت بأفكاره هو ، وهى الأفكار التى طالما
اعتز بها وامتزجت بعلمه ، ذلك العلم الذى طالما أحبه
وفخر به ، ولكنه دنسها بأعمال مخجلة دنيئة . آه ! ليتها

قصرت على هذا الاختلاط ! ولكن لا . فتلك الأفكار وذلك العلم يتذرع بها متهم ريوم ويدلى بها كمبرر على اعتبار أنهـا السبب فى أفظع وأدنأ ما يمكن أن يمليه الانحطاط وفساد الأخلاق ! وكان سيكست كلما تغلغل بين صفحات تلك المذكرة وتعمق فى مطالعة سطورها خيل اليه أن جزءاً من شخصيته قد تلوث وفسد وتعفن لما تبينه في تلك السطور من الأمور المرتبطة بذاته ، تلك الذات التى تصورها ذلك الشاب على عكس حقيقتها وأحاطها بسياج من أدنأ المشاعر وأبغضها إلى نفسه . لأن ذلك الفيلسوف الشهير مازال محتفظا بعفة الضمير محافظا على قدسيته ، ثم انه كان ، إلى جانب ذلك ، يخفى قلب رجل سليم النية طيب السريرة وراء العالم الثائر والمفكر الفوضوى الجرىء . ففى هذا الجو المسمم وتحت تأثير هذا الضمير الحى والنزاهة التى لا تشوبها شائبة شعر أستاذ هذا الشاب الساقط والرائد السافل بألياف صدره تتمزق . كل مافي تلك الواقعة ، فمن ذلك الاغراء الذى أدى إلى أدنأ الجرائم إلى تلك الخيانة الدنيئة المدلهمة ، إلى ذلك الانتحار ، كل تلك العوامل قد كشفت له عن الحقيقـة وتجلت له عن تلك الرؤيا المروعـة المفزعة :

رؤيا فكرته وهى تتغلغل في الرؤوس وتعبث فى القلوب فساداً بينما هو لم يفكر فى مثل ذلك بتاتا وعاش فى منتهى الزهد والتقشف وفي وسط جو هادىء من الطهر والكمال. ان مغامرة روبير جرسلو قد كشفت له عن اشتراك مؤلفاته فى كبرياء شنيع وشهوة بشعة مرذولة بينما هو لم يفكر ولم يعمل مطلقاً إلا ليخدم علم النفس بما في استطاعة كل عامل مخلص أمين أن يقدمه من الابحاث التى يظنها صالحة قيمة وفى جو ملىء بأقسى ضروب الزهد وأشد مبادىء التقشف والنسك حتى لا يجعل لخصوم مذاهبه مجالا لمحاربته ولا التذرع بأساليب معيشته لمهاجمة مبادئه. ولقد كان هذا التأثير عنيفاً بقدر ما كان فجائياً. إن الطبيب المخلص لمهنته ليشعر بمثل تلك الكآبة والألم لو أنه اكتشف دواء جديداً فوضع نظريته ثم علم بأن أحد مساعديه حاول تطبيق تلك النظرية واستعمل ذلك الدواء فأدى ذلك الى تعريض كل من فى حجرة المستشفى من المرضى لخطر الموت . إن ارتكاب الشر مع العلم بارتكابه وابتغائه لأمر كريه مؤلم على كل رجل سما ضميره على أعماله. أما أن يضحى الانسان بثلاثين عاما فى عمل وأن يعتقد أن هذا العمل نافع مفيد فيتابعه باخلاص

وبساطة ويدفع عن نفسه تهمة الالحاد والزندقة التي يرميه بها أعداء مغرضون وخصوم دفعتهم الشهوة وأعمتهم الضغينة وأن يكره نفسه على الأخذ بما يسلم به عقله وعدم الشك مطلقاً فى هذا العقل، ثم يرى أمامه بغتة على ضوء اعتراف مخجل مفحم، دليلا حاسما، دليلا ملموساً حقيقياً كالحياة، على أن هذا العمل قد سمم نفساً وأنه يحمل في ثناياه مبدأ الموت وأنه ينشر ذلك المبدأ فى تلك الآونة فى جميع أنحاء العالم - يالها من صدمة عنيفة وياله من جرح عميق أليم ولو أن تأثير تلك الصدمة لايمكث غير ساعة ولو أن الجرح يلتئم سريعاً !

لقد مر جميع المفكرين الثوريين بساعات ذلك الألم ولكن أغلبهم كانوا يجتازونها سريعاً والسبب فى ذلك أنه قل أن يندفع رجل فى تيار الأفكار دون أن يتحول سريعاً إلى مسخ ممثل لعقائده الأولى. ولا يرى بدأ من الاستمرار على القيام بدوره ولايلبث أن يجد له أشياعاً وأنصاراً. ولكنه لايكاد يصطدم بالحياة حتى تنتابه عقيدة الشك وتستولى عليه فكرة النظر الى الأمور نظرة تقريبية فيضعف يقينه ويتزعزع ايمانه ويتضاءل مثله الأعلى. إن المرء لايعلل نفسه بأن الخير والشر يتنازعان قلوب الناس

فهذا يفعل هنا وذاك يصنع هناك ومع ذلك فان العالم يستمر في سيره المعتاد والناس لايتغيرون . أما أدريان سيكست فانه كان مخلصاً إلى حد التفانى وهذا ما يجعل منه رجلا يختلف تمام الاختلاف عن غيره من الرجال ولذلك فانهلم يفكر فيما اعتادوا التفكير فيه. ثم إنه كان فىهذه الحياة وحيداً فلا دور يقوم به فى هذهالحياة ولا أنصار يرضيهم أو يجاملهم . فهو وفلسفته يمثلان وحدة غير مجزأة والتهم التى كانت تكال له وتلصق باسمه لم تؤثر فى جمال روحه المستوحشة ولافى نفسه الأبية . ومما يجدر ذكره أنه وجد وسيلة ليسير فى وسط المجتمع ويخترقه بدون أن يرى ما يمر فيه أو يتأثر به. أما الشهوات التى رسمها والجرائم التى درسها فكانت تظهر له أولئك الأشخاص الذين كانت تشير اليهم الملاحظات الطبية : « فلان . . . ، ٣٥ سنة . . . ، صناعة كذا . . . ، أعزب . . . » ويتبع تلك البيانات وصف الحالة وصفاً دقيقاً ضافياً دون أن يرد فى ذلك الوصف ما يحمل القارىء على الشعور بوجود شخصية مقصودة من ذلك التحليل . ومجمل القول أن ذلك العالم الذى أفاض فى شرح نظرية الشهوات وتشريح الارادة

وتحليل خصائصها لم يحدق جيداً فى وجه مخلوق من لحم
ودم حتى إن مذكرة روبير جرسلو لم تكن موجهة
إلى ضميره باعتباره رجلا شريفاً فحسب وإنما آلمته في
مخيلته باعتباره فيلسوفا كما يؤذى ضوء الشمس حدقة
عين مريض بالرمد . وهكذا لبث خلال الثمانية أيام
التى تلت قراءته الأولى للمذكرة ، فريسة لوهم ملازم
مستمر . وضاعف هذا الوهم غمه وكآبته بما حمله إلى
جسمه من آلام وأوجاع . وشعر العالم بأن رأسه ، وهى
محط الأفكار المتجردة التى يعالجها ويشيد لها ، تكاد
تتحطم تحت كابوس ثقيل من الأفكار المخيفة المؤلمة
وأخذ العالم يتخيل تلميذه المشئوم ، كما رآه لأول مرة فى
تلك الحجرة يسير فوق طنافسها ويجلس إلى المنضدة
ويعتمد يده اليها ويستنشق هواءها ويتنقل بين جوانبها
وكان إذ يطالع سطور تلك المذكرة يسمع ذلك "صوت
الأجش الذى كان يخاطبه به الشاب ويلقى عليه تلك العبارة
الرهيبة . « لقد عشت مع فكرتك وبفكرتك بشهوة
وشغف كلى . » أما كلمات ذلك الاعتراف ، فبدلا من
أن تظل في نظره حروفا ثابتة سطرت بالمداد البارد على
طرس جامد ، فإنها كانت تتحرك ولم تلبث أن تجسمت

واتخذت شكل انسان . وما أن تجلت له الصورة وتبين له الشكل بوضوح حتى فكر فى نفسه . آه ! لما ذا جارتنى ألام بتلك الكرامة ؟ ». لقد كان من الطبيعى ان هذه المرأة التعسة، مع ما كانت عليه من القلق لاثبات براءة ابنها ، أن تغتصب تلك الوديعة وتقف على ما تضمنته من الأسرار الرهيبة ! ولكنها لم تفعل . ولا بد أن يكون روبير قد احتاط لنفسه نخدع أمه بذلك الرياء الكاذب الذى كان الشقى يفخر به كأنه فتح جديد فى علم النفس. ذلك وحده كان كافياً لأثارة شعور ادريان سيكست واقلاق راحته بغير ما حاجة إلى أن يتمثل وجه هذا الشاب وما يحيط به من هلوسات وخواطر مزعجة مؤلمة. وعند ما صاحت به هذه الأم — إذ أنها صاحت له بذلك — ولقد أفسدت ولدى . . . » فان هدوء العالم عنده لم يتأثر ولم يمس . وكذلك فانه قابل بالازدراء جميع التهم التى وجهها إليه الشيخ جوسا ونقلها إليه قاضى التحقيق وماجاء على لسان هذا القاضى من العبارات عن المسئولية الأدبية. لشد ما كان عليه من هدوء النفس وراحة البال حتى ليكاد يكون فرحاً عندما غادر دار العدالة ! أما الآن فقد فارقه هدوء نفسه وخانته سكينته فأصبح

وهو الذى ينكر كل حرية ويدين بمبدأ القضاء والقدر ويحلل الفضيلة والرذيلة بتلك الخشونة التى تبدو على الكيميائى عندما يدرس أحدى الغازات ، وهو النبي الذى يبشر بمبدأ الآلية وسير الأشياء على الأطلاق سيراً ميكانيكياً . والذى نعم بتمام الألفة بين قلبه وعقله — يتألم من داء عضال يتعارض مع جميع مذاهبه : — كان كمريده ، يعانى وخز الضمير ويشعر بمسئوليته !

ومرت ثمانية أيام على ذلك الذهول الذى استولى عليه لأول وهلة وكان خلال هذه الفترة قد قرأ المذكرة مراراً وتكراراً حتى ليستطيع أن يورد جميع عباراتها عن ظهر قلب . وهدأت العاصفة التى اجتاحت فؤاده وأثرت على عقله وصفا ذهن ادريان سيكست وحينئذ حاول الفيلسوف أن يقاوم . فى بعد ظهر يوم من شهر فبراير رطب جوه حتى شابه جو الربيع بينما كان يتريض فى حديقة النباتات جلس على مقعد فى الطرقة التى اعتاد التخلف اليها المحاذية لشارع بيفون تحت شجرة من أشجار الطلخ محاطة بسياج من الأسلاك المعشقة بالجبس ، يتفيأ ظلال أغصانها وقد تضافرت كأنها أصابع عملاق نخر المرض أعصابه فالتوت مفاصله . وكان مؤلف نفسية الله

يحب هذا الجزع العتيق اليابس حتى ليكاد يكون متحجراً نظراً للتاريخ المكتوب على اللوحة المعلقة على تلك الشجرة المسكينة وتعد بمثابة حقوقها المدنية ... «غرست في سنة ١٦٣٢ ....» وسنة ١٦٣٢ هى السنة التى ولد فيها سبينوزا. وكانت شمس ذلك اليوم هادئة جدا فأحدثت تأثيرها فى المتريض وهدأت من ثورة أعصابه فأخذ يجيل حوله نظرة ذاهلة. وراق له أن يتتبع حيلة طفلين كانا يلعبان إلى جانب أمهما. كانا ينقلان الرمل فى مجارف من الخشب ليشيدا بيتاً وهمياً. وحدث أن انتصب أحدهما واقفاً فى حركة فجائيه فارتطم رأسه بالمقعد الموجود خلفه. لا بد أنه قد شعر بألم شديد لأن ملامح وجهه الصغير قد تجهمت على أنه لم ينفجر بالبكاء ومرت به بضع ثوان من الصمت الخانق الذى يعترى الأطفال قبل أن يجهشوا فى الانتحاب ثم انتابته ثورة غيظ شديدة والتفت إلى المقعد وأخذ يضرب الخشب بقبضته بما أوتى من غلة وحنق

فانتهرته أمه بلطف وهى تكفكف عبراته وقالت له:

— «أوأنت أبله يا صغيرى المسكين! هيا. امتخطه (ومخطته) ماذا عسى أن يعود عليك من وراء ثورتك على قطعة من الخشب ....»

وفرج هذا المشهد من كربة العالم وما أن وقف ليتابع تريضه تحت أشعة الشمس الهادئة حتى بدا عليه الانهماك والتفكير وأخذ يخاطب نفسه :

ـ حقا انى أشبه هذا الطفل الصغير. فهو فى طفولته الساذجة يحاول أن يحيى الجماد ويجعله مسئولا ... «وأنا. ماذا ترانى أفعل غير ذلك منذ أكثر من أسبوع ؟ ... »

ولأول مرة منذ أن أطلع على المذكرة اجترأ على أن يفصح عن فكرته بمثل ذلك الوضوح الذى امتاز به عقله وتفكيره وبرز فى جميع كتاباته واستطرد :

ـ وأنا أيضا قد خيل إلى انى أحمل قسطا من المسئولية فى تلك المغامرة الرهيبة ... مسئول ؟ ... ان تلك الكلمة جوفاء لا معنى لها ... »

واتجه نحو باب الحديقة وعرج على جزيرة القديس لويس فنوتردام وكان طوال سيره منهمكا في استعراض تفاصيل البينات والأدلة الموجهة ضد نظرية المسئولية في كتاب «تشريح الارادة» وخصوصاً نقده للفكرة السببية . كان دائما متمسكا بتلك الناحية من التفكير ولذلك لم يلبث أن استنتج بقوله : «هذا عين اليقين .» وبعد أن انتهى من تسديد ذلك اليقين فى ذهنه رأى

نفسه مرغما على التفكير فى جرسلو ، جرسلو الحالى ، جرسلو سجين الحجرة رقم ٥ فى فناء سجن ريوم وكذلك جرسلو السابق ، جرسلو الطالب فى مدينة كلرمون المنكب على صفحات «نظرية الشهوات» و «نفسية الله» . فعاوده ضيق جديد واحساس ثقيل من أن هذا الفتى قد تناول مؤلفاته بالبحث والتنقيب وانه أحبها . وفكر في نفسه : «يا لشخصيتنا المزدوجة ! ولماذا ذلك العجز عن تذليل أوهام نعلم تمام العلم أنها كاذبة ؟ . . . » وفجأة عاودته ذكرى تلك العبارات من مذكرة جرسلو : «انى أشعر بتأنيب الضمير فى حين أن المذاهب التى أؤمن بها والحقائق التى أعرفها والعقائد التى يتألف منها جوهر ذكائى يحملنى على النظر إلى وخز الضمير كأحط الأوهام البشرية وأحقها . . . » ورأى أن المقارنة أو التقريب بين حالته الأدبية الحالية وحالة تلميذه الأدبية أمر بغيض كريه فحاول أن يتخلص منها بالعودة إلى التفكير من جديد فسأل نفسه : «اذن ! فلنتشبه بالمهندسين ولنسلم بصحة ما نعلم بأنه كذب . . . ولنبدأ بما يتعارض مع العقل . أجل ، ان الانسان سبب ، وسبب حر . فهو اذن مسئول . فليكن . ولكن متى وأين وكيف أسأت التصرف ؟ لماذا

يؤنبني ضميري بسبب هذا الفاجر الشرير؟ وفيم أكون قد أخطأت؟.. وعاد إلى البيت وفي عزمه أن يستعرض حياته كاملة فتصور نفسه طفلا صغيرا مكبا على كتابة فروضه بدقة متناهية خليقة بما كان عليه أبوه الساعاتي. ثم عند ما بدأ يفكر. أي شيء تراه قد أحب. وماذا تراه قد أراد؟ الحقيقة. فلماذا كتب، عند ما تناول القلم، وعلى خدمة من أوقف هذا القلم إن لم يكن على خدمة الحقيقة؟ لقد ضحى بكل شيء: الثروة والمكانة والأسرة والصحة والحب والصداقة. بل بماذا يبشر المذهب المسيحي، وهو المذهب الملىء بالأفكار التي تتعارض مع أفكاره وتناقضها تماما؟ «السلام على الأرض للرجال العاملين» أي أولئك الذين بحثوا عن الحقيقة. فعاد ينقب في ماضيه بما اشتهر به من نبوغ أوقفه على خدمة ضميره حتى فوجد انه لم يحد يوما أو ساعة عن البرنامج السامي الذي اختطه لنفسه في حداثته وارتاح له وانه دأب على تنفيذ شعاره النبيل الوديع: «قل فكرتك كاملة ولا تقل إلا فكرتك.» وردد لنفسه: «هذا هو الواجب لمن يؤمنون بالواجب. وإنني قد قمت بواجبي.» وعند ما انتهى هذا الرجل النزيه العظيم من تأملاته

الجريئة عن نفسه هدأ خاطره واستطاع أن ينام فى تلك الليلة نوما هادئاً لم تعكر صفوه ذكرى روبيرجرسلو

وعند ما استيقظ فى اليوم التالى لذلك الأعتراف العام الذى أجراه عن نفسه لنفسه شعر أدريان سيكست بأن الهدوء لم يزل ملازما له وأن سكينته لم تفارقه. كان قد تعود النظر إلى دخيلة نفسه خلال استسلامه إلى التفكير ولذلك فكر فى أن ما أصابه من الأنقلاب كان أمرا طبيعياً فلم يبحث عن سببه. وأن ما حدث له من الاضطراب الفجائى وتبكيت الضمير كان نتيجة ولو لبضعة ساعات ، بصحة بعض الأفكار عن الحياة الأخلاقية فى حين أن عقله كان ينفيها نفياً باتا ولا يسلم بها. واستنتج : « توجد إذن أفكار طيبة نافعة وأفكار سيئة ضارة. ولكن ، هل الضرر الذى ينجم عن فكرة سيئة يدل على عدم صحتها ؟ فلنفرض انه فى الأمكان إخفاء موت شارلوت عن الماركيز دى جوسا فأنه يهدأ ويطمئن لمجرد تفكيره بأن ابنته على قيد الحياة. هذه الفكرة تعود عليه بالخير وتنقذه. ومع ذلك فهل هى حقيقية ؟ ... والعكس بالعكس ... » كان ادريان سيكست يرى دائماً أنه من المغالطة والقياس

الفاسد كما أنه من الجبن ما يوجهه بعض الفلاسفة القائلين بعدم هيولية النفس من البراهين والبينات ضد نتائج المذاهب الجديدة السيئة وعواقبها المشئومة ثم عمم هذه النظرية بقوله : « يساوى المذهب ما تساويه النفس . والدليل على ذلك أن روبير جرسلو قد حول العادات الدينية إلى آلة يستغلها فى فسقه ودعارته ... » وعاد إلى المذكرة يبحث فيها عن الصفحات التى خصها المتهم فى كتابته عن شعوره في الكنيسة . وشغفته هذه القراءة من جديد فعاود الاطلاع على تلك القطعة التحليلية الطويلة متأنياً فى تلاوة المقاطيع التى ذكر فيها اسمه وأشير إلى مذاهبه ومؤلفاته . وأوقف عصارة ذهنه وقوته ليدلل لنفسه على أن كل عبارة من العبارات التى نقلها عنه جرسلو تصح للتدليل على أعمال تتعارض وتختلف تماماً عن الأعمال التى ارتكبها هذا الشاب المريض واستند إلى أقواله للتدليل على صلاحيتها . وما كاد ينتهى من قراءته الدقيقة للمذكرة المشئومة حتى أصابته نوبة حادة من نوبات اضطراباته النفسية . ولم تعد تصلح الاستدلالات ولا البراهين لتخفف من حدتها . واعترف الفيلسوف بما هو مشهود له من الأخلاص

بأن أخلاق روبير جرسلو، مع ما كانت عليه من الخطر بطبيعتها، قد وجدت في مذاهبه مرتعاً خصباً وأرضا مهيأة لتنمو فيها تبعاً لاحط اهوائها وغرائزها. ومما ضاعف اعتقاده هذا وأضاف إليه اعتقاداً جديداً لا يقل فى تأثيره عن اعتقاده الأول، أن أدريان سيكست رأى نفسه عاجزاً تماماً عن تلبية نداء الاستغاثة الذى يوجهه إليه مريده من أعماق سجنه وكان تأثير الفيلسوف من السطور الأخيرة عميقاً حتى لقد شعر بأنها تمزق نياط قلبه. وأنه وإن لم يرد ضمن اعتراف الشاب ذكر لكلمة دين إلا أنه شعر بدين لهذا التعس في عنقه. وإن جرسلو كان صادقا إذ يقول: أن المعلم مرتبط بالنفس التى هداها وأرشدها حتى وإن كان لم يسع أو يحاول أن يكون مرشداً هادياً أو أن تلك النفس لم تحسن تفسير التعاليم وتطبيقها كما يجب أن تفسر أو تطبق لوجود علة خفية وإن كانت تلك العلة لا تسمح بأن يطلق على مثل تلك النوبات الأخلاقية، وأصيب العالم من جراء ذلك بنوبة أحد من نوبته الأولى وما أن تمثلت له تلك الفظائع التى ارتكبت والخرائب التى أحدثتها مؤلفاته حتى شعر بحزن مؤلم مؤثر وأحدثت عنده ذعراً

مخيفاً . كان يستطيع أن يقول لنفسه ، بل هو قال ذلك فعلا ، إن الرجفة التى أثارها ذلك الاعتراف فى نفسه بدأت تحدث تأثيرها . أما الآن وقد عاوده هدوءه وسكينته فانه أخــذ يقيس بدقة متناهية مخيفة عجز علم النفس واستنتاجاته مهما كانت قيمة عن إدارة تلك الآلة الغريبة التى يسمونها النفس البشرية . كم من مرة ، خلال الجزء الأخير من شهر فبراير وأوائل شهر مارس ، حاول أن يكتب رسائل الى روبير جرسلو ولكنه شعر بعجزه عن اتمامها ! والحقيقة ماذا عساه أن يقول لهذا الفتى التعس؟ انه يجب أن يرضى بما لا مفر منه فى العالم الداخلى كما فى العالم الخارجى . أن يرضى بنفسه كما يرضى بجسمه؟أجل . ذلك هو ملخص كل فلسفة . ولكن مالامفر منه هو أن ما كان عليه هو أشنع وأقذر ما في الماضى والحاضر . أن ينصح الى هذا الرجل أن يمضى بنفسه ، مع ما يوجد في طبيعته من رجس وفجور ، يعد دليلا على اشتراكه فى ذلك الفجور . فهل يلومه ؟ باسم أى مبدأ كان يمكنه أن يوجه اليه هذا اللوم بعد أن جاهر بأن الفضيلة والرذيلة ليست الا إضافات وأن الخير والشر اصطلاحات اجتماعيـة عديمة القيمة وأن أقل الأشياء ضرورى لابد منه فى تفصيل

كياننا كما هو ضرورى لمجموع العالم ؟ بأية عبارات كان يستطيع أن يمنع هذا الرأس وقد تعفن وهو فى الثانية والعشرين بمـا فيه من أنانيـة وشهوة وفضـول سافل ومناقضات فاسدة ؟ هل يمكن أن تدلل للأفعى ، إذا كانت تعقل ، أنه لا يجب أن تنفث سمها ؟ إذن لأجابتك « لماذا أنا أفعى ؟... » وحاول ادريان سيكست أن يحدد فكرته بصور غير تلك التى انطبعت فى مخيلته وأن يستعير هذه الصور من ذكرياته هو فأخـذ يشبه الجهاز العقلى ، الذى انتزعه أمامه روبير جرسلو من مكانه ، بالساعات التى كان يشاهدها وهو طفل وينظر إلى أجزائها وعجلاتها تتحرك ذهاباً وإياباً على طاولة أبيه • كان يرى يايا يتحرك فتعقبـه حركة فأخرى ثم أخرى أيضاً ، ثم تتحرك العقارب . ان من كان ينتزع أو يلمس قطعة فقط كان يوقف حركة السـاعة بأكملها . وهكذا إذا تغير أى شىء فى النفس فان ذلك يوقف سير الحياة . آه ! لو أن الجهاز كان يستطيع من تلقاء نفسه أن يغير الآلة ويعدل سيره ؟ لو كان الساعاتى يسترد السـاعة ليغير أجزاءها ؟ من المخلوقات من يعـدلن عن الشر ويرجعن إلى الخير ويقعن ثم يقفن وتزل بهن القـدم

فيسقطن إلى حمأة الفجور ثم يصلحن من أخلاقهن . أجل ولكن لا بد لذلك من توهم وجود التوبة وهو يفرض توهم وجود الحرية ووجود قاض ووجود ، إله سماوى. هل يستطيع هو ، ادريان سيكست ، أن يكتب إلى هذا الشاب: «تب» في حين أنه الناكر القياسى ، وأن تلك الكلمة إذا صدرت عنه كان معناها : «كف عن الاعتقاد بما برهنت لك على صحته ؟» ، ومع ذلك فانه لمن المؤلم رؤية نفس تحتضر وتموت بدون أن يحاول شيئا فى سبيلها . ولما وصل إلى تلك النقطة في تأملاته شعر المفكر بأنه مدفوع على الرغم منه نحو المسألة الغامضة التى لم يتمكن الانسان من حلها ، نحو حياة الروح التى يئس عالم النفس من فهمها كما عجز عالم الأعضاء من فهم حياة الجسم . ذلك الرجل الذى ألف كتابا عن الله وكتب تلك العبارة : «لا يوجد سر ولا يوجد غير جهل وغباوة ...» أبى أن يذهب بفكره إلى التأمل فيما وراء هذا العالم لأن مثل هذا التفكير يفتح هاوية سحيقة وراء كل حقيقة ويحمل العلم على الانحناء أمام السر والاعتراف بعجزه والقول : «لا أعرف ، ولن أعرف أبداً» ذلك القول الذى يفتح المجال لتوسط الدين وتدخله . كان يشعر بعجزه عن

القيام بشيء نحو تلك الروح اليائسة التى كانت تحتاج إلى نجدة فائقة للطبيعة لتنقذها . ولكن خيل اليه أن مجرد النطق بمثل تلك الصيغة ، بالنسبة لأفكاره ، يعد أمراً جنونيا كمن يدعى أن الدائرة مربعة وأن لكل مثلث ثلاثة زوايا قائمة .

ووقع حادث، بسيط في حد ذاته،إلا أنه زاد فى وطأة ذلك النزاع المؤلم المشتعل فى نفس ذلك العالم وحمله على العمل فى الحال . فقد ارسلت له يد مجهولة صحيفة نشرت مقالا في منتهى الشدة ضده وضد تأثيره بالنسبة لروبير جرسلو . وكان الناقد ، وهو لا شك مدفوع من أحد أفراد أسرة دى جوسا أو أحد أصدقائها ، يشنع فى الفلسفة العصرية ويفضح مذاهبها الممثلة في شخص ادريان سيكست وكثير غيره من العلماء . ثم يطلب حكما رادعاً ليكون عبرة ومثلا . وفى نهاية المقال جاء على وصف دقيق طبيعى لقاتل الآنسة دى جوسا وهو يصعد درج المقصلة وآلاف الشبان الساقطين يعودون إلى جادة الحق ويشفون بفضل هذا المثل من تشاؤمهم وضلالهم . لو جاءه هذا المقال في غير هذا الظرف لابتسم له هذا العالم الكبير وسخر مما احتواه ولفكر بأن الرسالة جاءته

من عدوه ديمولان ولعاد إلى ما يكون قد بدأه من الاعمال بهدوء ارخميدوس وهو يرسم وجوها هندسية على الرمل بينما العدو يخرب المدينة وينهبها . ولكنه عندما قرأ هذا النقد ، الذى كتبه بغير ريب أحد صغار مدرسى علم الأخلاق على ركن مائدة فى منزل احدى بنات الهوى ، لاحظ واقعة لم يكن قد فكر فيها لأن جنون التجرد كان قد أضاع رشد هذا الرجل النظرى وقذف به بعيدا عن العالم الاجتماعى : وتلك الواقعة هى اكتشافه إن تلك المأساة الأخلاقيـة كانت تضم فى ذات الوقت مأساة حقيقية . فبعد مضى بضعة أسابيع ، وربما بضعة أيام سيحاكم ذلك الذى كان يحمل بيده البرهان على براءته ، إن من أغرى الآنسة دى جوسا وغرر بها برىء في نظر عدل الرجال ولئن كانت تلك المذكرة لا تعد دليلا حاسماً فانها لا تخلو من عناصر الصدق الكافية لانقاذ رأس من المقصلة . فهل يترك تلك الرأس تهوى فى حين انه موضع سر شقاء هذا الشاب وعاره وخيانته، وفي حين إنه يعلم كذلك أن هـذا الشق الأديب ليس قاتلا ؟ لا شك فى إنه مرتبط بالاتفاق العرفى الذى قيد به نفسه عند ما فتح تلك المذكرة . ولكن هل ذلك التعهد

كان نافذاً أمام الموت ؟ هـذا الناسك الذى كانت تجتاحه موجة من الأخلاق كان في أشد الحاجة إلى انقاذ جسمه من تأثير فكرته . ولذلك فانه لم يكد يعمل إرادته ويحكمها ويوجد لنفسه حلا حتى استراح جسما وعقلا . وعلم من الاطلاع على بعض الصحف ان قضية جرسلو ستعرض على محكمة جنايات ريوم فى يوم الجمعة ١١ مارس فى ١٠ مارس أصدر الأمر إلى ماريت بأعداد حقيبته وهو الأمر الذى دهشت له خادمته جد الدهشة . وفى مساء ذلك اليوم استقل القطار بعـــد ان ألقى فى صندوق البريد مكتوباً للكونت أندريه دى جوسا ضابط بفرقة الدارغون المعسكرة فى لونفيل . وتلك الرسالة التى لا تحمل أى توقيع كانت تحمل تلك السطور : « ان بين يدى سيدى الكونت دى جوسا رسالة من اخته تحمل البرهان على براءة روبير جرسلو ، فهل يسمح بأن يحكم على برىء ؟ » لم يستطع عالم النفس الثوروى أن يكتب كلمتى « حق » و « واجب » . ولكن عزيمته قد صحت على انتظار نهاية الدعوى ليتكلم وإذا ظل السيد دى جوسا على صمته حتى النهاية وحكم على جرسلو فانه يسلم المذكرة إلى الرئيس في الحال .

وقالت الآنسة ترابينار إلى الأب كاربونيه وهى عائدة من المحطة حيث رافقت سيدها على الرغم منه :

ـ أخذ تذكرته إلى ريوم . ماهى تلك الفكرة التى حملته على السفر وحده فى نهاية هذا الشتاء القارص فى حين انه على أحسن ما يرام هنا ؟ . . .

فيجيبها الحارس الماكر :

ـ اطمئنى يا آنسة ماريت . سنقف على حقيقة كل ذلك يوما . . . ولكن لاشىء ينتزع من رأسى فكرة وجود ابن طبيعى وراء هذا الموضوع . . .

وبينما كان يتناول كأسا من شراب النعناع كانت مدام كاربونيه تعده له فى كل مساء استطرد قائلا :

ـ « إن معدتى متأثرة للغاية وإنها لتحتاج إلى الاسعافات القوية فى كل دقيقة » وتناول جرعة : « هاتى قطعة من السكر فذلك الشره فى انتظارك . » وبينما كان الديك يستعمل منقاره ليحطم قطعة من السكر كان سيده قد انتزعها من كأسه وألقاها له أخذ يخاطبه : « هيا يا فردينان ، لن تلاحق ضحاياك كما يفعل المسيو سيكست فأنت كثير العمل أيها الشقى الكبير . »

— ٦ —

فى اللحظة التى وصلت فيها إلى لونفيل الرسالة التى ألقاها ادريان سيكست فى صندوق البريد ، كان الكونت اندريه الذى بعث اليه الفيلسوف بذلك النداء الحار ، والذى يملك بيده مصير روبير جرسلو ، موجوداً فى مدينة ريوم . وشاءت الصدفة ألا يلتقى الرجلان . لأن الكاتب الشهير عند نزوله من القطار صعد عفواً إلى سيارة فندق «التجارة» بينما الكونت كان قد حجز جناحا فى فندق «العالم» . فى صبيحة يوم الجمعة ١١ مارس ١٨٨٧ ،

وهو اليوم الذى تنظر فيه قضية جرسلو، كان شقيق شارلوت المسكينة يسير ذهاباً وإياباً فى حجرة فرشت بأثاث أخنى عليه الدهر وطنافس عتيقة وستائر ممزقة. وكانت الساعة الأثرية التى تحلى تلك الحجرة تؤذن بانتصاف النهار. والنار تشتعل في المدفأة. أما فى الخارج فان السماء كانت ملبدة بالغيوم والبرد قارص. وكان الجندى القائم بخدمة الكونت قد وضع قليلا من النظام العسكرى فى تلك الحجرة فأدار الساعة وأشعل النار وأعد الأطباق على المائدة لشخصين. وكان بين كل آونة وأخرى ينظر إلى ضابطه يروح ويجيء فى الحجرة وهو يجذب شاربه بيد عصبية ويعض شفته ويعبس ويحمل على وجهه الرجولى بوادر القلق المحزن. لكن كان جوزيف بورا، وهو اسم الجندى الخادم، يعلل ذلك في رأسه الصغير ويبرره بأن الكونت يكاد لا يتمالك نفسه في الوقت الذى يحاكمون فيه قاتل اخته. فلم يكن فى نفسه أو فى نفوس المتصلين بأسرة جوسا راندون، عن قرب أو عن بعد، موضع للشك فى إدانة روبير جرسلو. ولكن ما لم يستطع الجندى الأمين فهمه جيداً مع ما يعلمه من رباطة جأش ضابطه وشجاعته، هو أن يترك الماركيز والده

يذهب إلى الجلسة بمفرده . وقال الكونت معللا مثل ذلك التصرف : « إن ذلك يؤلمني كثيرا » . وهذا ما حمل برورا على التفكير في نفسه وهو يجهز الأطباق والشوك بعد أن أعاد غسلها لعدم اطمئنانه إلى نظافة الفندق : « الحقيقة إنه طيب القلب وإن كان حاد الطبع. لشد ما أعظم حبه لها ! » .

أما أندريه دى جوسا فالظاهر منه انه كان لا يشعر بوجود أحد فى الحجرة . وكأن عينيه القاتمتين المتقاربتين من أنفه لا تشعان بذلك البريق الحاد الذى ينفذ إلى صميم الأشياء الموجه اليها ويستأثر بها، ولا ينبعث منهما ذلك الشعاع الجذاب الذى ضايق روبير جرسلو عند رؤيته لأول مرة لما فيهما من شبه بأعين الطيور الجارحة . كلا . فقد كان فى حدقتيه شيء لا يوصف من الانكماش الذاتى ، أشبه بما يشعر به من يمسه العار أو الخوف من إظهار ما يعانيه فى قرارة نفسه من العذاب . وفى النهاية فان عينيه كانتا كعينى رجل تضطهده الفكرة الثابتة فتنفث فيه سمها فتؤذيه وتمزق نياط صدره بما تحمله من العذاب إلى دخيلة نفسه . ويرجع تاريخ هذا الألم إلى اليوم الذى

وصل اليه كتاب اخته المزعج ينبئه بعزمها على الانتحار . وجاءته برقية ، فى ذات الوقت تحمل اليه نبأ موت اخته فاستقل القطار إلى الأوفرنى على عجل وهو لا يدرى بأية وسيلة سيطلع أباه على الحقيقة المؤلمة الرهيبة . ولكنه كان عازماً على الاقتصاص من جرسلو قصاصاً سريعاً عادلا، وقابله المركيز بتلك الألفاظ:

— «هل وصلتك برقيتى الثانية؟ لقد قبضنا على القاتل»

لم ينبس الكونت ببنت شفة لعلمه بما بينه وبين أبيه من بعد الشقة والالتباس المؤلم . وحدد المار كيز ، وهو يسرد تفاصيل الحادث على ابنه ، الشبهات القائمة ضد الرائد وأنه سيلق القبض على هذا الفتى باعتباره قاتلا وكان الحزن قد أضاع صواب الأخ فتمسك بتلك الفكرة : لقد هيأ له القضاء ظروف الانتقام الذى فكر فيه ويعد شاغله الوحيد مذ أن قرأ اعتراف المائتة وتفصيل شقائها وضلالها ومقاومتها ويقظتها الفظيعة وعزمها الرهيب . كان يكفى ألا يبرز الرسالة التى يحملها فى حافظة أوراقه فيتهم المضلل ويسجن ويحكم عليه بغير ما ريب . فينجو شرف اسم شارلوت لأن روبير جرسلو كان عاجزاً عن التدليل على طبيعة علاقاته بالفتاة . وهكذا يجهل المار كيز

والماركيزة هفوة ابنتيهما، ويحافظ هذان الأبوان اللذان أعمى الحب بصيرتهما على ذكرى هذه البنية نقية طاهرة فى وسط عذابهما وآلامهما ... ولزم الكونت أندريه الصمت .

لزم الصمت ولكن ليس بغير عناء أو نضال شديد مع نفسه . فهذا الرجل الشجاع الذى يمتاز بطبيعته وإرادته ويتمتع بكامل فضائل الجندى الصحيح، كان يكره الغدر وملابسات الضمير وضغطه وجميع الشذوذ والرذائل . وشعر بأن واجبه يحمله على الكلام ويدعوه إلى عدم الموافقة على اتهام برىء . وعبثاً كان يردد فى نفسه أن جرسلو كان قاتل أخته أدبياً وأن هذا النوع من القتل يستحق عقاباً كغيره من أنواع القتل بيدان ما كان يوعز به حقده إليه من المغالطة والسفسطة لم يؤثر فى الصوت الآخر وهو الصوت الذى يمنعنا من الاشتراك فى وزر . ولاريب فى أن الحكم على جرسلو بتهمة التسميم يعد ظلماً ووزراً . ووقع عقب هذا الصراع الداخلى ظرف مريع غير منظور فضاعف فى ثورة اندريه دى جوسا : وهذا الظرف هو صمت المتهم . فلو أن جرسلو تكلم وسرد وقائع غرامه ودافع عن رأسه

وإن كان وراء دفاعه تدنيس شرف ضحيته لما شعر الكونت نحوه بمثل ما كان يشعر به من الاحتقار . ولكن لا . فقد ظهر هذا السفاح على جانب عظيم من النبل وكرم الأخلاق يتناقض مع فعلته الشنعاء ، فلم ينبس بكلمة تدنس ذكرى من أغراها وأوقعها فى مثل ذلك الشرك البغيض . ووقف النذل من العدالة موقف الأباء والشهامة فأبعد عنه عوامل الكراهية والاشمئزاز . وعبثا حاول أندريه أن يقنع نفسه بأن فى تصرف هذا الشاب خدعة يتبعها من يقفون مواقف الاتهام فى محاكم الجنايات ، ووسيلة يتذرعون بها للحصول على حكم بالبراءة لعدم وجود أدلة. فانه كان يعلم من رسالة شقيقته بوجود المذكرات التى تتضمن تفاصيل الأغراء ساعة بعد ساعة . إن مثل تلك المذكرات يخفف من وطأة الاتهام ويوجد الشك فى نتيجة الحكم . ومع ذلك فان جرسلو لا يقدم تلك المذكرات. والتبس الأمر على الضابط حتى انه أصبح لا يستطيع أن يعلل هذا الموقف النبيل الذى يقفه عدوه منه وشعر بالغضب يخنقه والدم يتصاعد إلى رأسه . وتملكته رغبة مجنونة فى الذهاب إلى القاضى المنوط به تحقيق القضية حتى تظهر الحقيقة كاملة فى وضح النهار وحتى لا تكون

المائتة مدينـة بشيء ، كلا ، بشيء مطلقاً ولو بذرة من شرفها لهذا الوغد الذى أضاعها . عند ما كان يتصور اخته ، ذلك المخلوق الوديع الذى أحبه هو ذلك الحب العظيم النبيل ، حب الأخ الأكبر لأخت وديعة نحيلة ، عنـد ما يتصور تلك الأخت بين ذراعى هـذا الرائد الذى قذفته الصدفة ، كان يشعر بأهانة دنيئة تلطخ دمه النبيل وأن فؤاده يتمزق غيظاً . ولقـد كان شعوره في تلك الآونة تشبيه بما كان يشعر به أبان الحرب إذ شاهد سقوط مدينـــة متز وأرغم على تسليم سلاحه.
على انه كان يشعر بشيء من الارتياح إذ كان يفكر فى أن قفص العار الذى يجلس بداخـله المزورون والمحتالون والسفاحون كان فى انتظار هذا الرجل ثم تليه المقصلة أو الليمان . فكان يختنق فى صـدره ذلك الصوت الذى يناجيه قائلا : « يجب عليك أن تتكلم . »
رباه ! لشدما أفظع احتضاره خلال تلك الشهور الثلاثة ! فانه لم يهدأ خمس دقائق دون أن يتخبط بين لجج مشاعره المتناقضة المتباينة !
ولقد كان ذلك السؤال يساوره بلا انقطاع سواء أكان في ميدان العرض وقد اعتلى صهوة جواده وأخذ ينهب

الأرض أو كان فى حجرته يشتغل على ضوء المصباح .

« ماذا عساه أن يفعل ؟ » لقد ترك الأسابيع تمر بغير أن يجيب على ذلك السؤال . أما الآن فقد أزفت اللحظة ليبت في الأمر وينفذ، إذ لم يبق إلا يومان ثم تنتهى محاكمة جرسلو ولا شك فى أنه سيحكم عليه . فقد تقرر أن تستغرق المرافعة أربع جلسات . إن لديه متسعاً من الوقت فيما بعد . ولكن ماذا ! ستعاوده الوساوس ويتجدد نزاعه مع نفسه . تلك هى الحال التى آلت اليها نفسية هذا الرجل الجسور الذى تأبى نفسه التردد . فمرت عليه ثلاثة شهور ولم يعمد على رأى لأنه عند ما يرجع إلى نفسه وينقب فى أعماقها كان يشعر بأن صمته الحالى لم يكن فى الواقع إلا عزماً مؤقتاً . فهو لم يقبل هذا الصمت حتى النهاية . كان يرجىء التحدث ولكنه لم يعد نفسه بأنه لن يتكلم . هذا هو السبب فى عدم استطاعته مرافقة أبيه إلى دار العدالة إبان انعقاد الجلسة الأولى التى لا يلبث أن يقف على ما تم فيها فقد انتصف النهار ودقت ساعة الكنيسة المجاورة اثنى عشرة دقة ولا يلبث أن يرجع الشيخ جوسا .

— وكان الجندى الخادم قد سمع وقع عجل العربة

ثم وقوفها أمام الفندق فقال لضابطه بعد أن ألق نظرة من النافذة : « هذا سيدى الماركيز ياسيدى الضابط . »

— وما كاد الماركيز يظهر عند عتبة الباب حتى بادره أندريه بسؤاله قلقاً : « إذن يا أبتى ؟ »

— فأجابه القادم الجديد : « إذن إن المحلفين فى جانبنا »

لم يكن السيد دى جوسا ، وهو يتكلم ، ذلك الرجل السويدانى المحطم الذى هزأ منه جرسلو بمرارة فى مذكراته . كانت عيناه تلمعان وفى صوته وحركاته فتوة وشباب. لقد كانت رغبة الانتقام تنشطه وتشجعه بدل أن تحطمه . ونسى مرضه واعتدلت قامته وكانت العبارات تخرج من فمه حادة آمرة جلية . واستطرد :

« لقد اقترعوا فى هذا الصباح لاختيار الاثنى عشر محلفاً . . لقد وقفت على أسمائهم » واستشار أوراقه: «بين الاثنى عشر محلفاً يوجد ثلاث مزارعين ، وضابطان على المعاش ، وطبيب بلدة ايجبرس ، وصاحبا حانوتين ومالكان ، وصاحب مصنع ، ومدرس . وهم جميعاً من المشهود لهم بالنزاهة وأرباب أسر ، وليس فيهم إلا كل راغب فى توقيع عقاب يعد مثلا رادعا ... ان النائب العمومى

لعلى يقين من الحصول على حكم . . . آه ! السافل ! لشد ما تألمت إذ رأيته لحظة ، وللمرة الأولى منذ ثلاثة شهور ، قادماً في حراسة جنديين وشعرت بأنه قد وقع ! . . قلما ينجو المرء من مثل هذه المآزق . ولكن ما أفظع جرأته! لقد جال بنظره في قاعة الجلسة . . . كنت جالساً فى الصف الأول . رآنى هل تتصور ذلك ؟ لم يحول عينيه عني . لقد حدق فى وجهى كما لو كان يريد أن يتحدانى . هى رأسه التى نريدها ولسوف ننالها . »

كان الشيخ يتكلم بلهجة وحشية ولم يلاحظ مسحة الكآبة التى علت ملامح الكونت من عباراته المؤلمة . وما كاد يتخل الكونت صورة عدوه وقد قهرته السلطة وقبض عليه رجال الشرطة وكأنه قد تهشم بين اجزاء تلك الآلة الرهيبة التى يسمونها العدالة ، حتى تملكته هزة من العار - عار الرجل الذى استأجر نفراً من السفاحين لارتكاب جريمة القتل . لقد كان يسخر بهؤلاء الجنود والقضاة بمثل مايسخر به القتلة أو العمال الذين يرتكبون فعلة طالما ود تنفيذها بنفسه ، بيده وتحت مسئوليته ! . . . حقاً لقد كان سكوته جبناً ! . . . ثم ما معنى تلك النظرة التى ألقاها المتهم على الماركيز دى جوسا ؟

ثم هل كان يعلم جرسلو أن شارلوت قد اعترفت لأخيها بخطابه في ليلة انتحارها ؟ وإذا كان يعلم ذلك فما ذا عساه أن يفكر فيه ؟ تلك الفكرة وحدها ، فكرة أن هـذا الشاب كان يشك فى الحقيقة ويحتقرهما ، الماركيز وهو ، اسكوتهما ، كانت كافيـــة لتوقد النيران فى دماء الكونت .

وما أن خرج أبوه للعودة إلى الجلسة بعد تناول الطعام بسرعة وبغير ما كلمة حتى ردد الكونت فى نفسه : « كلا ، لا أستطيع أن أسكت سأتكلم أو سأكتب . »

وجلس إلى المكتب وبدأ يدون تلك الكلمات فى رأس قرطاس : « سيدى الرئيس . . » وهبط الليل وهـذا الرجل التعس لم يزل جالساً في مكانه معتمداً رأسه إلى يده ولما يكتب السطر الأول من رسالته . كان في انتظار أنباء الجلسة الثانية، ولشد ما كان اضطرابه عظيما وهو يصغى إلى ما يلقيه عليه أبوه من التفاصيل .

ـــ « آه يا ولدى الطيب ! لقد أحسنت فى عدم ذهابك ! . . . يا للعار ! . . . يا للعار ! . . . لقداستجوب جرسلو . . . إنه يستمر فى طريقته ويرفض أن يتحدث .

لا بأس .. فقد جاء الخبراء بنتيجة تحليلهم . طبيبنا الطيب في المقدمة ... كان صوته يرتجف عند ما بدأ هـذا الصديق العزيز فى سرد ما لستولى عليه من التأثر عند وقوفه بجثة شارلوت ، ابنتنا المسكينة ، في الحجرة. ثم تلاه الأستاذ أرمان . يقينا إنك ما كنت لتحتمل مثل ذلك الشيء الفظيع ، ذلك الوصف لتشريح ملا كنا وهو يعرض بأدق تفصيل على الحضور وكان عددهم لايقل عن الخمسمائة ... ثم الكيميائى الباريسى. لم يبق مجال لأدنى ريب بعد ذلك ! .. وكانت القارورة التى استعملها هـــذا الوحش موضوعة على الطاولة ، وقد رأيتها ... ثم ... كيف جسروا ؟ قام محاميـه ، وهو محام عينته المحكمة ، ولاعذر له بأنه صديق زبونه . قام محاميه ... ولـكن كيف أقول لك ذلك؟ وسأل عما إذا كانت شارلوت قد ماتت وهى عذراء ، وعما إذا كانت قد فحصت .. فارتفع همس يعبر عن استياء الجمهور واشمئزاز الجميع . هى ، ابنتى الطاهرة النبيلة القديسة ! وددت لو استطعت أن أصفع هـذا الرجل . حتى القاتل قد تأثر من هذا القول وهو الذى لا يؤثر فيه شيء . لقد رأيته وقد اعتمد رأسه بين راحتيه وأخذ

يبكى . . أجبنى . أما كان يجب أن يمنع القانون اهانة الضحية فى وسط المحكمة ؟ . ما ذا عساه أن يتوهم ؟ أن لها عشيقاً ؟ . عشيقاً ! هى . عشيقاً ! . »

كان احتقار الشيخ قد بلغ أشده فأخذ ينتحب . وشعر الابن أيضاً ، إزاء .هـذا الحزن العميق المؤثر ، بفؤاده ينفطر والدموع تترقرق فى عينيه، فتعانق الرجلان بغير ما كلمة . واستطرد الأب حديثه ، عند ما استطاع الكلام ، وقال : « أترى؟ تلك هى الناحية الفظيعة المثيرة فى المرافعة . المناقشة علناً فى أمور شخصية عميقة فى حين انها كانت مثال العفة والطهر فى كل حركة من حركاتها . لقد قلت لك ذلك . إنى لعلى يقين من إنها كانت تعسة طوال الشتاء لغياب ما كسيم . صدقنى بأنها كانت تحبه وتأبى أن تظهر حبها . وهذا ما أثار غيرة جرسلو . عند ما جاء الى الدار ورآها وديعة ساذجة ظن بأنه يستطيع أن يغريها ويتزوج منها . أنى له أن يشك فى ذلك بينما أنا ، مع مالى من خبرة في شؤون الرجال وطبائعهم، لم أحذر شيئاً ولم أر شيئاً ؟ » واستمر الماركيز على مثل هـذا الحديث أثناء العشاء ثم طوال السهرة . كان يشعر بالتعزية فى ترديد هـذه الذكرى

بصوت مرتفع وهى التعزية الوحيدة الممكنة فى بعض النوبات العصبية . ولقد كانت تلك العبادة التى يدين بها ذلك الوالد التعس لابنته ، فى نظر الابن الذى كان يصغى ولا يجيب، مفجعة فى تلك اللحظة التى كان يتأهب فيها على . . . علام ؟ أتراه يقدم على طعن ذلك الشيخ تلك الطعنة الهائلة ؟ وما أن انفرد إلى نفسه فى حجرته في وسط ذلك السكون الذى يخيم على القرى حتى تناول خطاب اخته وأعاد قراءته وإن كان يحفظ عباراته عن ظهر قلبه . كان ينبعث من تلك الصفحات ، التى صورتها تلك اليد التى أثلجها الموت إلى الأبد ، نفثات من اليأس وانفاس من احتضار مؤلم مؤثر ! كانت أوهام الفتاة جنونية وصراعها مع نفسها وفياً ويقظتها مريرة . كل ذلك كان يطفر من تلك السطور حتى أن الكونت شعر بدموعه تترقرق فى عينيه وتسيل على وجنتيه من جديد . تلك هى المرة الثانية التى بكى فيها فى ذلك اليوم لأن الدمع كان قد جف فى أماقيه منذ وفاة شارلوت كأن هاتين العينين قد احترقتا بنار الغيظ والحقد . وتمتم إلى نفسه : « لقد استحق جرسلو كل شىء . . . . » وظل بضع دقائق جامداً ثم توجه إلى المدفأة ، وكانت

النار فيها أوشكت أن تخمد، وألقى بالرسالة فوق انقاضها . ثم أشعل عوداً من الثقاب ووضعه بين ثناياها وأخذ ينظر إلى اللهب يرتفع ويمتد إلى تلك السطور الرقيقة الدقيقة ويكتنفها ليلتهم الدليل الوحيد على حب الفتاة التعس وانتحارها . ثم تناول الأخ ملقطاً وأخذ يخلط هباء الورق برماد المدفأة . وخلد إلى النوم وهو يردد إلى نفسه بصوت مرتفع : « لقد انتهى الأمر » ونام كما نام فى الليلة التى شاهد فيها موقعة حربية خاض غمارها ، فكان نومه ثقيلا محطما شبيها بما يشعر به رجال الأعمال بعد جهود مضنية وتفكير عميق ، فلم يستيقظ إلا فى الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالى على الرغم من تعوده الصحو مبكراً .

ـــ « لقد حظر علىَّ سيدى الماركيز أن أوقظ سيدى الضابط » .

هذا ما أجاب به الجندى بورا عند ما لبى نداء سيده ودخل إلى حجرته وفتح نوافذها . وكانت الشمس قد ارتفعت فى القبة الزرقاء وبسطت أشعتها على الطبيعة فابتسمت وقد كانت بالأمس ملبدة مكفهرة . واستطرد الجندى :

ـــ لقد غادرنا سيدى الماركيز منذ ساعة . . . أن

سيدى الضابط يعلم أنهم جاءوا اليوم بالمتهم من النفق ليحولوا بينه وبين هياج الشعب وثورته . »

ــ فسأله أندريه : « أى نفق ؟ »

ــ النفق الموصل بين السجن الاحتياطى ودار العدالة . . . يظهر أنهم يستعملونه لكبار المجرمين الذين يخشى أن يمزقهم الشعب . لعمرى ياسيدى الضابط ، لئن رأيت هذا المجرم لما تمالكت نفسى من اطلاق مسدسى عليه ... إن الكلاب الكلبة لا تحاكم ولكنها تقتل ... »

واستطرد : « حسناً . لقد نسيت بريد هذا الصباح فى حجرة الاستقبال . »

وعاد بعد لحظة يحمل بيده ثلاث رسائل . فألقى أندريه نظرة على اثنتين وعرف خط راسلهما . أما الثالثة فكان خطه مجهولا ورأى أنها أرسلت إلى لونفيل ثم صدرت إلى يوم . ففضها الكونت وتلا السطور الثلاثة التى كان سيكست قد دونها على عجل قبل أن يستقل القطار . وارتعشت يد الضابط الشجاع وهو الذى لم يعرف للخوف معنى . وشحب لونه فصار بلون الورقة التى يحملها بيده المضطربة، فالتبس الأمر على بورا وسأله فى شىء من الوجل :

ـ « هل سيدى الضابط مريض ؟ »

ـ فأجابه الكونت بخشونة : « دعنى . سأرتدى ملابسى بمفردى »

الحقيقة انه كان فى حاجة إلى أن يتمالك نفسه بعد تلك الصدمة التى أصابته فهناك من يعرف السر عن موت شارلوت غير روبير جرسلو ـ لقد قدر له أن يقرأ صفحات بخط الشاب ، وخط تلك الرسالة ليس بخطه . لشد ما أفظع هزة الخوف التى انتابتـــه فهى لا تقل فى تأثيرها عما يشعر به أشجع الرجال إذا فوجئوا بحادث غير مرتقب حتى يظهر أنه غريب غير طبيعى . ولئن رأى شقيق شارلوت أخته ماثلة أمامه فى هذا المكان على قيد الحياة لما كانت دهشته أفظع وأعمق أثراً فى نفسه . هناك إذاً شخص يعرف تفاصيل انتحار الفتاة ويعرف سر الرسالة التى بعثت بها اليه قبل موتها وقد يكون هذا الشخص على علم بغير ذلك من الأسرار الأخرى . وهذا الشخص ، هذا الشاهد الخفى الواقف على الحقيقة ، ما ذا عساه أن يظن به ؟ إن علامة الاستفهام التى ذيلت بها الرسالة المجهولة كانت تعبر عما يقصد اليه راسلها . وتذكر الكونت فجأة ما أقدم

على فعله فى الليلة السالفة . كما تذكر تلك الرسالة التى ألقى بها إلى النار ، فعلت وجنتيه حمرة الخجل . لم يعد فى وسعه أن ينفذ ما عزم عليه بالامس وارتاح له ونام على أثره مطمئناً .

ولم يحتمل هذا الشاب المتعطش إلى الشرف أن يتصور إنه يوجد على وجه البسيطة من فى مقدوره أن يقول : « ان الكونت دى جوسا قد ارتكب أمراً إداً أو انه نذل ساقط » ، وعاوده ما كان عليه بالأمس من اضطراب وقلق واستيقظ شعور الحقيقة فى نفسه من جديد وقد زاد فى إيلامه رجوع أبيه وقوله له :

— « لقد سمعت أقوال الشهود ... وأديت أنا أيضاً شهادتى . . . لقد آلمنى وجودى مع والدة جرسلو فى قاعة الجلسة قبل المحاكمة . . . ومن حسن الحظ أنها لا تقيم فى هذا الفندق . . . فقد نزلت فى فندق التجارة لقد توسلت إلى أن أوافيها هناك لأتحدث اليها وقامت بيننا مشادة . ويا لها من مشادة ! . . . لا يمكن أن أنسى هذا الوجه المشؤوم وهاتين العينين السوداوين المغرورقتين بالدموع وهى ترشقنى بنيرانهما . . لقد تقدمت منى متهجمة وخاطبتنى ... وتوسلت إلى لأقول

إن ابنها برىء ، وانني أعرف ذلك ، وانه لا يحق لى أن أشهد ضده . أجل . يالها من مشادة حال الشرطى دون احتدامها !... ياللتعسة !... لا أستطيع أن أحقد عليها ... فهو ابنها ... وانه لمن أغرب الأمور أن يكون لمثل هذا الشقى قلب يحنو عليه ويحبه ، كما كنت أحب شارلوت ، وكما أحبك ! . . . ، واستطرد الشيخ : وهذا لا يهم ! . . . فالساعة الواحدة . . . سوف يتكلم النائب العمومى . . . ثم يتلوه الدفاع . . . وسنعرف قرار المحكمة بين الساعة الخامسة والسادسة . . . لسوف يرتاح فؤادى عند رؤيته وهو يسمع الحكم عليه ! . . . سيكون الحكم عادلا . . . لقد قتل . ويجب أن يموت . . . ،

لم يزل فى الوقت متسع . خمس أو ست ساعات ! . وما أن انفرد الكونت إلى نفسه حتى عاد إلى السير جيئة وذهوبا - كما كان يفعل بالأمس - بينما كان الجندى يرفع المائدة مع خادم السيد دى جوسا . وحكى هذان الرجلان أنهما لم يريا سيدهما على تلك الحالة من القلق . ولشدما كانت دهشتهما عظيمة عندما طلب اليهما أن يعدا ملابسه الرسمية . فارتداها فى أقل من خمسة عشرة دقيقة وغادر الفندق مع أنه رفض أن يغادر حجرته

خلال الثلاثة أيام التي قضاها في ريوم . ولاحظ بورا أن الضابط أخذ مسدسه معه فارتعدت مفاصله وجلا . وتذكر الجندى العبارات التى كان قد فاه بها واطلع رفيقه على مخاوفه:

ــ « لئن قدر أن يحكم ببراءة جرسلو فلا شك فى أن الضابط سيلهب رأسه فى مكانه . . . »

فأجابه الخادم :

ــ « قد يكون من واجبنا أن نلحق به ؟ . . . »

وبينما كان الخادمان يتفاوضان في الأمر كان الكونت يقطع الطريق الكبيرة المؤدية إلى دار العدالة . وكان يعرفها لزيارته تلك المدينة في طفولته . وكأن هذه المدينة القديمة، في اللحظة التى كان يسير فيها شقيق شارلوت نحو المحكمة ، كانت على غير عادتها هادئة كمدينة الأموات . وما أن اقترب من دار العدالة حتى سمع هدير الجموع المحتشدة حتى لقد تعذر عليه الوصول إلى قاعة المحاكمة . فكل من استطاع من سكان المدينة أن يتصرف فى ساعة من وقته، كان قد قصد إلى المحكمة ليشاهد قضية جرسلو . ووجد اندريه عناء كبيراً فى شق طريقه بين جموع القرويين الذين غادروا حقولهم والباعة الذين تركوا حوانيتهم واشتبكوا مع بعضهم فى مناقشات حادة . ووصل إلى الدرج

المؤدى إلى الردهة فاصطدم بجنديين وقفا خصيصا لتهدئة الشعب . وظهر التردد على الكونت واستمر فى طريقه حتى نهاية الشارع ووقف فترة أمام فسحة تكللها الأشجار العارية . وجلس على مقعد خشبى أمام نافورة يصغى إلى خريرها الصامت . ولم يستطع أن يعلل فيما بعد لماذا جلس فى هذا المكان أكثر من نصف ساعة ، ولا السبب الذى حمله بعد تلك الفترة على الوقوف والاتجاه نحو مدخل دار العدالة ، ولا لماذا كتب بضعة كلمات على بطاقته وسلم تلك البطاقة إلى جندى ليحملها الحاجب إلى الرئيس . كان يشعر تماماً بأنه يعمل ضد ارادته كما لو كان فى حلم . ولكنه قد وطد عزيمته وشعر بأنها لن تزعزع أو تضعف وان آمله أن يقف من أبيه وجها لوجه تحت أنظار الجموع الشاخصة وأعناقهم المشرئبة . ولم ينقذه من عناء هذا الاحتضار إلا عودة الحاجب اليه ودعوته إلى مرافقته . وقاده الرجل من ردهة منعزلة إلى حجرة صغيرة هى بلا شك مكتب الرئيس لما شاهده فيها من الملفات. ولما استقر به المقام قال له مرشده:

— سيسمع الرئيس أقوالك متى انتهى النائب العمومى من مرافعته . . .

لشد ما أعظم تلك التعزية فى وسط ما كان يعانيه من الألم!
سوف لا يعانى آلام الشهادة علنا تحت أنظار الجمهور! ولكن
سرعان ما تلاشى هذا الأمل الضئيل . فلم تمض عشر دقائق
على الضابط فى تلك الحجرة حتى دخل عليه الرئيس وهو شيخ
أصفر الوجه تنعكس حمرة ردائه على بياض شعره فتكسبها
لوناً أخضر . وما أن سمع القاضى قول الكونت وأنه
يحمل اليه البرهان على براءة المتهم حتى قال له مشدوهاً :

— إننى لا أستطيع فى مثل هذه الظروف ياسيدى
أن أسمع اعترافك . . . ستعقد الجلسة وهناك تستدعى
لتأدية الشهادة إن لم يعترض الاتهام أو الدفاع على ذلك.

وهكذا لامناص لشقيق شارلوت من أن يجرع هذه
الكأس حتى الثمالة ! فقد اصطدم بصرح العدالة العتيد
وهذا الصرح لا يتزعزع ولا يتأثر للشعور البشرى. كان
لابد له أن يجلس فى حجرة الشهود وأن يتذكر المشهد
الذى وقع ـ منذ بضع ساعات ـ بين أبيه ووالدة جرسلو
ثم دخل الى قاعة المحاكمة. ووقع نظره على جدران تلك
الحجرة العارية الا من ذلك المصلوب المهيمن على من
فيها وتصور الرؤوس المتجهة اليه فى انتباه شديد والرئيس
بين زملائه والنائب العمومى والمدعى العمومى في ردائهما

الأحمر . والمحلفون على يسار المحكمة . وكان روبير جرسلو جالساً في الجهة اليمنى على مقعد المتهمين وقد شبك ذراعيه على صدره وهو شاحب اللون على الرغم من رباطة جأشه وكانت الجموع محتشدة فى كل مكان خلف القضاة وفوق المنابر . ورأى أندريه أباه بشعوره البيضاء جالساً بين الشهود . فآلمته رؤيته . وشعر بقلبه ينبض بشدة ، مع أنه لم يشعر بمثل ذلك عندما سأل الرئيس الدفاع والنائب العمومى إذا كانا لا يعارضان فى سماع شهادته . ثم دعاه إلى ذكر اسمه وصفاته وحلف اليمين القانونية . وقد أجمع القضاة الذين شاهدوا هذا الموقف على القول بأنهم لم يشعروا فيما مر بهم بمثل ما شعروا به عند ما وقف هذا الرجل ، وكلهم يعرف ماضيه وشجاعته مما كتبته الصحف عن هذه القضية ، وتكلم بصوت ثابت جهورى وإن كان يخفى ما يعانيه من ألم : « ياحضرات المحلفين ، ليس لدى ما أقوله غير كلمتين . إن شقيقتى لم تقتل . ولكنها قتلت نفسها . فى ليلة موتها وصلتنى منها رسالة تنبئنى فيها بعزمها على الموت ، وتوضح لى السبب . . . أيها السادة . لقد ظننت أن واجبى يدعونى إلى إخفاء هذا الانتحار فحرقت الرسالة . . . فاذا كان الرجل الماثل أمامكم » وأشار بيده

الى جرسلو بعد أن التفت الى المتهم «لم يسكب السم فقد فعل ما هو أفظع من ذلك . ولكنه لايخضع لعدالتكم ولا يجب أن يحكم عليه كقاتل . . . إنه برىء . . . وإذا كنت لا أستطيع أن أقدم لكم البرهان المادى على هذه البراءة فانني أحمل اليكم كلمتى.»

ووقعت تلك العبارات واحدة فواحدة فى جو من الحزن والألم . وسمعت صيحة أعقبتها زفرة يأس وألم وصوت يقول :

— «إنه لمجنون . إنه لمجنون فلا تصغوا اليه.»

فالتفت الكونت اندريه وقد عرف صوت أبيه وأجابه :

— «كلا ياأبتى. لست مجنوناً . . لقد فعلت ما يتطلبه الشرف . . . إننى أؤمل ، ياسيدى الرئيس أن أعفى من الاسترسال والافاضة .»

وكانت لهجة هذا الرجل النبيل تنم عن الحزن والاستعطاف وهو ينطق بتلك العبارة . وشعر الجمهور بما هو عليه من ألم عميق وتذمر حين أجابه الرئيس :

— «يؤلمنى كثيراً ياسيدى ، أننى لا أستطيع أن أجيبك على ماتطلب. إن خطورة الشهادة التى أديتها الآن

لاتسمح للعدالة بأن ترضى بدلائل يحتم علينا واجبنا - وهو واجب مؤلم ولكنه واجب - أن نرغمك على إيضاحها . . . »

— حسناً ياسيدى . سأؤدى أنا أيضاً ، واجبى حتى النهاية .

وكانت لهجة الشاهد حاسمة وهو يلقى بتلك العبارة فحل الصمت بين الجماعة محل التذمر . وسمع صوت الرئيس وهو يستطرد :

— « لقد تكلمت ياسيدى عن رسالة كتبتها لك الآنسة شقيقتك . . . فاسمح لى بأن أقول لك ، أن من العجب أنك لم تفكر ، لأول وهلة ، فى تقديمها للعدالة لتستضىء بها . . . »

— فقال الكونت : « كانت تتضمن سراً وددت أن أخفيه ولو كلفنى دمى . . . »

وروى فيما بعد إلى صديقه مكسيم دبلان الذى اختاره ليكون له بمثابة الأخ لحافظ على عهده حتى نهاية هذه المأساة ، أن تلك اللحظة كانت أروع لحظة فى عذابه وازداد انفعاله وتأثره فلم يعد يشعر به حتى لكأنه قد زال . واضطر أن يفضى بما فى خطاب المائتة من

تفاصيل مروعة ، وأن يروى دقائق شعوره الذاتى وأن يعترف بآلامه وعذابه . أما ما أعقب ذلك فقد صرح بأنه لايذكر منه إلا شذرات شاردة أهمها برودة العمود الحديدى الذى اتكأ عليه عند ما أراد الجلوس على دكة الشهود التى رفعوا عنها أبوه عند ما غشى عليه لسماعه العبارات الأخيرة من شهادته . . . وصرح أيضاً بأنه لاحظ لهجة النائب العمومى عند ما وقف ليتنازل عن الاتهام . . . أما الوقت الذى مر عليه بين عبارة النائب ودفاع محامى جرسلو وخروج المحلفين وعودتهم يحملون قراراً سلبياً فانه لم يستطع أن يحدده ولا كيف قضى سهرته عند مادعاه الحاجب إلى مغادرة القاعة بعد أن خلت ممن فيها . إن مايذكره من ذلك كله هو أنه مشى طويلا سريعاً وأنه قطع مسافة بعيدة . وصادفه كثير من القرويين الذين شهدوا الجلسة وهو يسير أمامه على غير هدى فى طريق القرية . وكان قد لجأ إلى إحدى الحانات حيث أعد بضع رسائل احداها برسم أبيه والأخرى الى أمه وثالثة إلى قائد فرقته ثم واحدة الى مكسيم دى بلان .

وفى الساعة التاسعة كان يقرع باب فندق التجارة حيث عرف من السيد دى جوسا ان والدة المتهم تقيم

فيه وسأل البواب عما إذا كان المسيو جرسلو موجوداً فيه . وكان البواب قد سمع بتفاصيل المأساة التى وقعت فى الجلسة وحذر ، عند رؤية الضابط الماثل أمامه بلباسه الرسمى ، ما عساه أن يقع من مكروه ، فأجاب بأن السيد روبير جرسلو لم يحضر . وظن لسوء الحظ إنه يحسن صنعاً بالصعود حيث يوجد الشاب واخطاره بما حدث . وكان الشاب جالساً منذ خروجه من السجن بصحبة أمه والسيد أدريان سيكست الذى لم يستطع أن يقاوم توسلات الأرملة وقد التقت به فى ردهة الفندق واستنجدت به ليقوم ما أعوج من تصرفات ولدها :

والتمس الرجل الأذن بمحادثة روبير على انفراد وقال له :

— « احترس يا سيدى فان الكونت دى جوسا يبحث عنك . »

— فسأله جرسلو بحدة : « وأين هو ؟ » .

— فأجابه البواب : « أظنه لم يبرح الطريق بعد ولكننى أخبرته بأننا لم نرك هنا !

— فأجاب جرسلو : « لقد أخطأت » ثم تناول قبعته واندفع على السلم .

ـ وصاحت به أمه متوسلة : «إلى أين تذهب ؟ »
فلم يجبها الشاب . وربما كان لم يسمع تلك الصيحة لما كان عليه من العجلة فى نزول الدرج مدفوعا باضطرابه وكبريائه لئلا يرميه الكونت أندريه بالجبن. ولم يبحث طويلا عن غريمه فقد كان الكونت واقفاً فى الطرف الآخر من الطريق يراقب الباب . فعرفه روبير وتوجه اليه تواً وقال له بأنفة وخيلاء :

ـ « هل تريد أن تكلمنى يا سيدى؟ »

ـ فأجابه الكونت : « أجل » .

ـ واستطرد جرسلو : « إننى طوع أمرك . لأية ترضية تريد أن تفرضها على . . . لن أغادر ريوم . وإنى أعدك على ذلك . »

ـ فأجابه أندريه دى جوسا : كلا يا سيدى ان الرجال أمثالك لا تنازل ولكنها تعدم . »

وأخرج مسدسه من جيبه . فلم يهرب الآخر ولم يحاول الهرب بل تحداه وظل واقفاً أمامه كمن يقول : « اجرؤ » وأطلق الكونت رصاصة فأصاب رأس الفتى . وسمع فى الفندق دوى الرصاصة مع صيحة احتضار . وعند ما أسرعوا وجدوا الكونت أندريه واقفاً مسنداً ظهره

إلى الحائط . فألقى سلاحه وشبك ذراعيه على صدره وقال ببساطة وهو يشير إلى جثة عشيق اختــــه تحت قدميه :

ــ « لقد انتقمت انتقاما عادلا : »

وسلم نفسه بغير مشادة أو مقاومة .

. . . .

. . . .

لئن قدر للمعجبين بمؤلفات « نفسية الله » و « نظرية الشهوات » و « تشريح الارادة » أن يشاهدوا في الليلة التالية لذلك المشهد المروع ، ما كان يدور فى الحجرة رقم ٣ بفندق التجارة ، ويقرأوا ما كان يدور فى خلد أستاذهم الحقود الشديد البطش لكانت دهشتهم عظيمة.

كانت الأم جاثية معصوبة الرأس أمام السرير الذى وضعت عليه جثة روبير جرسلو . وكان هذا الملحد الكبير جالساً على مقعد وهو ينظر تارة إلى هذه المرأة وهى تبكى وطوراً إل جثة ذلك الذى كان مريده ، وهو يرقد رقدته الأخيرة كما فعلت شارلوت دى جوسا. ولأول مرة ، شعر بفكرته تنوء عاجزة عن احتمال هذا المحلل النفسى الطاغية فذل وأحنى رأسه وتحطم

أمام سر القدر العميق الذى عجزت عقول البشر عن إدراكه. ولم يذكر مما تعلمه من الصلوات فى طفولته إلا هذه الكلمات : « أبانا الذى في السموات . . . » حقاً بأنه لم ينطق بهده الألفاظ ، وقد لا ينطق بها مدى العمر ولكن إذا صح وجود هذا الأب السماوى فهل يوجد أرحم من هذه الصلوات لتوجه اليه ؟ وإذا كان هذا الأب السماوى غير موجود كما يزعم الملحدون فهل كنا نشعر بمثل هذا الظمأ إلى الألتجاء اليه فى مثل هذه الساعات الدقيقة ؟ — « وإنك ما كنت لتبحث عنى إذا كنت لم تجدنى ! » . — فى تلك اللحظة وبفضل ما يمتاز به العلماء من صفاء الذهن فى ساعة النوبات الدقيقة ، تذكر أدريان سيكست تلك العبارة الرائعة الرائعة التى نطق بها باسكال فى كتابه « سر يسوع » وعند ما وقفت الأم استطاعت أن تراه وهو يبكى .

للمعرب

	ص
قصة الاستمتاع	١٠
« نداء القلب	١٠
« سميراميس	١٠
« المريد	١٠

تحت الطبع

تربيـــة الارادة } عن جون بايو
عمل الارادة التفكيرى

أكاذيب قصة عن بول بورجيه

تطلب من مكتبة الأنجلو المصرية بشارع قصر النيل

دار "مجلتي" للطبع والنشر
القاهرة — شارع الداخلية
تليفون : ٥١٤٥١